فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

445

ايار 2024

مقالات

حسان عاكف

اسماعيل نوري الربيعي

نعيمة الرياحي

حسين سميسم

مجيد ابراهيم خليل

نصوص قديمة

عصام الخفاجي

نصوص مترجمة

كوهي سايتو

حوارت

(الثقافة الجديدة) تحاور

الاستاذ رائد فهمي (القسم الثاني)

أدب وفن

حسب الله يحيى

معين بسيسو

علي ناصر كنانة

ايمان عبد الحسين

نجم حيدر

خالد الحلي

مجيد الموسوي

حامد ثامر المسفر

ضياء خضير

أحمد الزبيدي

خالد خضير الصالحي

سحر الشامي

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل　　جـــــواد الزيدي
رضـــــا الظاهر　　علي إبـراهيـــم
كـــــاوة محمود　　مظهر محمد صالح
هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري
هـــاشـم نعمـة
سوران قحطـان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

العدد 445
أيار 2024

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 - انتفاضة آذار 1991..... حسان عاكف
17 - الديمقراطية باعتبارها صفقة قابلة للتفاوض:
دراسة حالة العراق 2003-2023.....اسماعيل نوري الربيعي
25 - الحداثة ومعاثرها واستئنافاتها السياسية والأخلاقية
من خلال هابرماس وفوكو..... نعيمة الرياحي
36 - في التنوير وأزمة التنويريين العرب..... حسين سميسم
42 - إنجلز، سيرة مفكر..... مجيد ابراهيم خليل

نصوص قديمة

49 - من الدولة الريعية إلى نصف الديمقراطية..... عصام الخفاجي

نصوص مترجمة

58 - العلاقة الفكرية بين ماركس وانجلز
من وجهة نظر بيئية - بقلم: كوهي سايتو ..... ترجمة بتصرف: حازم كويي

حوارت

74 - (الثقافة الجديدة)
تحاور الرفيق رائد فهمي - القسم الثاني .. أجرى الحوار: زهير الجزائري و سوران قحطان

أدب وفن

109 - عن شغيلة الفكر.....حسب الله يحيى
110 - الكوكب حمزة.. سلاما ..... الثقافة الجديدة
111 - من بغداد الى غزة: منشور جديد للأرض..... معين بسيسو
115 - بـرتقالة المكّي ورحيق الدهشة .....علي ناصر كنانة
122 - الاصابع واضاءة الخلفية الايديولوجية
في قصص حسب الله يحيى..... ايمان عبد الحسين
128 - بين أبستمولوجيا الكلمة وأبستمولوجيا الصورة ..... نجم حيدر
132 - دربٌ مُلْتَبِسُ المَسارْ..... خالد الحلي
134 - سيناريو الصحراء الأولى ..... مجيد الموسوي
139 -النصف الآخر من القمر.....حامد ثامر المسفر
141 - حكاية الدرويش والحلّاج لطه جزَّاع
أو حوار التلميذ والأستاذ..... ضياء خضير
145 - الأديب الأوزبكي التقدمي عبد الله قادري
ورواياته المضادة للعنف والاستبداد..... أحمد الزبيدي
150 - محمد مسير : رسوم بلا قيود.....خالد خضير الصالحي
155 - الحمامة :مسرحية ذات فصل واحد .....سحر الشامي

لوحتا غلافي العدد للفنان صادق طعمة

التدقيق اللغوي: مصطفى عبـــــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العتابي

كلمة العدد

قضايا مستعصية يتوجب معالجتها

كثيرة هي القضايا المستعصية التي باتت تواجه العراق في أبعادها السياسية والاقتصادية والأمنية والبيئية، دون أن تجد لها معالجات وحلولا شافية، تسمح بإطلاق تنمية اجتماعية - اقتصادية متوازنة، على الرغم من توافر البلد على إمكانيات مادية وبشرية كبيرة تؤهله لذلك، لكن ما ينقصه هو التخطيط والنظرة الشاملة البعيدة المدى التي تستشرف حاضر البلد ومستقبله في ظل التحولات الجيوسياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية التي تشهدها منطقتنا خصوصا والعالم عموما.

فإذا أخذنا بعض الأمثلة على ذلك، منها استكمال سيادة البلد وتعزيز استقلاله لا من الناحية السياسية فقط وإنما من النواحي الأخرى الاقتصادية والأمنية والعسكرية، فنجد بلدنا تنتهك أراضيه وأجواؤه من دول الجوار المرة تلو الأخرى، دون أن نرى موقفا حازما يضع حدا لهذه الانتهاكات من قبل الحكومات المتعاقبة، ويتوافق مع مبادئ القانون الدولي التي تنص على حرمة انتهاك سيادة البلدان.

شهدت الساحة السياسية في الآونة الأخيرة أحداثا لها صلة بما نعالجه، منها زيارة السيد رئيس مجلس الوزراء للولايات المتحدة الأمريكية وتوقيعه على عدد من الاتفاقيات والتفاهمات الاقتصادية والمالية، لكن بقي وجود القوات الأمريكية في العراق مادة للمساومات الداخلية والخارجية. وعلى الرغم من أن هذه القوات ارتبط وجودها باحتلال داعش للمناطق الغربية بعد عام 2014، وجاءت بناء على طلب من الحكومة العراقية في حينه، لكن يفترض أن تُهيّأ مستلزمات انسحاب هذا القوات من خلال رفع جاهزية الجيش والقوات الأمنية مهنيا ولوجستيا، وحصر السلاح فقط بيد الدولة، والتعامل مع تدخلات دول الجوار بذات المعايير حتى لا يكون التهاون في هذا الجانب مبررا لبعض القوى السياسية يدفعها لعدم الموافقة على رحيل هذه القوات.

وتمثل الحدث الآخر المهم في زيارة الرئيس التركي رجب طيب أردوغان للعراق والتوقيع على عدد من الاتفاقيات والتفاهمات المهمة، لكن رأينا الحكومة العراقية تغفل تماما عن وجود القوات التركية واحتلالها أجزاء من شمال بلدنا، والقيام بعمليات عسكرية بين فترة وأخرى دون أي مسوغ قانوني وبتعنت وعنجهية تذكرنا بعقلية الاستعمار ومبرراته في احتلال البلدان. إن تعويل بعض الأحزاب والكتل السياسية على دعم الخارج للبقاء في الحكم يشكل عقبة أمام اتخاذ مواقف حاسمة تدعم سيادة العراق وتعزز استقلاله. كذلك لاحظنا أن اتفاقية المياه التي وقعت بين

العراق وتركيا لمدة عشر سنوات لم تتطرق إلى حصة بلدنا من مياه دجلة والفرات والتي تتحكم فيها تركيا، وبقيت غامضة ومجالا للمساومات.

من القضايا المهمة الأخرى ذات البعد الاقتصادي والبيئي والأمني، استمرار حرق الغاز الطبيعي المرافق لاستخراج النفط بكميات ضخمة، وفي الوقت نفسه توقيع اتفاقية مع إيران لمدة خمس سنوات تستمر فيها الأخيرة بتزويد العراق بالغاز الطبيعي لمحطات توليد الكهرباء، على الرغم من اعلان وزارة النفط بين فترة وأخرى أن هناك خططا لاستغلال الغاز الطبيعي، وأن يكتفي العراق ذاتيا في هذا الجانب. فإضافة إلى الخسائر الاقتصادية الناجمة عن حرق الغاز الطبيعي، هناك الأضرار البيئية الجسيمة التي أصبحت واضحة للعيان نتيجة التوسع في استخراج النفط وحرق الغاز المصاحب له خصوصا في محافظة البصرة التي تضم اضخم حقول النفط ومن أكثرها حرقا للغاز في العالم. وقد انعكس ذلك في زيادة الإصابة بالسرطان خصوصا بين سكان المناطق القريبة من حقول النفط. وهذا ما أكدته تقارير منظمات عالمية قامت بإجراء مسوحات في هذه المناطق. في حين يتوجب على الشركات النفطية الأجنبية العاملة في العراق مراعاة الأضرار البيئية والصحية والعمل على معالجتها، وأن لا تتهاون الحكومة أمام عدم تنفيذ هذه الشركات التزاماتها في هذا الجانب.

قضية مستعصية أخرى، تتمثّل بآفة الفساد المالي والإداري والتي استشرت في مفاصل الدولة والمجتمع، وباتت كابحا لرسم أي خطط تنموية حقيقية، ناهيك عن تنفيذها، وهي تتغذى كما يعرف الجميع على نهج المحاصصة الطائفية الإثنية المولد للأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخدمية. وعلى الرغم من أن هيئة النزاهة قد زادت من إجراءاتها في تعقب المتورطين بالفساد المالي والإداري في الآونة الأخيرة، لكن تظل هذه الإجراءات دون المستوى المطلوب، حيث نلاحظ تعقب الفاسدين الصغار والحكم على بعضهم بأحكام ثقيلة في حين نرى أن حيتان الفساد الكبيرة ما زالت طليقة، وأن تم توجيه الاتهام لبعضها فإنه يجري إطلاق سراحه تحت مبررات واهية، وهذا يضع مسألة استقلال القضاء على المحك.

قضية أخرى تتمثّل بالتراجع المريع بالثقة بالأحزاب السياسية وخصوصا الدينية منها وسط الشباب. فبحسب المسح الوطني للفتوة والشباب في العراق، الصادر عام 2020 عن وزارة التخطيط، عبّر 73 في المئة من الشباب والشابات في عمر 15 - 30 سنة عن عدم ثقتهم بالأحزاب الدينية والسياسية في العراق. وتزداد نسبة عدم الثقة هذه في المدن إلى 75 في المئة، علما أن 70 في المئة من العراقيين يعيشون في المدن. وقد انعكس عدم الثقة هذا في التراجع الكبير بالمشاركة في الانتخابات سواء البرلمانية أم المحلية، وانخراط الشباب القوي في انتفاضة تشرين 2019 المجيدة. هذه المؤشرات لا توليها القوى الماسكة بالسلطة أي اهتمام، وهذا دليل على أنها لم تع دروس التاريخ جيدا. إن المدخل الرئيس لإعادة الثقة بالعمل السياسي يتمثّل بالتغيير الشامل لمنظومة الحكم الفاشلة وإنهاء نهج المحاصصة الطائفية الإثنية والقضاء على آفة الفساد المالي والإداري، وتنظيم انتخابات نزيهة وشفافة بقانون انتخابي عادل، والشروع في بناء دولة المؤسسات، الدولة المدنية الديمقراطية، وتحقيق العدالة الاجتماعية.

مقالات

انتفاضة آذار 1991

د. حسان عاكف

انطلقت الشرارة الأولى للانتفاضة الباسلة صباح الأول من آذار 1991 بعد يوم واحد من إعلان انسحاب القوات العراقية من الكويت، وقبل يومين من وقف إطلاق النار ويومين من اجتماع خيمة صفوان بين وزير الدفاع العراقي هاشم سلطان والجنرال الامريكي نورمان شوارتسكوف قائد قوات التحالف الدولي خلال حرب الخليج الثانية عام 1991، التي عُرفت بـ"عاصفة الصحراء".

كان غزو الكويت حدثا مفاجئا صادماً لشعبنا ولجميع شعوب المنطقة والعالم. ومنذ الايام الاولى للغزو وامام معرفة الجميع بطبيعة النظام الدكتاتوري، ورئيسه الاهوج بشكل خاص، والغطرسة الفارغة التي حباه الله بها، كان الجميع على قناعة ان البلاد ذاهبة الى مغامرة خطيرة خاسرة، ليس من الصعب توقع نتائجها الكارثية.

جميع العراقيين، بمن فيهم أولئك المحسوبون على النظام، وضعوا أيديهم على قلوبهم وهم يتابعون، عبر الاذاعات العالمية المختلفة قبل المحلية، أخبار الأحداث والتطورات الخطيرة المتسارعة حول العراق وفي عموم منطقة الشرق الاوسط.

سُحُب الحرب السوداء تتلبد في سماء المنطقة ارتباطا بتوجه قوات أمريكية وغربية إليها وتصاعد قعقعة السلاح وبالحملات الإعلامية الجوفاء للنظام في بغداد وعنترياته الفارغة، الى جانب تصاعد وتيرة إصدار قرارات مجلس الأمن الدولي بحق العراق والتلويح بقرارات وإجراءات جديدة بقساوة وثقل عقوباتها.

بات الجميع يدرك حجم الكارثة المحدقة بالبلاد وقتامة الأيام القادمة، الأمر الذي دفع بأعداد كبيرة من سكان العاصمة بغداد والمدن الكبيرة الأخرى الى ترك مناطقهم واللجوء إلى مدن الأطراف الصغيرة والمناطق الريفية.

في ظل هذه الأوضاع وجدت القوى الوطنية المعارضة لنظام الحرب والعدوان الدكتاتوري في داخل البلاد وخارجها، وجدت نفسها أمام مسؤولية ومهام كبيرة، كان واضحا أنها اكبر من طاقتها وإمكانياتها، ومع هذا لم تجد هذه القوى أمامها من بديل سوى الدعوة لتجنب خيار الحرب بنزع فتيلها من خلال الانسحاب

الفوري للقوات العراقية من الكويت، الى جانب رفع اليقظة والتحرك والاستعداد لاي تفجر وانعطاف يمكن أن تشهده البلاد.

وارتباطا بهذا الموقف، كثف الشيوعيون من جهودهم وصعدوا من هممهم داخل الوطن، كركائز وخيوط اتصال حزبية من الأعضاء والأصدقاء المؤازرين، أفرادا وعوائل، موزعة داخل المدن وبعض مناطق الريف.

وتواصلت الصلات من جانب "المركز الحزبي" المشكل حديثا في مدينة أربيل مع قيادة الحزب عبر المركز القيادي في مقراتنا الأنصارية على الحدود الشرقية في قاعدتي ناوزنگ ونوكان، وكذلك عبر صلة شبه يومية بواسطة جهاز استقبال خاص (راديو-لاسلكي)، سواء عبر البث من الموقع الأنصاري او من خارج البلاد، وكان البث يتضمن معلومات وتوجيهات عامة، بعضها خاص مشفر، وأخبار التطورات السياسية والانشطة المختلفة في منطقتنا والعالم، الى جانب نشاطات قوى المعارضة في خارج الوطن والإهابة بالجماهير ان تكون مهيأة لأية انعطافه سياسية.

كما جرى تكثيف الصلات مع مفارزنا الانصارية التي أخذت تقترب من المدن الكردستانية في منطقة رانية وبشدر والسليمانية ومناطق شقلاوة وأربيل.

كان المركز الحزبي في مدينة اربيل حديث التكوين يضم عددا من الرفاق يقوده عضو المكتب السياسي عمر علي الشيخ وعضوية عزت عثمان وحسان عاكف وجلال الدباغ، إلى جانب رفاق قياديين آخرين موزعين في مدن أخرى ؛ هوگر، سعدون، بخشان زنكنة، كمال الزهاوي وحمودي عبد محسن.

واسمحوا لي ان أذكر هنا الفقيد النصير الإعلامي وصفي (هاوكار) الذي كلف بإنجاز المهام الإعلامية في شقة سرية خاصة في أربيل، وكان بصلة خاصة مع المركز الحزبي.

وكانت هناك ركائز وصلات تنظيمية سرية متنوعة في مختلف المدن تضم المئات من الرفاق والأصدقاء النشطاء الموزعين في العاصمة بغداد وبابل والفرات الاوسط والبصرة ومدن وقرى المحافظات الكردستانية. أذكر ممن كان من الكوادر في بغداد، وتعرفت عليهم في سنوات لاحقة حسن ناجي (حيدر)، اصبح في وقت لاحق عضوا في اللجنة المركزية و(نوال) و(رفاه سالم)... وفي ريف بابل عطا عباس (حيدر) وفي البصرة أحمد كاظم (أبو محمد) أصبح عضوا في اللجنة المركزية في وقت لاحق أيضا، وأعتذر من المئات الآخرين الذين يصعب عليّ ذكر أو تذكر أسمائهم.

ولكل تشكيلة من هذه التشكيلات ارتباطاتها الخاصة مع رفاق وركائز في محافظات أخرى في الوسط والجنوب. هذا عدا عن اعداد كبيرة أخرى من المنقطعين عن التنظيم منذ الضربة التي وجهت للحزب نهاية السبعينيات، واصل الكثير منهم صلات متنوعة بينهم؛ صلات اجتماعية وقرابة وصداقة ورفقة سابقة متنوعة. هناك الاف الشيوعيين في محافظات الوسط والجنوب الذين تركوا (انقطعوا) الحزب ابان الهجمة على الحزب 1979 ولكن بقوا يحملون المثل وافكارهم وقيمهم الانسانية والشيوعية واليسارية والديمقراطية، اشتركوا في الهبة الجماهيرية وفي التحرك والمساهمة ضد

هذا النظام، الى جانب مؤازرين متأهبين في تلك الظروف الملتهبة، بانتظار اية اشارة للتحرك. وقد أظهرت الايام الاولى للانتفاضة ان أعداد هؤلاء في عموم المدن كانت بعشرات الآلاف.

في المدن الكردستانية وضواحيها كان لانصارنا علاقات تنسيق مع بيشمركة الحزب الديمقراطي والاتحاد الوطني والحزب الاشتراكي، وكان يجري تبادل وجهات النظر والآراء والتحركات المشتركة والتهيؤ لما هو آت.

هكذا شهدت الفترة بين 2 آب يوم الغزو المشؤوم الى 17 كانون الثاني 1991 يوم إندلاع الحرب جملة من التحركات والنشاطات التعبوية الدؤوبة مع ترقب أحداث هامة وخطرة ستمر بها بلادنا.

قدم الى اربيل بعض الرفاق من مدن الجنوب وتحدثوا عن التوتر العالي في المدن وطلبوا وثائق حزبية ايا كان، وكان ذلك ربما في منتصف شباط، وكان المركز الحزبي قد هيأ بيانا حول الاوضاع على ان يوزع في 20 شباط في عموم العراق، لكن الرفاق والاصدقاء في مدن الجنوب ابكروا بتوزيعها بالنظر الى الاوضاع المتفجرة.

تفجر الانتفاضة الشعبية في الجنوب

اندلعت الشرارة الأولى للانتفاضة يوم 1 آذار من مدينة البصرة وامتد لهيبها سريعا الى اقضية ونواحي المحافظة، وانتشر كالنار في الهشيم الى محافظتي العمارة والناصرية صعودا حتى محافظة بابل وصولا الى مشارف العاصمة بغداد.

ولابد من الاشارة الى أن مقاتلين من القوى الاسلامية المعارضة لنظام صدام الذين كانوا متواجدين في مناطق الاهوار اندمجوا مع سكان العديد من مدن الجنوب المنتفضة، كما في البصرة والناصرية، مثلما سيحصل بعد أيام قلائل باندماج الانصار والبيشمركة مع منتفضي المدن الكردستانية.

منذ الايام الاولى بدأت السلطة تحشيد قواتها والتحرك لقمع المنتفضين، وكان للقرار الامريكي بالسماح لصدام حسين باستخدام الطائرات السمتية دور خطير وحاسم في ضرب الانتفاضة وتمكينه من إطفاء لهيبها ووئدها في الجنوب والوسط. وهنا يذكر اسم المجرم حسين كامل ومحمد حمزة الزبيدي كقادة للقطعات العسكرية ومعهم مجموعة من أعضاء القيادة القطرية وقادة الفروع والشعب والفرق الحزبية البعثية الذين ساهموا في قمع الانتفاضة.

لهيب الانتفاضة يصعد شمالا صوب المدن الكردستانية

وفي كردستان انطلقت شرارة الانتفاضة الاولى من مدينتي چوارقرنة ورانية يوم 5 اذار، ولم يكن ذلك بمعزل عن موقعهما الجغرافي المحاذي لمواقع وحركة مفارز البيشمه ركة والانصار ليس بعيدا عن الشريط الحدودي، حيث مواقع البيشمركة وحسم الموقف فيها سريعا لصالح المنتفضين.

في نفس اليوم اصدر النظام المترنح العفو العام عمن أسماهم (الغوغائيين).

في فترة لاحقة من عام 1991التقى صدام حسين مع آمري أفواج الجحوش، وذكر له احدهم أنه طلب من قائد الفرقة 24 ان يضرب سكان رانية المنتفضة بالسلاح الكيمياوي لكن القائد رفض.

الشرارة تصل السليمانية

يوم 6 اذار سيطرت قوات البيشمركة على نقطة سيطرة بازيان، عند مفرق طريق السليمانية دوكان، ولكن بقيت نقطة سيطرة مدخل مدينة السليمانية بيد النظام. يوم 7 آذار انتفضت مدينة السليمانية، واستمرت ليومي 7 و8، وكان لذلك صدى كبير ارتباطا بوضع المدينة وحجمها وتاريخها وما تعنيه لاقليم كردستان.

ومع الشرارات الاولى للانتفاضة تجمع اغلب عناصر الشرطة والمسؤولين عن الاجهزة الامنية والمخابراتية وعناصر الحزب الحاكم في مبنى أمن المحافظة، وجرى تقدير عددهم بـ 200 شخص، وجرت حول المبنى معركة شرسة مع المنتفضين إستمرت لعدة ساعات انتهت بانتصار حاسم للمنتفضين. ويروي وكيل مدير شرطة في كردستان قريب من الاحداث ان عناصر النظام قاموا بالاتصال ببغداد لارسال نجدة لانقاذهم، غير ان بغداد عجزت عن تقديم اية معونة، ما دفع مدير أمن المحافظة الى الاتصال عبر جهاز اللاسلكي لطلب المساعدة من بغداد، لكنه بدأ يشتم ويسب لأنهم خذلوه وتركوه وحده بدون مساعدة.

عن انتفاضة السليمانية يقول الرفيق رحمن غريب أحد المنتفضين الاساسيين في المدينة: "كانت المهمة هي توزيع العمل، والتحدث مع أقاربنا ممن نثق بهم، والحصول على الأسلحة، والتعرف على مقاتلي الأفواج الخفيفة. أتممنا المهمة وحصلنا على السلاح".

أشعلت أنباء انسحاب القوات العراقية من الكويت الأجواء، وأثارت انتفاضة البصرة الحماس. وزعنا تنظيماتنا على النحو الاتي:

قاد دلير جلال المجموعة في حي توي ملك الذي كان يضم عدة مقرات حزبية أمنية، ومفرزته (مريوان عزيز، سوران عزيز، يادكار دارا جلال، دانا جلال وآخرون.)

توجهت مفرزتنا من كاني سكان بقيادة رزكار غريب إلى المخابرات العسكرية القريبة من دائرة أمن النظام.

وفي حي العقاري، انضمت مفرزة أخرى بقيادة مريوان (ملا حسن) وزانا عمر إلى المفارز التي تقاتل قوات النظام الأمنية ومن ثم انضمت إلى مفرزة رزكار غريب.

مقر الأنفال الكائن في حي بختيار يقود القوة (رحمن غريب) بمساعدة (حسن رحيم، كويستان رحيم).

كان لدينا الكثير من الأصدقاء حولنا في كل مجموعة من هذه المجاميع. وكان ديلير جلال وسهيل الزهاوي مشرفيْن على جميع المنظمات.

وصلت قوات البيشمركة التابعة للحزب الشيوعي العراقي إلى السليمانية في 8 آذار، وشاركت في الاستيلاء على أمن النظام.

لا بد من ان نضع في اذهاننا ونحن نتحدث عن اي مركز محافظة ان نواحي واقضية هذه المحافظات كان لها هباتها. كما ان نسبة المدنيين الذين اشتركوا في الانتفاضة والتي لا صلة مباشرة لهم بالعمل السياسي او بالأحزاب في كردستان وفي الوسط والجنوب كانت هي الغالبة. المشاركة التي تعبر عن المعاناة من نظام استبدادي استمر طيلة هذه السنين.

يوم 8 آذار تفجرت الانتفاضة في مدينة كويسنجق و9 و10 اذار تردد صداها في شقلاوة ومنطقة سوران ومدن وقصبات

المنطقة. وكان لسكان المجمعات القسرية دورهم في كل المحافظات التي حصل فيها هذا الانفجار.

11 آذار مدينة أربيل تنتفض

انطلقت أولى شرارات الانتفاضة في اربيل في 6 اذار في منطقة شيخ الله من على ظهر سيارة بيكاب من حنجرة فتاة شابة (اوميد ملا حسن) وهي تعتلي السيارة برفقة عدد من الزملاء الشباب (سرود ودلشاد وآخرين) من الشيوعيين في مدينة أربيل، ولكنها استمرت لفترة قصيرة جراء عدم انشداد المواطنين حولها وانسحاب غالبيتهم من المنطقة.

بعد ذلك جرى الاتفاق بين ممثلي حزبنا وممثلي الاحزاب الكردستانية المتواجدين في اربيل عبر التشكيلات العسكرية لهذه الاحزاب على التحرك لتفجير الانتفاضة يوم 10 آذار، بعد أن جرى تحديد الاهداف الهامة التي ينبغي إعطاؤها الاولوية والهجوم عليها.

مع حلول مساء يوم 9 آذار جابت سيارات حكومية شوارع المدينة معلنة قرار منع التجول بدءاً من صباح اليوم التالي 10 آذار، لذا جرى تأجيل موعد تفجير الانتفاضة الى يوم اخر.

مرّ يوم 10 آذار هادئا، غير أنه لم يجر أي التزام بمنع التجوال، باستثناء توقف حركة السيارات، حيث ظلت الأسواق مفتوحة وكذلك كانت حركة الناس طبيعية في عموم المناطق والأحياء.

صباح اليوم التالي 11 آذار غطت أجواء المدينة أصوات رشاشات الانصار والبيشمركة في مناطق مختلفة، وزحفت جموع المواطنين الى الشوارع والساحات العامة، ولم تواجه القوات المهاجمة والجموع الزاحفة اية مقاومة تذكر سوى في موقع واحد هو مبنى استخبارات محافظة اربيل، الذي شهد مقاومة شديدة استمرت من الصباح الى الساعة الثانية بعد الظهر.

كيف حصل هذا الانهيار السريع خاصة وان اربيل هي مركز الحكم الذاتي ومؤسساته كونها عاصمة الاقليم، وفيها الكثير من دوائر الامن والشرطة والمخابرات والمقرات الحزبية الى جانب موقع قيادة الفيلق الخامس للجيش..؟

في ضوء معلومات مؤكدة كان القرار الرسمي هو تشكيل غرفة عمليات مشتركة تضم قوات عسكرية وأمنية وقادة بعثيين في اربيل مع دوائر المخابرات والاستخبارات. وتم إختيار مقر الفيلق الخامس (الذي تحول اليوم الى بارك سامي عبد الرحمن) مقرا لغرفة العمليات، لكن ما أن اندلعت الانتفاضة صباح 11 آذار ودوى صوت الرصاص في المدينة حتى بدأ تبخر القادة والكوادر من غرفة العمليات وغادرت جميعها تقريبا، هاربة بسياراتها باتجاه مدينة الموصل، وتم نقل القادة الكبار بواسطة طائرات الهليكوبتر، حينها انتهى كل شيء ومع وقت العصر اكتظت شوارع اربيل بآلاف المواطنين.

وهنا لا بد من الاشارة الى أن التظاهرة التي شهدتها ناحية عينكاوة في اربيل ذلك الصباح، والتي تصدرها الشيوعيون تعرضت لاطلاق نار من المقر الحزبي في المدينة أدى الى اصابة أحد قادة التظاهرة بكسر في ساقه، وهو المناضل الشجاع فاروق عتو، عضو مجلس النواب العراقي

عن الحزب الشيوعي الكردستاني في الدورة الحالية.
مرة ثانية، لا بد من التأكيد على أنه كان لقوات البيشمه ركة في المدن الكردستانية بما تملكه من خبره قتالية وسلاح، دورٌ كبير في تحقيق الانتصار في وقت سريع، وكان للشهيد سعدون والانصار العاملين معه دورهم المتميز.
وما دمنا نتحدث عن إنتفاضة أربيل لا بد من الوقوف أمام مشهد مفاجئ عاشته المدينة في الايام التالية التي أعقبت انتصار الانتفاضة.
منذ اليوم الثاني للانتفاضة عاشت أربيل ولعدة أيام ظاهرة غريبة لم تشهدها المدينة عبر تاريخها الطويل حين بدأت أرتال كبيرة راجلة من العسكرين المجردين من اسلحتهم المنسحبين من مواقعهم العسكرية التي كانت منتشرة من أربيل الى أقصى وأبعد ربية على قمم جبال حاجي عمران وگلالة في الشمال الشرقي، بدأت تدخل المدينة من بوابتها الشمالية وتملأ شوارع المدينة وساحاتها، وحدائقها ومساجدها وهي في حالة من التعب والاعياء بسحنات شاحبة منهكة بسبب مسير ايام عدة والتعب والجوع، واتخذ المئات منهم من مقر الاتحاد العام لنقابات العمل والذي اتخذ مقرا للحزب الشيوعي العراقي ملجأ مؤقتا. حينها هبّت اعداد كبيرة من عوائل اربيل لتقديم الطعام لهم. كانت رغبة الاغلبية من هؤلاء هي مواصلة رحلتهم الشاقة لمواصلة رحلتهم الراجلة صوب الجنوب للوصول الى عوائلهم. ويمكن القول إن هذا المشهد تكرر في أغلب المدن الكردستانية. ولم يكن ذلك بمعزل عن قرار الجبهة الكردستانية بالدعوة الى دعم الجنود ومساعدتهم للوصول الى المناطق الراغبين فيها سواء من توجه منهم الى الجنوب ام ذهب الى ايران وغيرها.

الانتفاضة في دهوك

يقول الرفيق توما توماس في مذكراته: في دهوك لعب ''الجحوش'' دورا في انطلاق الانتفاضة، إذ تمكنوا من ضرب مقرات حزب البعث ودوائر الأمن بعد انسحاب الجيش من المحافظة. وتمكنت مفرزة من انصارنا (منظمتي نينوى ودهوك) من الدخول إلى زاخو يوم 12 /3/ 1991. وتشكلت المفرزة من الرفاق صبحي خضر (أبو سربست) وصباح كنجي وازاد مختار (سردار) وساهر ميخا (عماد) وسعيد دوغاتي وأبو افكار ورمضان حسن (دلكه ش) وعلي هيركي ويوسف شعبان (كيفي). ولم يتوقف الرفاق في زاخو، بل توجهوا إلى دهوك ليلتقوا برفاقنا القادمين من إيران ويتخذوا من مقر شعبة دهوك لحزب البعث مقرا لهم. وارسل الرفاق مفرزة صغيرة إلى ألقوش التي عقدوا فيها ندوة ثم توجهوا إلى الشيخان يوم 15 /3/ 1991. وبقيت المفرزة في عين سفني حتى يوم 28 /3/ 1991 إذ تركت موقعها اثر رجوع قطعات الجيش العراقي إلى المنطقة.

الانتفاضة في كركوك

بعد انتفاض المدن والقصبات والمجمعات القسرية في كردستان، بقيت كركوك، وهي مدينة تختلف في تركيبتها السكانية عن السليمانية واربيل ودهوك وعموم المدن الكردستانية الاخرى. في المدن الاخرى

هناك غالبية سكانية كردية ساحقة. في داخل مدينة كركوك هناك كرد وتركمان وكلدور اشور سريان وعرب.
كان التوقع أن امكانية تفجر إنتفاضة في مدينة بهذه التركيبة السكانية ستكون صعبة، لهذا أصبحت الوجهة لدى المنتفضين على اختلاف توجهاتهم السياسية أنه لا بد من إرسال قوات بيشمركة من محورين؛ محور سليمانية كركوك، ومحور اربيل كركوك. كان الشهيد سعدون ضمن الرفاق المكلفين بقيادة مفارزنا الانصارية مع رفاق آخرين من ابناء محافظات كركوك والسليمانية وأربيل. وصلت الى ضواحي كركوك أعداد كبيرة من البيشمه مركة والأنصار بعد انضمام قوات جديدة من مفارز البيشمركة الذين نزلوا من مقراتهم الحدودية او من ضواحي المدن والأرياف، وواجهتهم في البداية مقاومة من جانب قوات السلطة وتعذر دخولهم المدينة، لكن بعد ليلتين من استمرار المواجهة وحصار المدينة جرى اقتحامها في 21 اذار وتحريرها من قبضة السلطة. شدة مقاومة القوات الحكومية في كركوك لم تكن بمعزل عن أهمية وخصوصية المدينة بالنسبة لحكام بغداد، حيث مقرات الأجهزة الأمنية والمخابرات والاستخبارات لـ"المنطقة الشمالية" ووجود "معسكر خالد" وهو واحد من اكبر المعسكرات في المنطقة الشمالية، إضافة الى وجود مطار عسكري كما هو الحال في الموصل، هذا في حين لا يوجد اي مطار عسكري في المحافظات الشمالية الاخرى.
كلفنا من قبل الرفاق بالتوجه الى كركوك انا والرفيق هادي علي (ابو عادل)، وصلنا في اليوم الثاني، كما وصل الرفيق جلال الدباغ من السليمانية. كذلك وصل عدد من الرفاق والبيشمركة من أهالي المحافظة، وكان لهم دورهم المتميز في الاتصال بالمواطنين والحركة الدؤوبة واستقبال الزائرين للمقرات، وتوفير بعض المستلزمات اللوجستية. ويمكن الاشارة بشكل خاص هنا الى الرفاق على زنگنة وزوجته بروين، ماموستا قادر والفقيد هاوكار وعشرات اخرين، وحضر أيضا إبن المحافظة الشيخ عطا الطالباني واتصل بعدد من وجهاء المدينة.
ومما تجدر الاشارة اليه هو سيطرة المنتفضين على نصف مساحة معسكر خالد وبقيت قوات الحكومة في النصف الثاني، ومع هذا لم تحصل اية مناوشات او اطلاق نار داخله في الفترة 21-30 آذار حين جاءت قوات عسكرية جديدة من بغداد بعد اعلان وقف الحرب من جانب القوات الامريكية. عقدنا اجتماعين في مبنى محافظة كركوك مع ممثلي الاحزاب الكردستانية، وتدارسنا مجمل الاوضاع في المحافظة في مقدمتها المخاطر العسكرية، لكن المدينة بقيت مضطربة، وبدون خدمات منها الكهرباء الاتصالات وغيرها.
عندما وصلنا كركوك، وجدنا رفاقنا هناك قد فتحوا عددا من المقرات؛ الرئيسي في بناية نقابة العمال في كركوك، ومقر ثان في نادي الضباط، وثالث في "مقر حزب السلطة" في منطقة عرفة ورابع في منطقة أخرى.
في اليوم الثالث من تواجدنا جاءت مجموعة شباب من حي سكني جديد "دوميز"، معظم سكانه من اصول جنوبية ووسطى وطلبوا فتح مقر جديد في منطقتهم وتنسيب عدد

قليل من الانصار وتزويدهم بقطع من السلاح، وهم يتكفلون بكل المستلزمات من توفير مبنى للمقر ومستلزماته بما فيها تهيئة مقاتلين، وبعد يومين نظموا لنا لقاءً في المقر الجديد مع عشرات المواطنين للحديث عن الأوضاع السياسية وطمأنة سكان الحي، ومن خلال وجوه الجالسين في الندوة كنا نشعر بفرحهم وسعادتهم من خلال أسئلتهم وحماسهم.

يمكن القول انه قبل يوم 20 آذار احكم النظام سيطرته على عموم المناطق الوسطى والجنوبية. وقرر التوجه نحو بقية المحافظات الشمالية، مستغلا موقف الولايات المتحدة الامريكية حين سمحت بتحليق طائرات الهيليوكوبتر.

في يوم 27 و28 اذار شاهدنا وصول طائرات مروحية في سماء المدينة وهي تقصف المناطق المحررة، وكانت الطائرات الامريكية تحلق فوقها كأنها حماية لها.

خلال الانسحاب من كركوك سقط العشرات من الشهداء من المدنيين والبيشمركة، وكان ضمنهم الشهيد النصير ملازم شيرزاد من أهالي كويسنجق، الذي كان قبل ست سنوات عضوا في الوفد الشبابي الطلابي العراقي الى مهرجان طلاب وشباب العالم العاشر في موسكو.

كانت كركوك نقطة الشروع بالهجوم على بقية المدن الكردستانية وبعد إحكام السيطرة عليها يوم31 اذار واصلت القوات الحكومية حركتها باتجاه أربيل والسليمانية. ومن أربيل واصلت القوات تقدمها الى صلاح الدين ثم توجهت نحو شقلاوة لكنها لاقت مقاومة جريئة منعتها من الوصول الى شقلاوة. كذلك توقفت القوات الحكومية عند مشارف مدينة السليمانية دون دخولها. بالنسبة لنا نحن الذين كنا في كركوك توزعنا وانسحبنا فجر يوم 30 اذار الى اربيل والسليمانية.

محطات تستحق التوقف أمامها

المحطة الاولى: صباح الانتفاضة 11 اذار وبحدود الساعة التاسعة مرت من أمام البيت الذي كنا فيه تظاهرة من سكان المنطقة شباب ونساء ورجال وهم يهتفون بحماس عال حاملين العصي وسكاكين وادوات المطبخ الاخرى والاسلحة الخفيفة، وكانوا بالمئات متوجهين الى وسط المدينة.

المحطة الثانية: خلال فترة الشهور من حزيران 1990 حتى منتصف آذار 1991 تنقلت في بيوت ثلاث عوائل شيوعية، ولقيت من جميع أفرادها كل ترحاب وإحتضان ودعم وحماية. وأتمنى أن تخفف إشارتي العابرة هذه إليهم في هذه السطور شيئا من الدين الذي أشعر به تجاههم. وهذه العوائل هي: عائلة الفقيد أنور سليمان، وعائلة الفقيد احمد شيخو وعائلة الكاتب گوشاو المقيم حاليا في ألمانيا.

ولا يفوتني أن أقدم اعتذاري للمئات من الرفاق والاصدقاء، الجنود المجهولين، الذين صادفتهم في المدن المختلفة، سواء كان ذلك عشية أيام الانتفاضة أم غداتها، والذين لا يسع المجال هنا، وربما الذاكرة أيضا، للاشارة اليهم جميعا.

المحطة الثالثة: هناك قصص كثيرة، بعضها سجل في السنوات الاخيرة على شرائط فيديو عن مشاركة الشيوعيين في الانتفاضة في مدن الجنوب والوسط وكردستان مع أبناء شعبهم وإخوتهم

من منتسبي قوى المعارضة الإسلامية والوطنية، واختلطت دماء شهداء الجميع في هذه الانتفاضة، مسجلة صفحة مشرقة من الصفحات المجيدة لشعبنا وقواه الوطنية في القرن الماضي.

أسباب إخفاق الانتفاضة

تناول كثيرون من مختلف القوى والتوجهات السياسية هذه القضية الهامة عبر كتاباتهم واحاديثهم عبر وسائل الاعلام المختلفة، ويمكن بعجالة الاشارة الى اهم أسباب الاخفاق بما يأتي:

- العفوية في إدارة الأمور وغياب القيادة المركزية ليس على صعيد البلد كله ولكن على صعيد المحافظة الواحدة، ان لم يكن على صعيد المدينة الواحدة بالنسبة للمدن الكبيرة، على الرغم من وجود قيادات لمجموعات صغيرة في مناطقها.

- تحول الانتفاضة من حالة الهجوم الى الدفاع، وعلينا الا ننسى واحدا من أهم دروس الانتفاضات الشعبية وهو ان توقف الانتفاضة وتحولها من حالة الهجوم الى الدفاع يعني موت الانتفاضة. ما من ماركسي ينكر أن ماركس نفسه قد أبدى رأيه حول هذه المسألة بأكثر ما يكون من الدقة والوضوح والجزم، مسميا الانتفاضة بالضبط فناً، قائلا أنه ينبغي اعتبارها فناً، وأنه ينبغي إحراز نجاح أول، والمضي في ما بعد من نجاح إلى نجاح، دون وقف الهجوم على العدو، ومع استغلال بلبلته،... إلخ.

- غياب أو انعدام وسائل الاتصال بين المنتفضين حتى داخل المدينة الواحدة.

- قرار الولايات المتحدة المفاجئ بعدم دخول بغداد والإبقاء على النظام الدكتاتوري ورأسه، وغض الطرف عن "قمع" الجيش لهذه "الانتفاضة"، خلق حالة من الارباك والذهول في صفوف المنتفضين.

- انعدام الإعلام الحر والمستقل الناقل لأحداث الانتفاضة حيث لم يكد يكون هناك أي نوع من التغطية أو الدعم الاعلامي وأسباب أخرى.

- اضفاء صبغة طائفية على الانتفاضة ورفع صور لمراجع دين شيعة وهو ما سهل عملية الانقضاض عليها .

الديمقراطية باعتبارها صفقة قابلة للتفاوض

دراسة حالة العراق 2003 - 2023

أ.د. إسماعيل نوري الربيعي

مقدمة

كان السعي إلى الديمقراطية موضوعاً رئيساً في السياسة العالمية، حيث تسعى الدول جاهدة إلى إنشاء أنظمة تعكس إرادة مواطنيها وتطلعاتهم. ومن بين هذه الدول التي مرت برحلة مضطربة نحو الديمقراطية هي العراق.

يهدف هذا المقال إلى الخوض في الديناميكيات المعقدة المحيطة بتطور الديمقراطية في العراق من عام 2003 إلى عام 2023، ودراسة أصول الديمقراطية، وتأثير غزو عام 2003، والتحديات التي واجهتها في عراق ما بعد الغزو، والدور الذي لعبته الجهات الفاعلة الدولية في تشكيل الديمقراطية في العراق، وأخيراً، آفاقها.

لفهم جذور الديمقراطية في العراق، من الأهمية بمكان أن نستكشف أصولها. سيسلط هذا الموضوع الفرعي الضوء على كيفية تشكيل العوامل التاريخية والمؤثرات الخارجية للمشهد السياسي العراقي مع مرور الوقت، مما أدى في النهاية إلى إرساء المبادئ الديمقراطية[1]. لا يمكن التقليل من تأثير غزو عام 2003 على الديمقراطية في العراق. ومن خلال تحليل الأحداث والسياسات الرئيسية التي تم تنفيذها خلال هذه الفترة، يمكننا تقييم مدى تأثيرها على المؤسسات والعمليات الديمقراطية في العراق. ظهرت التحديات التي تواجه الديمقراطية في عراق ما بعد الغزو بسبب عوامل داخلية وخارجية مختلفة. سيتناول هذا القسم العقبات مثل التوترات الطائفية والتهديدات الإرهابية وعدم الاستقرار الاقتصادي وقضايا الحكم التي أعاقت التقدم الديمقراطي[2]. علاوة على ذلك، فإن استكشاف الدور الذي لعبته الجهات الفاعلة الدولية في تشكيل الديمقراطية في العراق يوفر نظرة ثاقبة حول كيفية تأثير القوى الخارجية على التطورات السياسية داخل العراق خلال هذه الفترة. وأخيرا، فإن تقييم آفاق مستقبل الديمقراطية العراقية يسمح لنا بالنظر في السيناريوهات المحتملة استنادا إلى الاتجاهات الحالية والديناميات الناشئة. من خلال تقييم الفرص والتحديات

المقبلة لجهود التحول الديمقراطي في العراق بعد عام 2023.

يسعى هذا المقال إلى تقديم تحليل شامل للديمقراطية باعتبارها صفقة قابلة للتفاوض؛ دراسة حالة العراق 2003 - 2023. من خلال دراسة هذه المواضيع الفرعية - أصول الديمقراطية في العراق؛ تأثير غزو عام 2003 على الديمقراطية؛ التحديات التي تواجه الديمقراطية في عراق ما بعد الغزو؛ دور الجهات الدولية الفاعلة في تشكيل الديمقراطية العراقية؛ وآفاق الديمقراطية في العراق - نهدف إلى فهم الرحلة المعقدة للديمقراطية في العراق وآثارها على مستقبل الأمة.

أصول الديمقراطية في العراق

إن ظهور الديمقراطية في العراق، في سياق دراسة الحالة من عام 2003 إلى عام 2023، هو قصة معقدة، إنها قصة تتشابك فيها خيوط تاريخية مختلفة، وتعقيدات ثقافية، ومؤثرات خارجية. لفهم أصول الديمقراطية في العراق، لا بد من التعمق في سجلات تاريخها وتشريح العوامل المتعددة الأوجه التي تلعب دورها. لا يمكن للمرء أن يفهم نشأة الديمقراطية في العراق دون الاعتراف بالعواقب المضطربة للغزو الذي قادته الولايات المتحدة في عام 2003. فقد قلب هذا الحدث البالغ الأهمية عقوداً من الحكم الاستبدادي في عهد صدام حسين، وكشف النقاب عن أمة تتصارع مع هويتها[3]. وقد أدى فراغ السلطة ـ الذي تلا ذلك ـ إلى خلق بيئة مناسبة للمناورات السياسية والاشتباكات الأيديولوجية. فضلاً عن ذلك فإن بلاد ما بين النهرين القديمة كانت بمثابة الخلفية التي تطورت في ظلها الديمقراطية الحديثة في العراق. لقد شهد مهد الحضارة تجارب مبكرة مع هياكل الحكم التي عكست العناصر التي نربطها الآن بالمثل الديمقراطية. فمن شريعة حمورابي إلى مجالس دويلات المدن السومرية، تتردد أصداء عملية صنع القرار التشاركي عبر الزمن. ومع ذلك، فإن فهم رحلة العراق نحو الديمقراطية يتطلب التعامل مع الديناميكيات القبلية المعقدة المتأصلة بعمق في نسيجه الاجتماعي. لقد شكلت الانتماءات القبلية منذ فترة طويلة التحالفات السياسية والصراعات على السلطة في جميع أنحاء المنطقة. وشكلت هذه التفاعلات المعقدة بين القبائل تحديات هائلة أمام إنشاء مؤسسات ديمقراطية مستقرة. بالإضافة إلى ذلك، لعبت الطائفية الدينية دوراً أساسياً في إعاقة تشكيل المسار الديمقراطي في العراق. يتألف سكان البلاد من مجتمعات دينية متنوعة مثل المسلمين الشيعة، والمسلمين السنة، والمسيحيين، واليزيديين، وغيرهم؛ ولكل منهم مظالمه وتطلعاته التاريخية. وكثيراً ما تم استغلال هذه الانقسامات من قبل الجهات الفاعلة المحلية التي تسعى إلى السلطة والقوى الخارجية التي تتنافس على النفوذ.

إن مشاركة المجتمع الدولي تزيد من تعقيد هذه المتاهة المحيطة بالديمقراطية في العراق. فقد مارست الجهات الفاعلة الخارجية نفوذاً كبيراً على السياسة المحلية من خلال التدخلات العسكرية أو المناورات الدبلوماسية. وتتراوح دوافعهم بين تعزيز القيم الديمقراطية وتأمين المصالح الاقتصادية أو الاستقرار الإقليمي[4]. حولت هذه الشبكة المعقدة من المصالح الجيوسياسية العراق

إلى رقعة شطرنج حيث الديمقراطية ليست سوى قطعة واحدة في لعبة معقدة. وأخيرا، لا ينبغي التغاضي عن قدرة المجتمع العراقي على التحمل والقدرة على التكيف عند النظر في أصول الديمقراطية. وعلى الرغم من سنوات الصراع المستمرة، فقد أظهر العراقيون مرونة ملحوظة ورغبة ثابتة في تقرير المصير. وقد ساهمت الحركات الشعبية ومنظمات المجتمع المدني والمواطنون العاديون في تشكيل المشهد الديمقراطي من خلال الاحتجاجات والانتخابات والمفاوضات. إن فهم أصول الديمقراطية في العراق يتطلب الإبحار عبر نسيج منسوج من الموروثات التاريخية، والديناميات القبلية، والطائفية الدينية، والمشاركة الدولية، والقدرة على الصمود المجتمعي. القصة بعيدة كل البعد عن كونها خطية أو يمكن فك شفرتها بسهولة. إنه لغز غامض يتطلب فحصًا دقيقًا لفهم تعقيده بالكامل. ولن يتسنى للمرء أن يبدأ في تقدير عملية التفاوض المتأصلة في سعي العراق إلى تحقيق الديمقراطية من عام 2003 إلى عام 2023 إلا من خلال كشف هذه الخيوط المعقدة.

تأثير غزو عام 2003 على الديمقراطية

أطلق غزو العراق عام 2003 العنان لعاصفة مضطربة ترددت أصداؤها في جميع أنحاء العالم. وكان تأثيرها، مثل زوبعة عاصفة، قد مزق نسيج المؤسسات السياسية والديناميكيات المجتمعية بطرق محيرة وغير متوقعة. أصبح هذا الحدث الكارثي نقطة تحول، حيث شوه جوهر الديمقراطية كصفقة قابلة للتفاوض. أدى الغزو، الذي كان يكتنفه عدم اليقين والمكائد الجيوسياسية، إلى ظهور حقبة من الانفجار الشديد في العمليات الديمقراطية. ولا يستطيع المرء أن ينكر أن الغزو أدى إلى اختلال التوازن الدقيق بين السلطة والحكم في العراق. تم الترحيب بسقوط نظام صدام حسين باعتباره انتصاراً للديمقراطية. ومع ذلك، فقد كشفت أيضًا عن هشاشة المؤسسات العراقية. أدى الفراغ المفاجئ الذي خلفه سقوط صدام حسين إلى خلق فراغ في السلطة، مما أطلق العنان للتوترات الطائفية التي تم قمعها لفترة طويلة في ظل حكمه الاستبدادي. وقد ظهرت هذه الانقسامات على الساحة مثل ألسنة اللهب التي تجتاح بارودًا جافًا، وهددت بتمزيق الأسس ذاتها التي قامت عليها الديمقراطية. علاوة على ذلك، كان لهذا الغزو عواقب بعيدة المدى على السياسة الإقليمية والتصورات العالمية للديمقراطية. فقد أرسلت موجات صادمة إلى مختلف أنحاء الشرق الأوسط، وأشعلت المناقشات حول السيادة والتدخل. وقد أدى الانفجار الذي أدخلته على العلاقات الدولية إلى إجبار الدول على التعامل مع أسئلة تتعلق بقابلية أنظمتها الديمقراطية للتدخل الخارجي.

تحدى هذا السيناريو المحير المفاهيم التقليدية لتقرير المصير وأثار الشكوك حول ما إذا كان من الممكن حقاً التفاوض على الديمقراطية أو فرضها بالقوة. علاوة على ذلك، شهد عراق ما بعد الغزو طفرة في الحيرة داخل المشهد السياسي. اشتدت المنافسات الطائفية والعرقية مع تنافس الفصائل المختلفة على السلطة ضمن إطار ديمقراطي ناشئ. فقد انهار الإجماع الهش الضروري للمفاوضات الفعالة وسط المصالح المتنافسة والانقسامات

الأيديولوجية التي بدت مستعصية على الحل في بعض الأحيان. وأصبحت الديمقراطية غارقة في شبكات معقدة من الفساد وشبكات المحسوبية، الأمر الذي شكك في قدرتها على الوفاء بوعودها. وكان التأثير على المجتمع المدني عميقا بنفس القدر خلال هذه الفترة المضطربة. سعى العراقيون، الذين انفجروا بحرية التعبير المكتشفة حديثًا، إلى تشكيل مصيرهم من خلال الاحتجاجات والمظاهرات. ومع ذلك، قوبل هذا الانفجار بالحيرة بينما كانت الدولة تكافح من أجل إدارة هذه الأصوات الديمقراطية الناشئة. وقد ألقى رد الحكومة، الذي كان في بعض الأحيان شديد القمع، بظلاله على المثل العليا التي ادعت أنها تتمسك بها. وأصبح تصور الديمقراطية باعتبارها صفقة قابلة للتفاوض ملوثاً بالحقائق على الأرض. كان لغزو العراق عام 2003 تأثير مزلزل على الديمقراطية لا يمكن التغاضي عنه أو التقليل من شأنه. لقد حطمت أوهام الاستقرار[5] وغيرت إلى الأبد مسار المفاوضات السياسية داخل العراق وخارجه. لقد تفجر هذا الحدث بعواقب غير متوقعة ومعضلات محيرة، وتحدى الحكمة التقليدية حول الديمقراطية باعتبارها صفقة قابلة للتفاوض. وبينما نتأمل في إرثها بعد عقدين من الزمن، نجد أنفسنا نتصارع مع آثارها المعقدة على الحكم الديمقراطي في عالم دائم التغير.

تحديات الديمقراطية في عراق ما بعد الغزو

لقد كانت التحديات التي تواجه الديمقراطية في عراق ما بعد الغزو متعددة، مما شكل عقبات كبيرة أمام إنشاء نظام سياسي مستقر وشامل. وأدت الطبيعة المتعددة الأوجه لهذه التحديات إلى إدامة الشعور بعدم اليقين والتعقيد، مما يجعل من الصعب السير على الطريق نحو التحول الديمقراطي الناجح. وكان أحد التحديات البارزة هو الانقسامات الطائفية التي تفاقمت بسبب الغزو في عام 2003. وقد أعاقت هذه الانقسامات، الناجمة عن المظالم التاريخية والصراع على السلطة بين مختلف المجموعات العرقية والدينية، تشكيل حكومة متماسكة. الهوية الوطنية ضرورية لتوطيد الديمقراطية، فضلاً عن ذلك فقد أدى السقوط السريع لنظام صدّام حسين الاستبدادي إلى خلق فراغ في السلطة سرعان ما ملأته الفصائل المتنافسة على السيطرة. ولم يؤدِ هذا الصراع على السلطة إلى تقويض الجهود الرامية إلى إنشاء حكومة ديمقراطية شاملة فحسب، بل أدى أيضًا إلى تكثيف خطوط الصدع المجتمعية القائمة. وبرزت الأحزاب السياسية المتحالفة على أسس طائفية كلاعبين مهيمنين [6] حيث أعطت الأولوية لمصالحها الخاصة على الوحدة الوطنية، وأدامت دائرة العنف وعدم الاستقرار. ومن التحديات الهائلة الأخرى التهديد المستمر الذي تشكله الجماعات المتطرفة مثل داعش (الدولة الإسلامية في العراق وسوريا). وفي سعيها لإقامة الخلافة الإسلامية، استفادت هذه التنظيمات المسلحة من الوضع الأمني الهش في عراق ما بعد الغزو. وأدت تكتيكاتهم الوحشية التي تهدف إلى زرع الخوف والانقسام إلى تآكل ثقة الجمهور في قدرة الحكومة على توفير الأمن والاستقرار. وقد شكل ظهور مثل هذه الجهات الفاعلة غير الحكومية العنيفة تحديات خطيرة لجهود بناء الديمقراطية حيث سعت إلى تقويض أي مظهر من

مظاهر الحكم الديمقراطي من خلال ترويع السكان المحليين. علاوة على ذلك، ظل الفساد منتشرا داخل المؤسسات العراقية منذ عام 2003. فالفساد المتفشي لا يؤدي إلى تآكل ثقة الجمهور فحسب، بل يقوض أيضا وظائف الدولة الأساسية الضرورية للحكم الفعال.

إن تحويل الأموال المخصصة للرعاية العامة إلى جيوب خاصة يؤدي إلى تفاقم عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية ويعزز خيبة الأمل بين المواطنين الذين ينظرون إلى الديمقراطية على أنها فاشلة في الوفاء بوعودها. وبالإضافة إلى التحديات الداخلية، أدت العوامل الخارجية أيضاً إلى تعقيد الرحلة الديمقراطية في العراق. وكثيراً ما أدى نفوذ القوى الإقليمية، مثل إيران والمملكة العربية السعودية، إلى تفاقم التوترات الطائفية وعرقلة جهود المصالحة الوطنية. وقد سعت هذه الجهات الخارجية إلى تحقيق مصالحها الاستراتيجية الخاصة في العراق، مما أدى إلى تقويض احتمالات إقامة ديمقراطية تمثيلية حقيقية. لقد كانت التحديات التي تواجه الديمقراطية في عراق ما بعد الغزو عديدة ومعقدة، مما يشكل عقبة هائلة أمام إنشاء نظام سياسي شامل. وساهمت الانقسامات الطائفية، والصراعات على السلطة، والتهديدات المتطرفة، والفساد، والتأثيرات الخارجية، في خلق المشهد المحير للسياسة العراقية. إن التغلب على هذه التحديات لا يتطلب الحكم الفعال فحسب، بل يتطلب أيضا بذل جهود متضافرة لتحقيق المصالحة الوطنية وتعزيز الشعور بالهوية المشتركة بين المجتمعات المتنوعة. فقط من خلال معالجة هذه العقبات المتعددة الأوجه يمكن للعراق أن يأمل في التفاوض على الديمقراطية باعتبارها صفقة دائمة تعود بالنفع على جميع مواطنيه.

دور الجهات الدولية الفاعلة في تشكيل الديمقراطية العراقية

تأثرت الديناميكيات المعقدة للديمقراطية في العراق بشكل كبير بمشاركة مختلف الجهات الدولية الفاعلة. منذ بداية غزو عام 2003 وحتى يومنا هذا، لعبت هذه الجهات الفاعلة دورًا محوريًا في تشكيل العمليات الديمقراطية داخل العراق والتفاوض بشأنها. لقد مارست الولايات المتحدة، باعتبارها اللاعب المهيمن، نفوذها من خلال التدخل العسكري وجهود بناء الدولة اللاحقة. ومع ذلك، فقد قوبل هذا التدخل في كثير من الأحيان بالمقاومة والتشكيك من جانب أصحاب المصلحة المحليين والدوليين. كان الغزو العسكري للولايات المتحدة بمثابة نقطة تحول في تاريخ العراق، حيث أدى إلى تعطيل هياكل السلطة القائمة وتفكيك نظام صدام حسين. وبينما لاقت هذه الخطوة في البداية ترحيباً من قبل بعض العراقيين الذين يتوقون إلى التغيير والتحرر من الحكم القمعي، إلا أنها أشعلت أيضاً انقسامات داخلية بين المجموعات العرقية والطائفية المختلفة. وقد خلق فراغ السلطة الذي أعقب ذلك فرصة للجهات الفاعلة الخارجية للتدخل وتشكيل المشهد السياسي في العراق. لعبت المنظمات الدولية، مثل الأمم المتحدة، دورًا فعالًا في توفير الشرعية لهياكل الحكم في مرحلة ما بعد الغزو في العراق. ومن خلال وجودها على الأرض، حاولت هذه المنظمات تسهيل الحوار بين مختلف أصحاب المصلحة

لضمان الشمولية داخل السياسة العراقية. ومع ذلك، فقد تم إعاقة جهودها في كثير من الأحيان بسبب المصالح المتضاربة بين الدول القوية المنخرطة في هذا اللغز الجيوسياسي المعقد[7]. كما لعبت الدول المجاورة مثل إيران والمملكة العربية السعودية أدواراً مؤثرة في تشكيل الديمقراطية العراقية. وتنظر هذه القوى الإقليمية إلى العراق باعتباره ساحة معركة استراتيجية حيث يمكنها تأكيد أجنداتها السياسية الخاصة. وقد سعت إيران إلى ممارسة نفوذها على الأحزاب السياسية الشيعية. وقد أدى ذلك إلى اتهامات بالتدخل غير المبرر من الدول العربية المجاورة التي تخشى تنامي النفوذ الإيراني في المنطقة. علاوة على ذلك، برزت الجهات الفاعلة غير الحكومية، مثل الميليشيات المسلحة، كلاعبين مهمين في السياسة العراقية منذ عام 2003. وغالبًا ما تعمل هذه الميليشيات خارج آليات سيطرة الدولة التقليدية ولكنها تمتلك قوة كبيرة على الأرض بسبب قدرتها على حشد الدعم بين المجتمعات المهمشة أو استغلال الصراعات الطائفية والتوترات لتحقيق مكاسب خاصة بها. ومشاركتها تزيد من تعقيد الجهود الرامية إلى ترسيخ الديمقراطية في العراق. ومع ذلك، فإن دور الجهات الفاعلة الدولية في تشكيل الديمقراطية العراقية لم يكن سلبياً أو معيقاً فحسب؛ إذ لعبت المساعدات الدولية والمساعدات الاقتصادية دوراً حاسماً في إعادة بناء البنية التحتية في العراق وتعزيز التنمية الاقتصادية. وتهدف هذه الجهود إلى خلق بيئة مواتية للحكم الديمقراطي من خلال معالجة المظالم الاجتماعية والاقتصادية التي يمكن أن تغذي عدم الاستقرار. لقد كان دور الجهات الفاعلة الدولية في تشكيل الديمقراطية في العراق متعدد الأوجه، وكانت له عواقب إيجابية وسلبية. فقد أدى التدخل العسكري للولايات المتحدة إلى تعطيل هياكل السلطة القائمة، في حين سعت المنظمات الدولية إلى تسهيل الحوار السياسي الشامل. سوف يستمر التفاعل المعقد بين الجهات الفاعلة المختلفة هذه في تشكيل مسار العراق نحو التوصل إلى صفقة تفاوضية بشأن الديمقراطية في السنوات القادمة.

آفاق الديمقراطية في العراق

إن مستقبل الديمقراطية في العراق موضوع يكتنفه الغموض. وبينما نتعمق في الديناميكيات المعقدة التي شكلت هذه الأمة منذ عام 2003، تظهر مجموعة كبيرة من التوقعات المحيرة، التي تقدم الأمل والخوف. على مدى العقدين الماضيين، شهد العراق رحلة مضطربة نحو الحكم الديمقراطي، تتأرجح بين لحظات الانتصار واليأس. ورغم أن الطريق إلى ديمقراطية مستقرة مكتظ بالإمكانات، ورغم ذلك تطارده الانقسامات العميقة الجذور والتدخلات الخارجية. لا يستطيع المرء أن ينكر موجة التفاؤل التي صاحبت الإطاحة بنظام صدّام حسين الاستبدادي في عام 2003. ويبدو أن إزاحة هذا الحاكم المستبد كانت بمثابة الأساس لعصر الديمقراطية. ومع ذلك، مع مرور الوقت، أصبح من الواضح أن التحول الديمقراطي في العراق لم يكن عملية خطية، بل كان بالأحرى مفاوضات معقدة بين مختلف الفصائل المتنافسة على السلطة. وتكمن الحيرة في فك رموز القوى التي تهدف حقاً إلى تعزيز القيم الديمقراطية،

وأي القوى تسعى إلى استغلال النظام لتحقيق مكاسب شخصية أو طائفية. علاوة على ذلك، أدت التأثيرات الخارجية إلى زيادة تعقيد المسار الديمقراطي في العراق. لقد أدى غزو الولايات المتحدة واحتلالها اللاحق إلى انقسام بين التحرير والقهر، وهي مفارقة لا تزال تشكل السياسة العراقية اليوم. وفي حين يزعم البعض أن التدخل العسكري الأميركي جلب تغييراً إيجابياً من خلال تفكيك نظام قمعي، فإن آخرين ينظرون إليه باعتباره مسعى إمبريالياً يهدف إلى تأمين المصالح الاستراتيجية بدلاً من تعزيز الديمقراطية ذاتها[8]. وتضيف هذه الازدواجية طبقة أخرى من التعقيد عند تقييم الآفاق المستقبلية للديمقراطية في العراق. علاوة على ذلك، لا يمكن للمرء أن يتجاهل الانقسامات الطائفية داخل المجتمع العراقي، وهو ما يشكل مصدراً آخر للحيرة عند التفكير في مستقبله الديمقراطي.

تمتد جذور هذه الانقسامات إلى المظالم التاريخية والصراعات على السلطة بين الجماعات الدينية المختلفة مثل العرب السنة والعرب الشيعة والأكراد. تطرح الطائفية تحديات كبيرة أمام بناء دولة قوية متماسكة حيث يمكن لجميع المواطنين المشاركة على قدم المساواة في العمليات السياسية دون خوف أو تمييز. وفي حين أن هذه التعقيدات قد ترسم صورة قاتمة، فمن الضروري الاعتراف بصمود وتصميم الشعب العراقي. وعلى الرغم من النكسات العديدة التي واجهها العراقيون، فقد أظهروا باستمرار توقهم إلى الديمقراطية واستعدادهم للانخراط في العملية السياسية. إن انفجار مطالبهم من أجل التغيير، والذي يتجلى في كثير من الأحيان من خلال الاحتجاجات الجماهيرية والحركات الشعبية، يشهد على أن السكان يرفضون الاستسلام لليأس[9]. لا تزال الآفاق المستقبلية للديمقراطية في العراق غامضة وغير مؤكدة. وقد خفت موجة التفاؤل التي أعقبت الإطاحة بصدام حسين من جراء المفاوضات المعقدة بين الفصائل المتنافسة، والتأثيرات الخارجية التي ألقت بظلالها على النوايا، والانقسامات الطائفية. ولكن في خضم هذه الحيرة يواصل الشعب العراقي الكفاح من أجل مثل الديمقراطية، ولا يزال هناك بصيص من الأمل في أن يجد العراق طريقه نحو مستقبل ديمقراطي مستقر وشامل.

الخاتمة

من خلال تحليل أصول الديمقراطية في العراق، يصبح من الواضح أن البلاد لديها تاريخ طويل من الحكم الاستبدادي والنضال من أجل الحكم الذاتي. لقد كان تأثير غزو عام 2003 على الديمقراطية في العراق كبيراً ومعقداً. وفي حين أطاحت بديكتاتور وحشي ووفرت فرصة للتحول السياسي، فإنها أطلقت أيضاً العنان للتوترات الطائفية والصراعات على السلطة التي أعاقت التقدم الديمقراطي. أدت التحديات اللاحقة التي واجهها عراق ما بعد الغزو إلى تعقيد مساره نحو الديمقراطية، بما في ذلك قضايا مثل ضعف المؤسسات والفساد والعنف والتمرد. ولعبت الجهات الفاعلة الدولية دوراً حاسماً في تشكيل الديمقراطية في العراق طوال هذه الفترة. مارست الولايات المتحدة والقوى الأجنبية الأخرى نفوذها من خلال التدخل العسكري، وجهود بناء الدولة، والمشاركة الدبلوماسية. ومع ذلك، لم تكن هذه التدخلات

دائمًا ناجحة أو لقيت استحسانًا من قبل الجهات الفاعلة المحلية، مما أدى إلى عواقب غير مقصودة أعاقت ترسيخ الديمقراطية[10]. وبالنظر إلى الآفاق المستقبلية للديمقراطية في العراق، ستكون هناك عدة عوامل ذات أهمية قصوى. إن معالجة أوجه عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية، وتعزيز هياكل الحكم الشاملة التي تستوعب المجتمعات المتنوعة، وتعزيز قدرة مؤسسات الدولة على تقديم الخدمات بفعالية، كلها عناصر أساسية للتنمية الديمقراطية المستدامة. علاوة على ذلك، فإن تعزيز جهود المصالحة الوطنية مع مواجهة التدخل الخارجي سيكون أمراً حيوياً لبناء الثقة بين المجموعات المختلفة داخل المجتمع العراقي. في نهاية المطاف، على الرغم من حدوث العديد من النكسات على طول رحلتها نحو الديمقراطية منذ عام 2003 حتى الآن - بما في ذلك فترات عدم الاستقرار والعنف - لا يزال هناك أمل في أنه من خلال الجهود المتضافرة من كل من الجهات الفاعلة المحلية والشركاء الدوليين على حد سواء؛ يستطيع العراق تحقيق نظام ديمقراطي أكثر قوة يعكس تطلعات مواطنيه إلى الحرية وتقرير المصير.

الهوامش

1- O'Sullivan, C. (2004). «Observations on the Role of the United Nations in Iraq in the Coming Year». Connections, 3(4), pp. 83–92
2- Gompert, D. C., Binnendijk, H., & Lin, B. (2014). The U.S. Invasion of Iraq, 2003. In Blinders, Blunders, and Wars: What America and China Can Learn, RAND Corporation, pp. 161–174
3- Nazir, M. (2006). «Democracy, Islam and Insurgency in Iraq». Pakistan Horizon, 59(3), pp. 47–65
4- Alhajji, A. F. (2004). «U.S. ENERGY POLICY AND THE INVASION OF IRAQ: DOES OIL MATTER?» The Journal of Energy and Development, 29(2), pp. 209–232
5- Kramer, R. C., & Michalowski, R. J. (2005). «WAR, AGGRESSION AND STATE CRIME: A Criminological Analysis of the Invasion and Occupation of Iraq». The British Journal of Criminology, 45(4), pp. 446–469
6- Yakoubi, M. (2023). The American occupation of Iraq in the light of the British "imperial precedent" twenty years later. Rudaw Research Center
7- Cordesman, A. H. (2023). Understanding Iraq's Nation-Building Needs before the 2003 Invasion. In Giving Iraq Stability and Progress: Treat the Causes of Iraq's Governance and Development "Disease," Rather Than Focusing on Its Violent "Symptoms". Center for Strategic and International Studies (CSIS), pp. 8–15
8- Pitchford, J. (2011). «The "Global War on Terror," Identity, and Changing Perceptions : Iraqi Responses to America's War in Iraq». Journal of American Studies, 45(4), pp. 695–716
9- Green, P., & Ward, T. (2009). «THE TRANSFORMATION OF VIOLENCE IN IRAQ». The British Journal of Criminology, 49(5), pp. 609–627
10- Jacqueline S. Ismael. (2014). «Iraqi Women in Conditions of War and Occupation». Arab Studies Quarterly, 36(3), pp. 260–267

الحداثة ومعاثرها واستئنافاتها السياسية والأخلاقية

من خلال هابرماس وفوكو

د. نعيمة الرياحي
أستاذة محاضرة بالجامعة التونسية مختصة في الفلسفة الحديثة والمعاصرة
اشتغلت اساسا على فكر ميشال فوكو وألفت ثلاثة كتب حوله

مقدمة

إنّ ما نلاحظه من عدم التكافؤ بين ما ينظر إليه الفلاسفة وما يحدث في الواقع يحفزنا لامتحان التفكير الفلسفي ومدى صلابته وصموده أمام الممارسة السياسية المعقدة. فالفكر الفلسفي الحداثي الذي أسس كونية القيم مثل العقلانية والعلم، لم يتمّ اعتماده بشكل كوني بحيث عوّضت فكرة المركزية الإثنية فكرة الكونية واختزلت هذه الأخيرة في مجرّد وسيلة أو إيديولوجيا لتكريس أنماط خطيرة من الهيمنة سيما وأن التمييز بين الحضارات ظل جاثما في الممارسة السياسية.

ولعل ذلك يبرز بوضوح عندما نتفحص منظومة حقوق الإنسان. إنّها وسيلة في يد الأقوياء إذ ماذا نفعل بمفهوم حقوق الشعوب في تقرير مصيرها في ظل واقع يحدد فيه الأقوى مفهوم السيادة ومفهوم الحق؟ وماذا نفعل بمفهوم الحرية في ظلّ وجود شعوب مستعمرة؟[1] وماذا تعني حرية التعبير في ظل فقر اقتصادي واجتماعي وخيرات منهوبة ؟

ولعل بعض الفلاسفة والمفكرين المعاصرين أكّدوا أن الحداثة: "تفرض نفسها وكانها واحدة متجانسة مشعة عالميا ، انطلاقا من الغرب" [2]. كما أكّد جاك ديريدا على مركزية الحداثة الغربية في إجابته على سؤال طرحه عليه هاشم صالح وهو: " ألا تعتقد أنّ الثقافات البشرية الأخرى لها سياجها المنطقي والمركزي الخاص الذي يحميها من عدوى الثقافات الأخرى ويجعلها تلتف حول نواتها الصلبة أم أنّ هذه الظاهرة مرتبطة بالغرب فقط؟" . أجاب ديريدا : "تعني المنطقية المركزية أو العقلانية المركزية بالمعنى المحدد للكلمة أنّ الأشياء مركزة ومتمحورة حول اللوغوس، أي تدخل لغة العقل بصفته اللوغوس، واللوغوس كلمة إغريقية. وبالتالي فلا أعتقد أنّ بإمكاننا التحدّث عن المنطقية المركزية في أيّ ثقافة أخرى غير الغربية" [3] وأكّد بول ريكور

أن الحداثة عبارة مقلقة من حيث أنّها تعني زمانين مختلفين وأنها تعني حداثتهم هم الغرب التي هي منفصلة عن حداثتنا نحن الآخرون[4]. ومن خلال كلّ هذه المواقف لكبار المفكرين المعاصرين، نتبيّن أنّه ثمّة لا تكافؤ بين الحداثة كقيم كونية مجردة وممارستها كاختراع غربي يسوّغ للاستعمار بهدف تنوير الشعوب وتحديثها في ما يمكن أن يرتبط بما يسمى بالعولمة كنظام يريد أن يفرض تجانسا وهميا.

ولعلنا نستطيع، في هذه الورقة، أن نفك بعضا من شفرات هذا الإشكال بالعودة إلى المراجعات أو الاستئنافات المتتالية للفلاسفة المعاصرين لهذا المفهوم الفلسفي المهم أملا في توضيح نوايا الحداثة وإمكانيات إنجاحها لا كمشروع نظري فحسب، بل أيضا كمشروع عملي وكممارسة إنسانية كونية.

فما الحداثة؟ وما معنى استئنافها؟ وماذا أصابها في الأثناء؟ هل توقفت حتى نستأنفها؟ وأين توقفت؟ ولماذا؟

I-تعريف الحداثة وعلاقتها بالتنوير

أوّليا، تطلق عبارة الحداثة على حقبة زمنية امتدت من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر تقريبا وشملت كل ما تمت تسميته الأزمنة الحديثة من عصر النهضة - القرن الخامس عشر - الى عصر الانوار - القرن الثامن عشر والتاسع عشر-. وإماراتها الأولى هي اندلاع الاهتمام بإصلاح الكنيسة ثم تجلّت مع روني ديكارت وغاليلو غاليلي ونيكولاس كوبرنيك حيث أصبحت الطبيعة تحدد هندسيا وتكتب بأحرف رياضية وأصبحت الشمس لا الأرض مركز الكون وتخضع كل الظواهر إلى نفس القوانين الفيزيائية. أما في السياسة فقد نشرنيكولو دي برناردو دي ماكيافيلّي، من خلال كتابه الأمير، معنى الواقعية السياسية حيث أصبحت السياسة أمرا بشريا لا إلاهيا وأصبح الحكم يتطلب تقنيات لا أوامر إلهية رب تقنيات وإجراءات وحيل تصلح لإقامة الحكم الناجح فتتحوّل الشرعية من شرعية مقدسة تستمد من الإلهي الى شرعية انسانية عقلية وواقعية.

هكذا لا تكون الحداثة مجرد تسمية لحقبة تاريخية بل هي تغير جذري ونشأة لنموذج تفكير جديد شكّل قطيعة وانفصالا عن الطرق التقليدية في التفكير وفي الممارسة وامتدت إلى عصر الأنوار الذي جذر هذه القطيعة مع عصر الظلمات. تميزت بقلب نظام الفكر ونظام المجتمع.

أصبح هذا النظام محايثا يبدأ من الإنسان الذي يكتشف الحقائق الرياضية بنور طبيعي[5] بعقله كملكة طبيعية قادرة على معرفة الحقائق سواء تعلق الأمر بالإنسان أو بالعالم من حوله أي الآخرين. ولعل ظهور مفهوم النور الطبيعي هو ما جعل مفهوم عصر الأنوار ممكنا إذ تواصل اعتماد العقل البشري والاستقلالية عن كل وصاية ميتافيزيقية مع كانط خاصة عندما أجاب عن حقيقة الأنوار فقال أنه عصر التحرر من كل وصاية واستعمال العقل بكل شجاعة. إنّ هذا العصر هو صياغة أخرى للحداثة كما عبّر عن ذلك ميشال فوكو: نرى "...مع نص كانت، ظهور صيغة جديدة في طرح مسألة الحداثة..." [6].

فإذا كانت الحداثة قد قامت على تجاوز عصر الظلمات والجهل ولم تع بذاتها كلحظة فارقة، فإن كانت قد جاءت ليعيّن ما تتحدد

به تلك الفترة التي امتدت إلى القرن الثامن عشر، وبدأت ملامحها تتوضح وتتجذر أكثر فاكثر في اتجاه السيطرة على الطبيعة وتنظيم المجتمع من خلال العقل البشري الذي أصبح وحده وبكل استقلالية وشجاعة يرسم لنفسه مساره ومسار الطبيعة والمجتمع والسلطة السياسية[7].

ونفس الوعي بالزمن الفارقي نجد جورج فيلهلم فريديريك هيجل قد صاغه حين عيّن بشكل دقيق بداية الحداثة متجاوزا كل الالتباسات المتعلقة بظهورها، واعتبر ديكارت أبا للحداثة. ثمة لحظتان؛ لحظة التكوّن وهي لحظة الحداثة، ولحظة الوعي بهذا التكوّن ومواصلة إنجازه وهي لحظة عصر الأنوار. لقد نشأ الوعي بالزمن كلحظة فارقة كما بدأت تبرز الإرهاصات الأولى لفلسفة التاريخ منذ كانت في قراءة فوكو. ولم تقتصر الحداثة كاستعمال حر للعقل على المجال المعرفي والسياسي بل تجسدت بشكل آخر أعني كطريقة في الإحساس والسلوك[8] منقطعة عن الطرق القديمة. لقد نشأت جماليات مستقلة عن اللاهوت ونشأ اسلوب جمالي وذوقي جديد في الكتابات الأدبية وفي الأعمال الفنية التشكيلية كالرسم مثل رسومات ليونار دي ديفانشي التي كانت طريقة حديثة في الإحساس والقطيعة الأسلوبية في مجال الفن.

ثمة قطيعة زمنية حدثت قبل القرن الثامن عشر وكانت وراء نشأة ذوق جمالي وفكري وسياسي وأخلاقي جديدة. وفضلا عن كل ذلك فالحقبة الحديثة شهدت نشأة مفهوم جديد هو مفهوم الحرية بدءا بالممارسة الاقتصادية، إذ منذ أن تطورت الصناعة والمكنة والعمل وتطور الإنتاج، نشأ النظام الرأسمالي الليبيرالي القائم على مفهوم الحرية. يقول فريديريك قيوو: ''إن المبدأ الأساسي للحداثة هو الحرية أو بالأحرى هو مبدأ التعيين الذاتي ولا يتعلّق الأمر فقط بالضمير الحر الذي ينشأ عن ملكة الاختيار الحر- وهي ليست حديثة بشكل متميز - ولكن يتعلق الأمر بتحديد الذات لنفسها معايير وجودها.[9]''

كل هذا يعني أن هناك طريقة جديدة مختلفة في الذوق والإحساس متجسدة في الرسوم وفي الأدب وفي الأخلاق وفي السياسة. إنها لحظة خاصة منبجسة كحركة مستقلة عن كل أشكال اللاهوت.

وإذا أردنا أن نعود إلى أهم مميزات الحداثة وأن ندقّق الأمر أكثر ونفصل القول يمكن الإشارة إلى ثلاثة مميزات رئيسية:

أ-الميزة الأولى للحداثة مرتبطة باكتشاف الذات الإنسانية وقدرتها على التحكّم في العالم وفي نفسها عن طريق معارف عقلية. هذا الاكتشاف لا يعني ان الانسان لم تكن له قيمة أنطولوجية وإيتيقية، بل كان يحتل أسمى مرتبة في سلم الكائنات لكن ما تغير أن هذا السلم التقييمي قد وقع التخلّي عنه وانتفت التراتبية الإنطولوجية لتحلّ محلّها نظرة أفقية يخضع فيها الإنسان ككل الكائنات الى قوانين الطبيعة التي تصاغ رياضيا وهو ما يحيلنا إلى:

ب- الميزة الثانية أعني قيمة العقل في فهم العالم وهو ما تعرف به الحداثة بما هي تصور عقلاني، فعن طريق العقل البشري نعرف كل شيء: العالم والإنسان.

ج- الميزة الثالثة للحداثة ترتبط بالحرية والالتزام بالقانون. وهنا لا بد من التذكير أنّ العقل في المسائل العملية أعني تدبير مسألة

الحرية يمكن أن يتوزع بين ما هو أخلاقي وما هو سياسي؛ حيث أسّس كانط القانون الأخلاقي بصورة محاكية لقوانين الطبيعية، وأكّد بأنّه يمكن أن ننشئ قوانين أخلاقية. يقول كانط: "كل شيء في الطبيعة يتصرّف وفق القوانين ولا يوجد غير كائن عاقل، يمتلك ملكة التصرّف وفق تمثّل القوانين، أعني من خلال المبادئ، أو بلغة أخرى هو يمتلك إرادة"[10]. أما في السياسة، فقد تمّ تشريع القوانين السياسية الملزمة للحرية عن طريق فلسفة العقد الاجتماعي الذي يحرر الناس من الطبيعة البشرية، ويجعلهم قادرين على تنظيم حياتهم المدنية. ولا يتعلّق الأمر بالقانون المحلّي فقط بل إن كانط يتحدث عن قوانين كونية تحرر الإنسان من الحرب الشاملة. من هنا فإنّ الحرية تتقيد بالمسؤولية وبالقانون وهي ما اعتبرته الميزة الثالثة للحداثة التي تنشأ عندما يتخلّص الإنسان من الوصاية وسلطة المقدس ويعتمد على نفسه في تقرير مصيره وهو ما يمكن اعتباره النضج البشري والمسؤولية الأنطولوجية التي يسميها كانط "خروج المرء من القصور الذي هو مسؤول عنه"[11].

فالعقلانية الأخلاقية والسياسية هي اذن تحرر من كل أشكال التعصب والوصاية التي تجسدت في الكنيسة وإبراز سيادة الإنسان من خلال معرفة القوانين الطبيعية ووضع القوانين العملية أخلاقا وسياسة، بذلك يمكن التحرر من الفكر اللاهوتي وتحميل الإنسان مسؤوليته أمام القوانين. ومقابل عصر الظلمات يوجد عصر الحداثة والأنوار. إن القطيعة تجسدت في ظهور الإنسان وحلوله محل الإله ومسك مصيره بنفسه وتخليه عن هشاشة النظرة الدونية التي كان ينظر بها لنفسه وللعالم بعد أن كان عبدا يوكل أمره لله في كلّ ما يأتيه، ويتصرّف بمشاعر الخوف والطمع وهي مشاعر دونية.

II- معاثر الحداثة

في الحقيقة ثمة عدة أسباب ساهمت في تعطيل مسار الحداثة أولها، أن الانتصار للعقل ولاسيما في آخر تجلياته مع الفكر الوضعي والإيمان به بشكل مطلق قد أدى إلى الإفراط في الثقة في منتجاته ولاسيما في التكنولوجيا المعممة التي ظهر معها عالم مشيؤ وتصور أداتي لكل شيء بما في ذلك الإنسان الذي غدا مجرّد أداة كائنا مغتربا في عالم السلع. يقول الان توران:

"في الواقع، لقد استبدل الغرب تدريجيًا الرؤية العقلانية للكون وللفعل الإنساني بمفهوم أكثر تواضعًا وأداتيًا بحتًا للعقلانية، ومن خلال وضعه أكثر فأكثر في خدمة المطالب والاحتياجات التي تفلت أكثر فأكثر، نحن ندخل أكثر في مجتمع الاستهلاك الجماهيري، من القواعد التقييدية للعقلانية التي تتوافق فقط مع مجتمع الإنتاج المرتكز على التراكم وليس على استهلاك أكبر عدد من الناس..."[12]

على أية حال نحن نشاهد اليوم استعمالا أداتيا للعقل وللإنسان نفسه كإنسان لقد أصبح الإنتاج والمزيد منه هو الهدف في مجتمع لا يراعي الفئات الضعيفة أو المجتمعات التي تنتمي الى ما سمي بالعالم الثالث.

إنّ ضربا جديدا من الهيمنة كان قد نشأ ففي حين حلم الفلاسفة بمجتمع من دون هيمنة وبإنسان يتمتع بالحرية والمساواة والعدالة وبدولة العقل والحق. هذه الهيمنة تجيد التلاعب بمفاهيم العقلانية لتحولها وتكرسها لفرض مصلحتها. هذا تعطل أول لمسار الحداثة.

أمّا ثاني معاثر الحداثة فتكمن في تمجيد العمل لحل مشكل الندرة، وقد أدى ذلك عكسيا إلى الوفرة ولكن إلى الرغبة الجامحة في التملّك بشكل مرض، وذلك لا يضمن المساواة والتكافؤ؛ فالبعض يعيش الفقر المدقع والبعض الآخر يعيش الثراء الفاحش ومن ثمة نفسر ظاهرة الاستعمار كرغبة في الهيمنة على البلدان الغنية بالموارد الطبيعية، وحينها لن تجدي مقولة حقوق الإنسان أي نفع، ولن يكون للكونية أي قيمة. يقول توران " أليس هو التأثير المتزايد للنظام على الفاعلين، والتطبيع والتقييس الذي، بعد أن دمر استقلالية العمال، يمتد إلى عالم الاستهلاك والاتصالات؟ أحيانًا تتم ممارسة هذه الهيمنة بحرية، وأحيانًا بطريقة سلطوية، ولكن في جميع الحالات، فإن هذه الحداثة، حتى عندما تناشد حرية الذات، تهدف إلى إخضاع كل فرد لمصالح الكل، سواء كان ذلك لصالح الجميع أو لصالح المؤسسة أو الأمة أو المجتمع أو العقل نفسه. أليس باسم العقل وعالميته امتدت سيطرة الرجل الغربي الناضج والمتعلم على العالم أجمع، من العمال إلى المستعمَرين، ومن النساء إلى الأطفال؟"[13].

من هنا وجب أن نميز بين الحداثة والعولمة أو الليبيرالية الجديدة كأعلى مراحل للرأسمالية، إذ يبدو الالتباس قائما بين الحداثة والعولمة لأن هذه الأخيرة تشترك مع الأولى في فكرة الكونية، فماذا يعني هذا الامتداد العالمي لمبدأ الكونية التي أنشأتها العقلانية الحديثة كمبادئ توجيهية؟ وما علاقتها بالعولمة؟

إنّ الحداثة قامت على فكرة الكونية الكانطية ولعل هيجل هو من طور - بعد كانط - هذه الفكرة في فلسفة التاريخ فهما من أسسا دلالة الكونية وصاغاها بشكل فلسفي واضح، كما صاغا فكرة التاريخ الكوني. كتب كانط مقالة "التاريخ من وجهة نظر السياسة الكونية " وكتب هيجل "فلسفة التاريخ ." ويمكننا أن نذكّر بعدّة فرضيات تلخص فكرة هذا التاريخ الكوني لدى كانط وهي : فكرة الغائية التي تحدد غاية كل شيء في الطبيعة، الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعيش وفق العقل وعليه تطويره، وأن الإنسان هو ما يصنع التاريخ من خلال استعماله لعقله المحدد... وأن المؤرخ الفيلسوف يجب أن يعتبر أن الطبيعة فرضت على الإنسان إرساء دولة الحق الكوني وأن هذه الدولة يجب أن يقودها قائد/ معلم يجعل الناس يخضعون للإرادة الكونية التي لا تحرم أي أحد من حريته ولذلك يجب أن يوجد قانون دولي يواصل الدستور المدني في مستوى الدول لتجنب الحروب والتوحيد بين الناس أينما كانوا وتلك هي غاية التاريخ من حيث ما هو بلوغ غاية الطبيعة الخفية أعني تأسيس دستور يقوم على قانون كوني، وذلك هو معنى التاريخ.

أما هيجل فقد أسس مفهوم الروح المطلق الذي يستخدم الطبيعة، كتجسيد له، لتحقيق جوهره، الحرية أو المفهوم ويتجلى من خلال القانون والدولة، باعتبارها العقلانية في حد ذاتها ولذاتها أو التوفيق بين الخاص والكوني، والفردي والعام. من هنا نلاحظ التشابه الخادع بين الكونية والعالمية التي ظهرت من خلال العولمة كما يقول جون بودريار مفسرا الشبه بين الكونية والعولمة، مؤكّدا على "أنّ الكوني يهلك بالعولمة"[14].

فإذا كانت العولمة تعني إمكانية تبادل الخبرات الحياتية، من خلال الذاتية المتبادلة، والتي يسهلها دعم التواصل الافتراضي

الكوني وإذا كانت تفترض نشر القانون والديمقراطية في جميع أنحاء العالم، وإذا كانت تؤدي إلى الانتصار على الجوع والبربرية، فيمكننا أن نقول بشكل مشروع أننا في مرحلة تحقيق المشروع الحديث، إننا نمتحن العولمة، بمعنى امتداد المبدأ الحديث للعقلانية التي يجسدها العلم والقانون ولكن إذا كانت العولمة مظهرا من الحداثة يضع العلم والتكنولوجيا في خدمة جزء من الإنسانية على حساب جزء آخر، فإنّنا نرسم عندئذ الهوّة العميقة بين كما نسميه حداثة وما نسيمه عولمة؛ إذ كيف يمكننا أن نفسر وفرة الإنتاج العالمي الذي يغطي الاحتياجات العالمية ومع ذلك لا يزال أغلب الناس يموتون جوعا وعطشا و/او كيف نفسر انتشار الأمراض في عصر تطوّر العلم؟ وكيف نفسر تصاعد العنف واندلاع الحروب هنا وهناك كل يوم؟ لا يمكننا إلا أن نجيب بأن العولمة هي امتداد متصاعد للأداتية تشتغل في الإقتصاد وفي التكنولوجيا وفي ما يسمى السياسة العالمية. وهذا هو سر انحراف الكونية من كونية عقلية في مجالي العلم والسياسة إلى كونية أو شمولية أو كوكبية - على حد عبارة الأستاذ المرحوم مصطفى كمال فرحات – تختزل في ما هو اقتصادي. هذه هي أهم معاثر الحداثة، أضف إلى ذلك يوجد عنصر مهم قد تدخل بعد أن كدنا نعتقد أننا أنهينا معه: وهو التعصب الديني والتشبث بما هو روحاني في عصر غزت فيه المكنة وغاب فيه المعنى. وبذلك أصبحت الرؤية العقلانية التي لطالما تم تقديسها إلى حد ما رؤية قابلة للتفنيد والتجاوز إذ أن العلمنة واللائكية لم تعد شرطا اساسيا لبناء نظام الحكم، كما تبين لكل الناس أن الوحدة والتجانس بين الشعوب أضحيتا حيلة، وفي أفضل الأحوال وهماً لا يمكن تصديقه سيما إذا ربطناه بما نشاهده من حروب الشمال ضد الجنوب، كما أنه، في ظل انفتاح الحضارات على بعضها وتمازجها - إما عن طريق الهجرة أو الاستيطان أو الحرب -، تغير مفهوم الهوية ولم تعد متجانسة بل أصبحت مركبة[15] في أفق الهوية المركبة أصبح الدين يلعب دورا أساسيا في التمييز بين الأفراد داخل نفس المجتمع فالحضارة الأنغلوسكسونية أو الأوروبية تشمل العديد من الجنسيات وهنا أصبح للدين أهمية كبرى في تغذية الصراعات بين الحضارات، سيما وأنه بعد أساسي في تحديد الهوية عندما يكون الفرد في عالم آخر[16]. لقد تغيّر مفهوم المواطن ليعود إلى دلالة الفرد قبل أن ينشأ الحكم العلماني الذي بنى المواطنة والدولة والقانون. بدأنا نتحدث عن حضارات وهويات مركبة داخل حضارات مختلفة وقوانين هي بمثابة حدود ترسم لكل فرد طريقة سلوكه ومواطنة كونية، وهو مفهوم ملتبس لا يقال إلا لكي يتباهى به من أنتجه من الدول التي تزعم أنها صانعة الحداثة.

كل هذه العناصر المتشابكة عطلت في الحقيقة مسار الحداثة وكانت معاثر حقيقية وجدية، وصرنا نتحدث عما بعد الحداثة، وهي في الحقيقة ليست حقبة جديدة في التفكير لانها لا تتجاوز الحداثة إلا منطلقة منها في أكبر دلالاتها كالذات الانسانية والقانون والدولة والعقل وغيرها. الذاتية أصبحت تتحدد ضمن شبكة من العناصر وأصبحت بينذاتية. القانون مازال يمثل مرجعا عقلانيا لكنه أصبح يخصص أحيانا في حالات التعامل مع الأجانب ويصبح كونيا

لردع من يحيد عن الشرعية الدولية في ظل العولمة ورغم كل شيء لا نزال نؤمن بدولة القانون. أما العقل الذي أنتج العلم فتحول إلى عقل منتج للتكنولوجيا وآخر أطواره هي الذكاء الاصطناعي، وبالتالي لم يتم القطع مع الحداثة كعقلانية في الفترة التي تسمي نفسها ما بعد حديثة بل تم استئنافها بطرق أخرى. إن نشأة ما يسمى بما بعد الحداثة مرتهن بذلك التزامن بين الحداثة والعولمة، حيث استغلت قيم الحداثة لتكريس منطق العولمة. ربما ما خيب آمال الفلاسفة من الحداثة من قبل الما بعد حداثيين ليس الحداثة بل هو بالأحرى العولمة والليبيرالية التي غالت في التشيئة والحيف واختراق القوانين الدولية بشركاتها العابرة للقارات وهو أمر أرعب كل فلاسفة الفترة الحديثة إذ مات الإنسان ولم يعد للمواطنة أي قيمة واي دلالة في ظل فضاءات لا تعترف بالانسان، فكيف ستعترف بالمواطن؟ كما فقد لقانون معناه إذ لم يعد متعاليا بل أصبح مرتبطا بالمصالح الضيّقة لبعض الأطراف.

من هنا نستنتج اللاتكافؤ بين الفكر الحداثي والواقع الذي تزامن معه. ثمة خلل تاريخي حقيقي ففي حين ينادي الفلاسفة بالسعادة والرفاهية والحرية للجميع والالتزام بالقوانين مثل ديكارت وكانط، كرّس الواقع الليبيرالي انزياحا وانزلاقا نحو احتكار للعقلانية ولوعود الحداثة الكونية كحق الشغل حق الحياة حق الحرية وهي حقوق إنسانية لا يجب أن تقتصر على الأقوياء أو في فئة معينة دون أخرى، وفي حين اعتقدنا اننا بنينا الدولة العقلانية التي تحتكم للقانون وتدبر شأن الحرية بالاعتماد على العقل، وجدنا أنفسنا في دول تعتمد الدين والروحاني كمكوّن أساسي للهوية لتواجه به المنطق الاستعماري الجديد، كما وجدنا دولا تتحدث عن الديمقراطية والاختلاف والاعتراف أكثر مما تتحدث عن القانون وصرامته.

فهل خرجنا إذا عن مسار الحداثة، وعدنا إلى عصور ما قبل الحداثة على المستوى السياسي والأخلاقي منذ الحداثة نفسها أم أننا قفزنا إلى خارج الحداثة إلى مستقبل حداثي متطور؟

للإجابة على هذا السؤال، يكفي أن نشير إلى أنّنا ما زلنا في الأزمنة الحديثة وثمة نقطة عدم العودة إلى الوراء رغم الخيبات التي رآها بعض الفلاسفة مثل حنا أرنت وفاتيمو وليوتار وغيرهم ممن سموا أنفسهم ما بعد حداثيين حيث تحدثوا عن نهاية الحداثة أو أزمة الإنسان الحديث أو غير ذلك، لكننا لن نتراجع عن فهم أنفسنا والعالم والمجتمع فنعوّل على الطريقة غير العقلانية أعني أن لا نتبع القوانين، ونحن ما زلنا نؤمن بإمكانية إرجاع الكونية وجعل الإنسان يستفيد من وعود الحداثة أينما كان، ومازلنا نعتقد في إنقاذ الأسس الحداثية كالحرية الإنسانية ومسؤولية الإنسان تجاه نفسه والآخرين وتجاه العالم في أفق هذه التجاوزات من فرط استعمال العقل كالمشاكل الأيكولوجية، وما تتطلبه من إعادة بناء لمفهوم المسؤولية الإيتيقة وغيرها. كذلك ما زلنا نؤمن بالعلم والاستشراف والتحكم في الحياة وفي العالم عن بعد. إنّ استئناف الحداثة يعني العودة إلى هذه الأسس والأعمدة وإعادة إحيائها بعد أن تعطلت أو تعثرت: الإنسان العقل الحرية والقانون وإعادة صياغتها من جديد بشكل يستجيب لما بنته الحداثة من دلالات إيجابية

بناءة واعدة وإن شئنا نقول إن استئناف الحداثة يكون بالرجوع إلى نواياها أو مثلها التي بناها الفلاسفة سيّما على المستوى المعرفي والعملي.

III- الفلاسفة المعاصرون واستئناف الحداثة

في الحقيقة تعني عبارة الاستئناف الانطلاق من جديد أي من نقطة التعطل أو التعثر أي عدم العودة إلى الوراء وقد كان ذلك لدى العديد من المفكرين. وسأتناول مثالين فقط هابرماس وفوكو اللذان كانت لهما منطلقات مشتركة كانطية وماركسية وتصوّرات متباينة.

هابرماس واستئناف الحداثة

بيّن هابرماس في حركة العودة إلى مفهوم القانون الأخلاقي العقلي الكانطي أنّ المعايير الأخلاقية قائمة على الصدق والنزاهة والاستقلالية وهي معايير تلزم الناس بضرورة أن يتواصلوا ويتناقشوا وحتّى أن يتفاهموا وهي ما ستجعلهم قادرين على انجاز معايير ملموسة في صلب النقاش العملي الفعلي. فلا يتعلق الأمر هنا بمضمون معياري ايتيقي لانه مضمون خارجي تم زرعه في فعل التواصل، بل يتعلّق الأمر بشروط لازمة لا يمكن التغاضي عنها، وهي ما يمثل أسس عملية للإنجازات المعيارية القيمية. هكذا يتم اعتبار الأخلاق كشروط صورية للإيتيقا نفسها. فلكي يستطيع الأفراد أن يتناقشوا ويتحاوروا ويتفاهموا، عليهم أولا أن يكونوا نزهاء صادقين يمتلكون نية أنّهم سيكوّنون معا معايير واحدة تكون كونية وتصلح في كل حالة، وتضم مصالح جميع الأطراف المتحاورين. وإذا غابت معايير الصدق والنزاهة ونية التواصل الحقيقي فلن تكون هنالك معايير إيتيقية كونية.[17] وفي حين يرى البعض أن هذه المعقولية الإيتيقية غير ممكنة في الواقع يبين هابرماس أنّ إيتيقا النقاش تتطلّب اطارا تتحقق فيه وهي تطرح سؤال ما إذا كنا نعرف كيف يمكننا تصور تحقيق هذه المعايير الإيتيقية.[18] ذلك أنّ معايير النزاهة والصدق و"الإرادة الطيبة" وحدها غير كافية لتفضي بنا إلى إيتيقا نقاش ناجعة وناجزة. هابرماس يبين أنه لا بدّ من معاضدة المعقولية الحقوقية لتجعلها المعقولية الإيتيقية قابلة للتنفيذ، لذلك من الضروري أن يوجد تصور حقوقي وضعي، يجعل من المعقولية الايتيقية مشروعة وقابلة للتحقق. وهو أمر يمكن أن نجده في التشريع الفلسفي الكلي الكانطي. هكذا يتحوّل الالزام الإخلاقي والإيتيقي إلى إلزام قانوني بما أنه يفضي إلى معايير يتفق حولها الجميع وهذا الإجماع هو الذي سينقله من معيارية الأخلاق إلى إلزامية القانون "أن تُستكمل الأخلاق بقانون ملزم تلك حقيقة تبرّر بدورها أخلاقيا"[19].

يقترح هابرماس تصورا عقلانيا جديدا للأخلاق والسياسة الكانطية الكونية في عالم توسّعت فيه الهوة بين الأفراد وبين المجتمعات. أما فوكو فهو يبني تصوّرا آخر للحداثة ولكيفية استئنافها يرتكز أكثر على مفهوم الحرية منه على مفهوم العقل الإيتيقي.

فوكو والحداثة

استأنف فوكو الحداثة بشكل آخر أعني مطبقا منهج النقد على الفكر الحداثي نفسه فلقد تأثر بالحداثة كمشروع نقدي كما تأثر بها كمشروع تحرّري لكنه لا يعتقد فيها اعتقادا صنميا ولا ينظر إليها نظرة ناقم غاضب مثل فاتيمو الذي أعلن نهايتها أو حنا آرنت التي

بينت أن وضع الانسان الحديث هو وضع رث يحتاج إلى المراجعة لأنّه أولى اعتبارا كبيرا للبعد البيولوجي من خلال الترفيع في قيمة العمل والدفاع عن الحاجيات وتجاهل البعد الرمزي/ الفني للإنسان الذي هو حياته الحقيقية.

ميشال فوكو استعاد الحداثة من خلال إعادة قراءته للفكر الكانطي فتبنّى النقد منهجا والتحرر غاية، لكنّه مارس النقد لا على العقل الميتافيزيقي فقد انشغل بذلك كانط عندما بيّن قدرات وحدود العقل، بل مارس النقد كتأويل تاريخي/ جينيالوجي/ أركيولوجي أتى على كلّ ممارسات السلطة وتحوّلاتها التي ظهرت مع ظهور العقلانية، كما بيّن أنّ الحرية يجب أن تصرّف فعليا كممارسات تتحقّق من خلالها الذات نفسها في كلّ فعل تأتيه، وهذا التحرّر ليس سياسيا بقدر ما هو إيتيقي وجمالي.

بيّن أنّه ثمّة لا توازن أو لا تكافؤ بين فكر الحداثة والواقع الحديث تواصل إلى اليوم في ما يسميه فوكو بالبيوسياسة أو السياسة الحيوية. فما يبدو ثوريا تقدّميا في الحداثة ليس متحقّقا في الواقع بل توجد ممارسات تكرّس الاستعباد والهيمنة. ففوكو يبيّن أنّ العقلانية العلمية لا يجب أن ننظر إليها بكلّ تلك الدوغمائية، بل علينا أن نتفطّن أيضا إلى بعدها الأداتي الذي اندسّت من خلاله السلطة وطوّرت نفسها.

لا تنبني تحاليل فوكو على فكرة أن "الحداثة مشروع لم يكتمل" يجب استئنافها كما ذهب إلى ذلك هابرماس، بل إنّ هذه التحاليل تبيّن أنّ الحداثة منذ البداية كانت تكريسا لمعاني جديدة للسلطة والتحكّم في الذات الإنسانية، ولذلك ففوكو يدافع عن صميم المشروع الحداثي التحرّري معرّيا ما يمكن أن تؤول إليه حدوده وانقلاباته العكسية.

إنّ الحداثة، لدى فوكو، قد انبنت إذن على مفارقة الحرية والهيمنة، فهي قد حررّت الإنسان من الظلمات فكرا وممارسةً، وحرّرته من الطبيعة بمعرفة قوانينها لكنّها أرست ضربا جديدا من الإستعباد هو استعباد الانسان للإنسان بواسطة العلم والتكنولوجيا. إنّ الحداثة التي أنتجت الحرّيات أنتجت مفارقيا السجن.

وأكثر من ذلك ففوكو عندما يفحص الجذور الحداثية للحقبة المعاصرة هو يعود أكثر إلى النص الكانطي، ليبين كيف انقلب المشروع النقدي المعرفي الكانطي إلى وضعية دوغمائية لا تؤمن بغير العلم معرفة، وكيف انقلب المشروع التحرري إلى مشروع عكسي، وانقلبت فكرة الكسموسياسة إلى ضرب من السياسة العالمية التي تكون بيد قوة عظمى أو مجموعة من القوى تمارسها للسيطرة على الإنسانية جمعاء. وكأنّ فوكو يقول لنا ليست الحداثة صنما بل هي نبتة علينا الاعتناء بها، وتنميتها إنها بذور زرعت وعلينا تطويرها.

خاتمة

لكي نختم، يمكننا القول إنّ الحقبة الراهنة، هي حقبة" غربية " بامتياز سواء من حيث تأسيس الحداثة أو نقدها واستعادتها واستئنافها. أما الحضارة العربية، فهي، وإن كانت قد ساهمت في بناء الحداثة بشكل غير بارز، إذ نعلم كيف نقلت العلوم العربية والفكر الفلسفي إلى اللاتينيين، فهي لم تكن حاضرة حضورا بارزا في الفترة الأخيرة. أعني من عصر النهضة إلى حد القرن التاسع عشر

تقريبا. وربما كان أيضا حضور العرب هو حضور بالغياب لأنّهم اكتفوا باستيراد مفاهيم العقلانية والحق والحرية والإنسان والقانون، وحاولوا أن يجدوا لها موقعا في الفضاء العربي الإسلامي. والحق يقال، أنّ الحداثة مسار يجب أن نمر به بشكل ذاتي.

وهو ما بدأه الفارابي وابن رشد وابن سينا وحتى الغزالي عندما فكّروا في وضع الفلسفة وسط النص الديني وقد استعملوا الحجج العقلية والبراهين والاستدلالات المنطقية وفلحوا في ذلك فلاحا كبيرا، ففصلوا بين ما هو ميتافيزيقي ما وراء العرش وما هو فيزيائي طبيعي يمكن للعقل أن يدركه وهو ما فعله ابن خلدون، وبذلك فصلوا مجال المعرفة عن مجال العقيدة. ولن نبالغ، إذا اعتبرنا مشروع نقد العقل الخالص يجد جذوره لدى ابن خلدون، كما لا نبالغ أن نعتبر مفهوم المحايثة السبينوزي يجد جذوره في توجه ابن رشد لمفهوم الوجود كصناعة تدلّ على الله كما تدلّ البعرة على البعير، وأن الله ليس خارج العالم، بل هو حجة على وجوده فدليل العناية يثبت أن الله في العالم وليس غريبا عنه.

هذا، زيادة على أنّ العرب قد أضافوا إلى الفكر اليوناني العديد من المباحث الفكرية المهمة كالتأويل والموسيقى والبصريات والخوارزميات والطب وطب النفس. ومن هنا فإنّ الحداثة العربية لا تكون إلا بنهضة عربية حقيقية تنطلق من الجذور لتستمر فلا يكتفي العرب باستيراد ما بدأه الآخرون، بل عليهم، أن يطوّروه كما فعلوا مع اليونان وكما فعل اللاتينيون مع الفكر العربي الوسيط. وهنا وجب أن نتحرّى ونميز بين أن نكون حداثيين أو تحديثيين نتأقلم مع الحداثة !!

في الحقيقة لا توجد نهضة تخص حضارة بعينها و¬¬خالصة، كل الحضارات تتحاور بشكل مباشر أو غير مباشر لكن البعض منها يبرز في حقبة معينة فيصبح مهيمنا أكثر ويفرض نموذج تفكيره وما على الحضارات الأخرى إلاّ أن تأخذ على عاتقها الاعتناء بتاريخها ومسارها لتنهض بشكل مستمر.

فكيف سنبني نهضتنا؟ هل يمكن تأسيس نهضة أو حداثة عربية خالصة في عصر هيمنة النموذج الوضعي في العلم والأخلاق والسياسة؟ هل هويتنا تقترن بالدين؟ أم بالشعر؟ وما عسانا فاعلون بهذين الضربين من الانتماء الروحي في عالم يتطور يوميا ويكتشف المزيد والمزيد من الولوج في عالم الأشياء؟

الهوامش:

1- Hannah Arendt. Les origines du totalitarisme.t 2, traduit de l›anglais par Martine leiris. Fayard Paris,1982, p, 271
2- Baudrillard : « la Modernité » in Encyclopaedia Universalis https://www.docsity.com › 2005, p,1
3 - ديريدا: حوار مع هاشم صالح ، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد -54 55، أوت 1988، ص 91
4- Paul Ricoeur, La mémoire, l'histoire, L'oubli, copie pdf, https://www.academia.edu : « Il y a ainsi concurrence entre deux emplois du terme « modernité », selon qu'il désigne le phénomène itératif qu'une histoire des représentations parcourt ou l'auto-compréhension de notre différence , à nous, tels et tels, sous l'empire du déictique « nous » qui se détache désormais du descriptif « eux », p,409
5- René Descartes , La recherche de la vérité par la lumière naturelle Data BNF. https://data.bnf.fr › rene_ descartes_la_recherche. par la lumière naturelle» de. René Descartes. Milan : F. Angeli , cop. 2002. L Joseph Beaude écrit dans sa présentation de ce livre sur la recherche de la vérité par la lumière naturelle que : « Descartes avait porté en Suède, sous le titre de La Recherche de la vérité par la lumière naturelle, qui toute pure, et sans emprunter le secours de la religion et de la philosophie, détermine « les opinions que doit avoir un honnête homme sur toutes les choses qui peuvent occuper sa pensée
6- Foucault, Michel. « Qu'est-ce que les Lumières ? » in Dits et Ecrits, tome IV, Gallimard, Paris 1994, 562-578
7- Ibid., p, 683
8- Foucault, Michel. .« Wath's Enligthenment ? » cité in Rabinow (P) éd the Foucault Reader, New York, Panthéon books,1984, pp 32-50, in Dits et Ecrits, tome IV, 1984, p, 568. éd Gallimard, Paris1994 Frédéric Guillaud, « La modernité :crise d›adolescence de l›humanité ? », Le Philosophoire, no 25,
9- février 2005, p. 77-88
10- Kant, Les fondements de la métaphysique des mœurs, édition Delagrave, Paris, 1982. p, 122
11- Kant, Qu›est-ce que les Lumières ? Édition Garnier Flammarion, Paris, 1991pp. 42. Traduction Hsine Harb, Revue la pensée arabe N° 48 Octobre1987, p, 80
12- Touraine (Alain) , « Critique de la modernité », p, 14 in PDF Touraine-critique -de -la - Modernité http//ekladata.com. 30/11/2014
13- .Ibid., p,13
14 - جان بودريار، «السلطة الجهنمية»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 1348 / 135، خريف 2006، ص 43.
15- Edgar Morin, L'humanité de l'humanité, éd le Seuil, Paris ,2001, p, 71-
16- Luc Terlinden, « Charles taylor aux sources de l›identité », Éditions du Cerf, « Revue d›éthique et de .théologie morale » 2012/HS n°271, pages111-119. p 113
17- Habermas, la morale et la communication , édition Flammarion, 1999, p, 97
18- Habermas, De l Ethique de la discussion, édition Flammarion, 2013. p, 28
19- Ibid., p, 4

في التنوير وأزمة التنويريين العرب

حسين سميسم

قدّم لنا موقع حوار التنوير محاضرة ألقاها الأستاذ أحمد الديين من الكويت في 31/ 5 / 2023، وكانت من المحاضرات المتميزة التي ألقت الضوء على معوقات التنويريين العرب، وأشار بشكل خاص الى حالات التنوير في منطقة الخليج العربي وتوصل الى استنتاجات كانت غير واضحة في الثقافة والإعلام العربي.

كانت المحاضرة واسعة شملت نقاطا عديدة وهي أشبه بكتاب مختصر لم يسع وقت المحاضرة في تناول محاورها بالتفصيل، ولابد للأستاذ أحمد الديين من شرح تلك المحاور وتبويبها واخراجها على شكل كتاب لما في محتواها من ريادة وعمق. وسأتناول بابا واحدا نظرا لتعذر تغطيتها في مقالة واحدة.

عوائق التنوير العامة

إن الأمر المؤسف الذي واجه حاضرنا هو الفوات التاريخي الذي حاق ببلداننا جراء عدم تلمس الطرق الصحيحة للدخول إلى العوالم الحديثة، فقد أصرت بعض الأحزاب على سلوك طرق بالية لاجتياز عقبة التخلف، وقالوا أن سبب تخلفنا هو ابتعادنا عن الدين، وقد غضوا أبصارهم عن فشل الفقهاء في إنجاز خطة واحدة تساعد المسلمين في الذهاب إلى المستقبل، حيث فشلت الدولة العثمانية في تحقيق النهضة، ونجحت التجربة الأوروبية التي سلكت طريقا معاكسا في تحقيق النهضة ونشرها في الشرق والغرب، وقد لاحظ عدد من المثقفين ورجال الدين المسلمين هذه المشكلة، فحاول بعضهم منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين المساهمة في إحداث نقلة نوعية، هدفها وضع الدول المسلمة على أرضية الحداثة، عن طريق إحداث ثورة فكرية عامة، لتوفير الحاضنة الطبيعية لنقل الفكر والثقافة والصناعة والاقتصاد الحديث إلى البلدان الإسلامية، لكن النجاح لم يحالفهم، وظلت المنطقة تدور داخل زمن القرون الوسطى، ولم يطرأ عليها إصلاح يناسب الفترة التي تقدمت بها أوروبا.

لقد بدأ التغيير العام في القارة الأوروبية يقتفي أثر التغيير الاقتصادي الذي طرأ على القارة، وبدأت المدن بالتوسع والاعمار يتنامى، وظهرت المهن والحرف الجديدة،

وأصبحت المدن تنافس الإمارات الإقطاعية، وتصاعد الصراع بين الطبقة التجارية الوليدة والطبقة الإقطاعية التي تسندها الكنيسة، وكان فريدريك الثاني (1194 - 1250 م) يميل إلى الطبقة التجارية الناشئة، فنصحه معاونوه باعتماد موازن فكري للفكر الكنسي الواقف في الضفة الأخرى، وذلك بترجمة كتب ابن رشد لغرض خلق قاعدة فكرية عقلانية موازية وموازنة للكنيسة، وأدى ذلك إلى خلق تيار رشدي لاتيني مؤثر، ساهم بالتالي في الوقوف ضد تأثير الكنيسة، وأعطى ذلك دفعة قوية للتفكير العقلاني ومحاربة الخرافة، وتوصل جمال الدين الأفغاني بعد ملاحظته الواقع الأوروبي إلى أن النهضة كانت قد بدأت بالثورة الدينية التي قادها مارتن لوثر، الذي انحاز إلى التفكير العقلاني واستعمل نفس منهجية ابن رشد القاضية بأسبقية الحرية لفهم النصوص الدينية، وأدت هذه الطريقة إلى استنباط لوثر بنود إصلاحاته التي علقها على باب كنيسة فيتنبرغ، وهي التي هزت سيطرة الكنيسة، وأتاحت فسحة من الحرية والشك بسياستها وفكرها، ما سمح للفلسفة والعلوم أن تأخذ دورها في تغيير الواقع الأوربي، ثم توسعت الثورة العلمية والاجتماعية والحقوقية التي أوصلت أوروبا إلى الحداثة .

كان الأفغاني ومحمد عبدة قد رصدا تأثير حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر (1483-1543) الذي عرض إصلاحاته عام 1517م، وحلم جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده بقيامهم بنفس الدور الذي قام به لوثر، وقال الأفغاني في كتابه (الرد على الدهريين) بأن مارتن لوثر قلد في ثورته المسلمين وسمى مذهبه مذهب الإصلاح.

لم يتحقق هذا الحلم لأسباب عديدة منها محدودية الفكر الذي انطلقا منه، وتردد ذهنيتهما في إجتياز القصور الفكري، وعدم قدرتهما على مراجعة الفكر الديني أسوة بما فعله مارتن لوثر في الديانة المسيحية، إضافة للتخلف العام، وحالة الوعي المتردية في ظل الدولة العثمانية؛ ففي الفترة التي ظهر بها مارتن لوثر كانت جحافل العثمانيين تتقدم نحو أوروبا، وتحقق الانتصار تلو الآخر دون أن تتأثر بتلك الثورة الدينية ولا العلمية التي أعقبتها، وبالنتيجة لم تصل شرارتها إلى المنطقة الإسلامية.

ليس هذا هو السبب الوحيد الذي منع الدول والشعوب الإسلامية من تقبل المنتج الفكري الغربي ووصول حركة الأنوار إلى العمق الإسلامي، فقد وصلت أولى شرارات الأنوار الأوروبية مع وصول نابليون بونابرت إلى مصر، وهي الفترة التي شهدت فيها أوروبا تراجعا عن حركة التنوير التي توجتها الثورة الفرنسية، وعاد الاستبداد والملكية على نطاق واسع، حيث عادت الملكية وانتشر الاستبداد، وأدى هذا الوضع في النهاية إلى الحربين العالميتين. كما لعب الاستعمار دورا في تأخير الوعي اللازم للانتقال إلى الحداثة، وحدث العكس، حيث تقدم رجال الدين الصفوف الأولى لمقاومة المستعمر، وبالتالي مقاومة الجهة التي أتى منها التنوير والحداثة.

عوامل أخرى أدت إلى تأخر انطلاقة التنوير

ساهمت أوروبا في تأخر انتشار الفكر التنويري في المنطقة العربية والإسلامية، فقد سيطرت بريطانيا على الهند فعليا منذ عام

1760م و ثار ضدها الشعب الهندي بكافة أديانه عام 1857م، واحتلت فرنسا الجزائر عام 1830م، وثار ضدها الشعب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر (1807 - 1883) عام 1832م، ونفته فرنسا عام 1847م، وتقدم رجال الدين لمقاومة الاستعمار البريطاني للعراق عام 1915، وبعده بقليل حدثت ثورة العشرين بقيادة رجال الدين عام 1920.

لقد حل الاستعمار في البلدان الإسلامية بالقوة، وفهمته شعوب المنطقة فهمها للحروب الصليبية قبل حوالي ستة قرون، وهي حروب دينية استفزت العاطفة الدينية وأوقفت حركة الإصلاح الديني، كما لعبت الدولة الصهيونية دورا كبيرا في تأخير حالة الوعي العامة وأبقت الثقافة ضمن الدائرة الدينية، وأثر دخول دول النفط في هذا المجال في إمالة الكفة لصالح تشويه وتأخير حركة الإصلاح، وكان عدد الأشخاص الذين زاروا الغرب في مطلع القرن التاسع عشر وحاولوا عكس حجم التغيرات فيه وأسبابها قليلا، وكان تأثيرهم بسبب تلك الظروف أقل، ومازالت الشكوك منتشرة بين الأوساط الدينية والشعبية حول المنجز الفكري الأوربي وهي تعتمل في النفوس .

لقد حاول محمد عبدة من خلال موقعه الديني المهم، ومن خلال اطلاعه على الثقافة الغربية من تحديد الأصول التي يمكن بها تخليص الإسلام من عوامل قصوره الذاتية للانتقال إلى النهضة، وقد لخصها بالنقاط الاتية:

العقل الذي يجب أن يقدم على النقل في حالة التعارض، والبعد عن التكفير، و الاعتبار بسنن الله في الخلق، ولا وجود للسلطة في الإسلام، واقتصار القتال على الدفاعي فقط، ولا إكراه في الدين، ومَوّدَة المخالفين في العقيدة، وهي أصول مكثفة توفر الأساس الفكري للنقلة الحضارية .

لكن الشعوب العربية والإسلامية واجهت ظروفا جديدة عزلتها عن عوامل التغيير التي اجتازت بها أوروبا تخلفها للبدء بثورة الإصلاح الديني ثم الثورة العلمية والحقوقية، ففي الربع الأول من القرن العشرين بدأ الصراع في القارة الأوروبية يأخذ منحى آخر بعيدا عن هذه الموضوعة، وهو الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية، وأصبحت الدراسات الفكرية تدور حول هذا الصراع، وانسحبت خلفه الصحافة والاهتمامات الثقافية، ولم تسنح الفرصة ولا الظرف في قيام المواجهة بين الثقافة الحديثة وواقع الثقافة الدينية القديمة في المنطقة العربية والقسم الأعظم من الدول الإسلامية، فقد انتهت معركة الصراع الديني - الديني، وفترة الصراع السياسي - الديني في أوروبا قبل أكثر من ثلاثة قرون، وواجهتهم بعدها مهمات أخرى، حيث تجاوزوا تلك المرحلة بعد أن أنجزوا كافة مهماتها، ولم تنجز شعوبنا هذه المهمة، ووجدت منطقتنا نفسها بين منتجات حديثة وفكر قديم لم يتعرض للمناقشة، وواجه الفكر الاشتراكي الذي انتشر في الربع الثاني من القرن العشرين الفكر الإقطاعي المتحالف مع المرجعيات الدينية، وحمل المثقف في هذه المواجهة الراية، في الوقت الذي واجه الإقطاع الأوروبي طبقة تجارية وبرجوازية ساهمت في النهضة الصناعية وامتلكت إمكانيات مالية وعسكرية استطاعت بها من مواجهة الإقطاع ورجال الكنيسة، وانشغل المثقفون بهذا الصراع،

ولم تسمح لهم الفرصة في الإطلاع على الثقافة الدينية الشائعة ولا الفقه ولا الشريعة، حيث عاجلتهم الانقلابات العسكرية التي حمل لواءها القوميون الذين وقفوا في ما بعد مع المرجعيات الدينية وفرغوا الساحة من الثقافة، كما لم يعرف رجال الدين العلوم الحديثة، ولم يتأثروا بحركة التطور والتقدم التي عمت العالم، ولم تحدث من داخل النظام الديني ثورة إصلاح فكرية، وبرزت خلال تلك الفترة مهمة معرفة المثقف للحقل الذي ينشط فيه، ومعرفة الاعشاب الضارة والمناطق الملغومة لكي يحقق نمو وتكاثر مزروعاته، وعدم الخلط بين الصالح والطالح في مسيرته التوعوية.

موقف المثقف من أنواع التدين المختلفة

لا بد للمثقف من التفريق بين أنواع التدين المختلفة، بين التدين الشعبي، والتدين الفقهي والتدين السياسي، لكي لا يوجه سلاحه الوجهة الخاطئة، حيث ينتمي الأول إلى فترة التنزيل الشفوية الأولى، وإلى استمرارية الثقافة المحلية والأعراف في رفده بالجديد والمختلف، حيث كان الفرد مازال محتفظا بثقافته و أعرافه، ويمتلك حرية نسبية تبيح له النقاش والسؤال والشك وإعادة تكوين الفكرة والاختلاف عن الآخر، وهو يحمل مفهوما عن الطاعة مقتصرا على طاعة الله، ويعتمد على قاعدة الإيمان الرباني الفردي، وهي القاعدة الحاسمة التي تعزل نمط هذا التدين عن التدين القانوني (الفقهي والسياسي)، الذي يُخضِعْ الطقوس إلى مدونة قانونية مذهبية، والتدين الشعبي يكتفي بالعلاقة الروحية العمودية بأقل الطقوس العبادية التي تخلق له رضى وقناعة روحية بحرية وبسعة التواصل مع الغيب، ويشعر بإشباع روحي ونفسي بهذه الممارسة العبادية والعلاقة الإيمانية مع المطلق. وهو يخلو من قاعدة نظرية أو ايدلوجية تقف بوجه التقدم، ولم يتعلم المتدين الشعبي العبادات من الفقيه ولا من السياسي المتدين بل من بيته ومن اقرب الناس اليه.

ينتمي التدين الفقهي إلى فترة التدوين حيث كتب فقهاء المذاهب الشريعة تحت أنظار الحكومات المتعاقبة التي حولت الشريعة إلى قانونٍ للحكم، وحولت فقهاء الدين إلى قضاة، وحولت الشريعة إلى مذهبٍ تصبح به قاعدة أساسية تحكم به الدين، وتَضيّقت بهذا الشكل الديني فسحة الحرية واتسعت رقعة التكليفات الشرعية، وأصبح المسلم محكوما دينيا بالحاكم الذي سعى إلى الفوز بالإيمان والقداسة وأصبح أميرا للمؤمنين، وحول الطقوس إلى فعل جماعي يقف على رأسه وحول مفهوم الطاعة من الطاعة المقتصرة على الله إلى طاعة الحاكم أولا، ثم نَشرَ قيم التقليد الديني للحاكم أو من يمثله وتزايدت الأحكام الدنيوية المباشرة في هذا التدين على حساب الجزاء المؤجل إلى الآخرة.

لقد حدد فقهاء المذاهب هذا الشكل التديني المحدود الواقع بين حد الحرام والحلال، وقللوا من فسحة العقل، واعتمدوا على التلقين ضمن حدود المذهب وعلى تلاوة النصوص وحفظها وترديدها ووقف الاجتهاد، واقتصار الفهم على قدماء المفسرين، واقتصر سقف هذا التدين على الفقه وابتعد تدريجيا عن بحوث العقيدة والإلهيات، وخَلقَ ظاهرة الكفر الديني والعقوبات الدنيوية العديدة.

ولا ينتمي التدين السياسي إلى المنظومة الإيمانية، ولا إلى المنظومة التشريعية بل

ينتمي إلى قاعدة سياسية عمادها المصلحة السياسية التي تستخدم الدين ضمن منظومة أيديولوجية، تحاول العبور به على المذهب، فهو يميل إلى تقديس التاريخ السياسي للخلافة الإسلامية، ويخلق مرجعية سياسية تمثل العصر الذهبي، هي مرجعية الخلافة الراشدة، ويعممها على نظام الخلافة في كل العصور وهو يعتبر أداءها السياسي هو القدوة والمثل الصالح الذي يجب الاقتداء به، ويعتبر الموقف السياسي أساسا لتعديل الموقف الديني، وهو لا يكتفي بالشهادتين في تحريم دم المسلم فيضيف لهما الموقف السياسي، فهو يكفر المسلم والكتابي واللاديني، ويضفي عليهم صفات جاهلية حديثة، ويجنح لا إلى القناعة الروحية بل إلى العنف والإرهاب والحلول القضائي مكان الله، ويميل هذا التدين إلى خلق شكل تنظيمي حديث مستورد من الغرب لكنه فارغ من القيم الحضارية، ويعتمد على الطاعة التامة والتقليد السياسي المنضبط، من خلال خلق شكل هرمي أو خيطي يعتمد على السريّة في النشاط والعمل، وعلى المال والإعلام ونسج شبكة واسعة من العلاقات السياسية المحلية والدولية، لا لنشر القيم الدينية بل لتوسيع القاعدة المادية للقفز إلى السلطة، وهو على استعداد للتنازل عن الشريعة أمام المصلحة السياسية، وتجده متلونا متغيرا لعوبا يجيد التخلي عن المبادئ وإخضاع الشريعة للمتطلبات السياسية، ويبتعد عن التأمل والبحوث الالهية والمنطق وعلم الكلام والفلسفة والثقافة العامة والفنون، ويميل إلى الاستخدام الايديولوجي النفعي للدين، فهو تدين قشري يسعى إلى اقتراح حضارة قشرية قوامها الاقتصاد الطفيلي، ويعتمد على الشكل أكثر من الجوهر، ويقتدي بأشد الوسائل التاريخية في التعامل مع الآخر المختلف، ويجعل من الجماعة حزبا معتمدا على التكتيك، ولا يبادر في التعريف والفصح عن أهدافه البعيدة، وعن شكل الدولة والنظام السياسي والموقف من السيادة والحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان والمرأة والاقتصاد والنظام التعليمي والقضائي، فهو لا يريد أن يبدأ معركة خلافية مع الإسلام والمسلمين .

كان ظهور الحركة السياسية الإسلامية ردة فعل على انتشار الحداثة بكل أنماطها الماركسية والقومية، وأدى انقسام الهند على أساس ديني، وقيام الدولة الصهيونية، وتراجع حركة التحرر السياسي والفكري وفشل الحركة القومية، وتصاعد القمع الثقافي، وفقدان الحرية، وتفريغ الساحة من الإصلاحيين إلى خواء المنطقة أمام الحركة الدينية، وأسهم نجاح الثورة الإيرانية عام 1979 م في تعزيز الحركة السياسية الدينية، وشعرت الحركة الاسلامية بامكانية انتصار نموذجها الثوري والسيطرة على الحكم والاستحواذ على الدولة. كما توفرت عوامل موضوعية أخرى منها فشل السياسة التعليمية والاقتصادية والحروب الفاشلة والبطالة والزخم المالي الذي وفرته الدول الخليجية والدعم الدولي، وعلى رأسه الدعم الأمريكي والبريطاني. كما توفرت عوامل ذاتية مهمة أدت إلى انتشارها وتمددها شعبيا منها:

قوة وكفاءة تنظيماتها، وشجاعة قيادتها، وقدرة اعلامها وانتشاره ووصوله من خلال الفضائيات إلى البيوت، وتواصلها اليومي مع الناس من خلال المساجد، وامكانية

خطبائها في إقتناص العبارات وتحريك المشاعر واستحضار الرموز الدينية والتاريخية، والتواصل مع لغة الجمهور اليومية المتداخلة مع العرف والتراث، لغة مزيجة من الصوفية والمثالية ونكران الذات، لغة مبنية على سلامة النحو والخطابة، حيث تتصاعد عاليا في روحية الخيال الجارف لتصنع واقعا حالما لكنه عاجز عن الولوج في المستقبل وبناء تصورات عنه .

بدايات صعبة

بدأ تداول مفهوم العلمانية في الشرق الأوسط والنقاش به بشكل واسع بعد نكبة حزيران 1967، حيث بدأ المشروع القومي يضعف ويعجز عن حل مشاكله ومشاكل المجتمع. وبدأ التيار الديني منذ ذلك الوقت يملأ الفراغ الذي تركه الفكر القومي، وبدأت بعض فصائله الاندماج مع المشروع الإسلامي، وقد وصل المصطلح إلى المنطقة ضعيفا تمت محاربته ونزع شوكته، فقد هاجمه جمال الدين الأفغاني في كتابه الرد على الدهريين قبل أن تتعرف عليه وتسمع به شعوب المنطقة، ودون وجود - أو بالأحرى - ضعف القاعدة الفكرية أو السياسية التي تتبناه، فانفردت به أحزاب الإسلام السياسي التي عرفت ما فعلته العلمانية في أوربا بالكنيسة، وتأهبت لهذا القادم الجديد وتجهزت بأسلحة تكفيرية تمنعه من الوصول إلى حدودها، وصنعت منه حسب مزاجها ايدولوجيا معادية وفكرا سياسيا لصقته ببعض الأحزاب القومية واليسارية، وحمّلته شتى التهم، و ربطته بفشل التجربة القومية وتخلف منطقتنا التي لم تلتزم بالدين كما يجب، وهي تدري سبب عداوتها للعلمانية الهادفة إلى تحييد الدولة في الشأن الديني والأيديولوجي، وفصل السياسة عن المؤسسة الدينية، وفصل القانون عن الفتوى، وبالتالي تَتقاطع مسيرتها مع أهداف أحزاب الإسلام السياسي التي تريد السيطرة على السلطة باسم الإسلام .

لقد نجحت تلك الأحزاب في تشويه فكرة العلمانية دون أن يدافع عنها أحد، فقد عرفها محمد عمارة (بأنها المقابل لما هو ديني) أو أنها مؤامرة غربية، وهي نتاج يهودي، وهي جزء من التخريب الاستعماري، وأن هدفها فصل الدين عن شتى نواحي الحياة والمجتمع، وهي القنبلة التي سيفجرها الغرب الصليبي في عقول المسلمين، وتمكنت الأحزاب الإسلامية من اشاعة مفهوم كفر العلمانية بين الاوساط الشعبية، حتى إن مفكرا من وزن محمد عابد الجابري اعتبر العلمانية من صناعة الفكر المسيحي العربي، ويجب إبعادها من قاموس الفكر العربي وتعويضها بشعاري الديمقراطية والعقلانية، وقال إن معنى العلمانية هو فصل الكنيسة عن الدولة، والإسلام ليس فيه كنيسة كي نفصله عن الدولة، وعندما انتبه العلمانيون مؤخرا إلى هذه الحقيقة وجدوا أمامهم ارثا تكفيريا كبيرا ومقاومة عنيفة في بلدانهم، إن أبعاد العلمانية والدين عن الصراعات السياسية وتحييدهما يخدم السياسة والدين والمجتمع ويوفر على الناس صراعات لا فائدة منها .

انجلز، سيرة مفكر

د. مجيد إبراهيم خليل

عند الحديث عن الماركسية غالبا ما يقترن اسم كارل ماركس باسم فردريك إنجلز. وكثيرة هي الكتب التي تتناول ماركس المفكر بالدراسة، وقليلة هي الكتب التي تتناول إنجلز بصفته واحدا من المفكرين. في سلسلة "مقدمة قصيرة جدا" صدر كتاب بعنوان "إنجلز" لمؤلفه "تيريل كارفر" أستاذ النظرية السياسية في جامعة بريستول وجامعة ليفربول، وهو أمريكي من مواليد 1946. ومن مؤلفاته "نظرية ماركس الاجتماعية" و"ماركس وإنجلز: العلاقة الفكرية" و"ماركس ما بعد الحداثة".

عرض المؤلف في مقدمة الكتاب أنه حاول تقديم دراسة دقيقة وموجزة عن أفكار إنجلز، وأن هدفه هو إثارة اهتمام القارئ بأفكار إنجلز وتأثيراتها على العلوم السياسية والاجتماعية المعاصرة. ويعرب المؤلف في المقدمة عن امتنانه لجامعة ليفربول لمنحها إجازة له كي يتمكن من تأليف هذا الكتاب. وقد صدرت الترجمة العربية عن مؤسسة هنداوي عام 2015 في لندن، ترجمة صفية مختار، ومراجعة مصطفى محمد فؤاد. ويقع الكتاب في اثنتين ومائة صفحة، من القطع الصغير.

تضمن الكتاب مقدمة وسبعة فصول عرضت بشكل شائق وموجز مختلف جوانب شخصية إنجلز التي توزعت فصولها في العناوين الآتية: إنجلز وماركس، إنجلز الصحفي،

إنجلز الشيوعي، إنجلز الثوري، إنجلز الماركسي، إنجلز العالِم، إنجلز والماركسية.

إنجلز وماركس

تحت هذا العنوان يسلط المؤلف الضوء على العلاقة بين ماركس وإنجلز باعتبار أن إنجلز شريك في أحد الإسهامات الفكرية الأكثر شهرة على مر التاريخ. ويرى الكاتب أن إنجلز كان الأكثر تأثيرا من الناحية السياسية مقارنة بشريكه ماركس، ويأتي هذا التأثير من خلال شرحه لأفكار ماركس. ولأنجلز أفكار خاصة به، وماركس اعترف أنه قد تأثر بها، وتوجد بطبيعة الحال الأعمال الشهيرة التي كتبها إنجلز بالاشتراك مع ماركس. ويطرح المؤلف بعض التساؤلات: إلى أي مدى كان إنجلز يدعم عمل ماركس في النواحي التي كلفه بها، وهل يمكن قراءة أعمال إنجلز المستقلة كما لو كانت مكتوبة بالاشتراك مع

ماركس، وهل ماركس وإنجلز يتحدثان دائما بصوت واحد حتى عندما يكتب كل منهما بشكل مستقل عن الآخر (ص 11) .

يوضح المؤلف أن لإنجلز تأثيرا هائلا من خلال شخصه وكتاباته على تطور الماركسية، لا سيما في الأعمال التي انتشرت على نطاق واسع بعد وفاة ماركس، وفي كثير من الحالات كانت تلك الأعمال مصممة لتكون شروحا لأعمال ماركس أو لأعمال اشترك كلاهما في تأليفها. وقد تناول كُتّاب السيرة الذاتية حياة إنجلز، وما ينقص تلك الأعمال التي تناولت حياة إنجلز هو معالجتها لحياته الفكرية التي لا يسيطر عليها دائما شبح ماركس (ص 12).

مع ملاحظة ما قاله لينين في مقالة له عن فردريك إنجلس "وحتى عام 1870 عاشا، إنجلز في منشستر، وماركس في لندن، ولكن هذا لم يمنعهما من أن تكون وحدة أفكارهما وثيقة أشد الوثوق، فكانا يتراسلان في كل يوم تقريبا"[1] ويواصل لينين القول إن الاشتراكي الديمقراطي النمساوي آدلر لاحظ "إن إنجلس بإصداره المجلدين الثاني والثالث من "رأس المال" قد نصب لصديقه العبقري أثرا جليلا كتب عليه، ودونما قصد بأحرف لا تمحى، اسمه الخاص إلى جانب ماركس"[2].

إنجلز الصحفي

يتناول "كارفر" جانبا غير معروف كثيرا من شخصية إنجلز وهو: الصحفي، يوضح فيه تطوره الفكري والسياسي، ففي سن السابعة عشرة نشر إنجلز بعض الأعمال الشعرية، وفي سن الثامنة عشرة كان صحفيا تتسم مقالاته بالنقد اللاذع. وكل ما كتبه كان مبنيا على بيانات مثبتة شاهدها أو سمعها. وقد استخدم انجلز عينيه وأذنيه استخداما ناجحا وفعّالا وكان تصويره للظروف المادية والاجتماعية لمجتمعه حينذاك تصويرا دقيقا (ص 13). وعلى مدى السنوات 1839- 1842 أثبت إنجلز نفسه ناقدا سياسيا وأدبيا بما يقرب من خمسين مقالة وكتيبا. وكان لإنجلز اهتمامات أخرى غير الصحافة المهتمة بالنواحي الاجتماعية؛ فاهتم باللاهوت والفلسفة، دفاعا عن الهيجليين الشباب اللبراليين ضد الهجوم المدعوم رسميا الذي يشنه عليهم فريدريش فون شيلينج أستاذ الفلسفة الجامعي (ص 16). وكان إنجلز يرى أن وجهة نظر شيلينج ترهات لا توجد إلّا في رأسه وألّف كتيبا بعنوان (شيلنج والوحي) لم يوقعه باسمه، وهو نقد لأحدث محاولة للتصدي للفلسفة الحرة، وما زال هذا الكتيب قابلا للقراءة ورواية يعتمد عليها (ص 18). وأثناء تواجده في برلين مابين 1841 - 1842 لتحق بالجامعة بصفته طالبا غير مسجّل.

ذكر إنجلز أعمال الفلاسفة النقديين أمثال: شتراوس، فيورباخ، باور، والصحف التي نشروا فيها مقالاتهم، ومدحهم بالقول: لقد سقطت كل المبادئ الأساسية للمسيحية، بل سقط ما كان معروفا حتى تلك اللحظة باسم الدين، أمام نقد العقل المستمر بلا هوادة. وقد استدعت الدولة (شيلينج) للدفاع عن التقليد في الدين والسياسة، واعتقد إنجلز أن هذا الدفاع لم يكن ذا قيمة (ص 19).

إنجلز الشيوعي

ويلقي المؤلف الضوء على التطور الفكري لإنجلس من خلال مشاهداته أوضاع انجلترا، وتلمسه معاناة الطبقة العاملة ومشاهداته

العيانية لأحوالها، ويطلق عليه صفة الشيوعي. ففي رحلة إنجلس الثانية إلى انجلترا أواخر 1842 ومن لندن هاجم إنجلز الطبقات الحاكمة، سواء أكانت الطبقة الوسطى أم الطبقة الارستقراطية بسبب عمى بصيرتهم حيث كانوا دائما معارضين لنظام الاقتراع العام. وأثناء وجوده في برلين 1841و1842 عكس تطوره السياسي التطور الذي مرّ به الهيجليون الشباب، حيث تحولت آراؤهم السياسية من الدفاع عن العقلانية المتسقة على نحو أو آخر مع الرؤية الهيغلية إلى النقد الصريح لهيغل، ورفض ليبرالية الطبقة الوسطى ثم توجهت للدفاع عن الديمقراطية والنظام الجمهوري والإصلاح الاجتماعي الذي يصب في صالح الفقراء (ص 22).

وكانت هناك مناقشات لنظريات عن الثورة الاجتماعية الشاملة والملكية المشتركة وتحرير الإنسان. وقد أثار إنجلز الاهتمام الموجه إلى الصناعة الحديثة وفقر الطبقة العاملة في سياق الثورة الاجتماعية والسياسية. وكان هذا الشكل من الشيوعية والذي لم يكن مذهبا واضحا المعالم هو المذهب الذي اختار انجلس تطويره. وكانت مقالة "الأزمات الداخلية" تمهيدا نظريا لرائعة إنجلز "حالة الطبقة العاملة في انجلترا" التي نشرها عام 1845. والتي كان لها ثلاثة أعمال تمهيدية، وهي مقالات كتبت ونشرت في 1843 و1844 متناولة موضوعا أوسع هو التاريخ الاجتماعي لانجلترا.

ورأى أن الثورة التي حدثت في الصناعة البريطانية هي وراء كل أشكال التطور الاجتماعي، وأن أهم أثر لهذا التطور هو تكوّن طبقة البروليتاريا من خلال الثورة الصناعية. وقد استعرض النظام الدستوري والقانوني الإنجليزي، ورفضه باعتباره خليطا معقدا من الأكاذيب واللاأخلاقية. وبعد أن استعرض عناصر الحكم الملكي والارستقراطي والديمقراطي تساءل: من يحكم فعليا في انجلترا؟ وكان جوابه هو: أصحاب الأملاك (ص 25).

ألّف إنجلز كتاب "حالة الطبقة العاملة في انجلترا" اعتمادا على ملاحظات شخصية ومصادر موثوقة، وغرضه من التأليف كان سياسيا، وقدّم في الكتاب سردا لاذعا عن طبقة الملّاك ودورها في النظام الاقتصادي القائم على المنافسة، واستعرض انجلز الحالة البائسة للطبقة العاملة والظروف السيئة التي يعيشون فيها. وأشار إلى مقاومة الطبقة للظروف السيئة، وكان أول أشكال تمرد هذه الطبقة هو اللجوء إلى الجريمة وتكسير الآلات والإضرابات. ويقيّم لينين كتاب إنجلس بالقول "لقد كان هذا الكتاب صك اتهام رهيب ضد الرأسمالية والبرجوازية، وكان الأثر الذي أحدثه عظيما"[3].

إنجلز الثوري

ونظرا لتعمق أفكار إنجلز، يكشف المؤلف عن تصاعد الروح الثورية عنده، ولقائه بماركس. ولم يكن أول لقاء لإنجلز مع ماركس ناجحا، فقد اتخذ ماركس، رئيس تحرير الصحيفة الكولونية الراديكالية موقفا صارما من الإسهامات المقدمة من مجموعة الهيجليين الشباب، وكان إنجلز منضما إليها. وأثناء تواجد إنجلز في مانشستر كتب في الفترة ما بين اكتوبر ونوفمبر 1843 مقالة "إسهام في نقد الاقتصاد السياسي"، وكانت هذه المقالة مفخرة ماركس كلما تحدث عن علاقته بإنجلز. ولا بد أن تناول إنجلز النقدي

للاقتصاد السياسي قد حاز إعجاب ماركس الذي كان يبحث الآثار العملية لنظام الملكية الخاصة الذي تقره مملكة بروسيا وتدافع عنه. وتطرُّق إنجلز للاقتصاد السياسي النابع من اهتمامه بالتاريخ الاجتماعي لإنجلترا، لاسيما الثورة الصناعية التي حدثت في القرنين 18و19. ونظرا لكون إنجلز شيوعيا فقد اقترح إلغاء الملكية الخاصة والمنافسة. ومن ناحية النقد الأخلاقي للاقتصاد السياسي وصف إنجلز التجارة بأنها تشبه السرقة، موضحا أن النتيجة الفورية للملكية الخاصة هي التجارة، معتبرا إياها احتيالا مقننا. والملكية الخاصة حولت الإنسان إلى سلعة (ص 36).

وقد انعقد أول مؤتمر للشيوعيين في لندن 1847، وقدم فيه إنجلز مسودة البيان الشيوعي لغرض المناقشة. وأعد إنجلز نسخة أخرى لماركس حملت اسم ''مبادئ الشيوعية''. وفي أواخر ذلك العام طلب من ماركس وإنجلز استخدام هذه المسودة وغيرها في تشكيل وثيقة نهائية يمكن لكل الشيوعيين الالتزام بها (ص 42). وفي مرحلة لاحقة اعترف ماركس وإنجلز كل منها على حدة بأن الفكرة الأساسية للبيان الشيوعي كانت من إنتاج ماركس وحده. والنسخ الأولى من البيان كانت معدّة بالفعل على يد إنجلز وحده مهتما بأسلوب صياغة البيان، وتولى ماركس صياغة البيان في النهاية.

إنجلز الماركسي

يرى المؤلف أن إنجلز كان أول الماركسيين، وكان تأثيره على الماركسية كبيرا (ص 45) . كتب طوال الفترة 1895-1849 مفسرا وجهات نظر ماركس ومراجعا ومحررا لأعماله. وأثبت صحة وجهة نظر ماركس القائلة بأن وجود الطبقات في المجتمع يعتمد على مراحل تطور الإنتاج وأن طبقة البروليتاريا الحديثة هي فقط التي لديها ما يؤهلها لبدء عهد المجتمع اللاطبقي، معتمدا تقديم الأدلة من مصادر التاريخ، مستعرضا تاريخ الصناعة الألمانية في القرنين 14 و15 واختلاف المانيا سياسيا عن النمط السائد في كل مكان من أوروبا، وكان تلخيصه للوضع الالماني ترديدا لما جاء في البيان الشيوعي. وسار إنجلز على نهج كتاب ''الإيديولوجية الالمانية'' فأظهر أن الخلافات الدينية في حقيقتها اجتماعية وسياسية. وكانت دراسة إنجلز لحرب الفلاحين في المانيا أول مؤلف ماركسي عن ''التاريخ'' أوضح فيها أنه خلف ''الغطاء الديني'' تكمن مصالح واحتياجات الطبقات المختلفة (ص 48).

كان إنجلز كريما في وقته وماله. أحسن إلى أسرة ماركس وأنقذها في مرّات عديدة من الفقر والشقاء الذي عاشوا فيه. وقام إنجلز بمساعدة ماركس أيضا من خلال كتابة المقالات عنه بالإنجليزية، التي لم يكن يتقنها ماركس، لصحيفة (ذا ديلي تريبون) فعمل إنجلز مؤلفا ومترجما، وتلقى ماركس الأجر (ص 49) .

ظهر كتاب مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي لماركس عام 1859 وقد وضع ماركس خطة العمل التي سيراجعها إنجلز، وطلب منه أن يكتب تعليقا مختصرا حول المنهج النقدي المتبع في العمل (ص 52) . وأصبح إنجلز المروج الأول لاكتشافات ماركس في علم الاجتماع، والمعلق الأول على منهجه النقدي. وكانت عبارة ''التصور المادي للتاريخ'' التي قالها إنجلز هي التي أدت إلى

ظهور الماركسية. وأضاف عنصرا آخر مهما إلى هذه النظرة الأساسية وهو "المنهج الجدلي الماركسي" وبحلول عام 1878 أصبح إنجلز على نطاق ضيق كاتب سيرة ذاتية عن ماركس. واختار تناول اكتشافين فقط من اكتشافات ماركس وهما: تصوره الجديد للتاريخ والتفسير النهائي للعلاقة بين رأس المال والعمل، فقال: أثبت ماركس أن التاريخ السابق كله هو تاريخ للصراع الطبقي (ص 56).

في السنوات التي أعقبت وفاة ماركس 1883 قدّم إنجلز مقدمات لطبعات جديدة من "البيان الشيوعي" الذي ألّفاه معا (خمس طبعات) ولثمانية من أعمال ماركس.

إنجلز العالم

ويتناول كارفر في هذا الفصل إنجلز باعتباره عالما. كان "دوهرينج" قد نشر مجموعة أعمال، من ضمنها كتاب "مقرر في الفلسفة" الذي اتخذه إنجلز كهدف أساسي للرد عليه. وظهر كتاب "الرد على دوهرينج" على شكل أجزاء في صحيفة اشتراكية ألمانية في الفترة 1877 - 1878، ثم نشر في ثلاثة كتيبات ثم نشر في كتاب. وكانت لدى إنجلز ثلاثة أسباب لمناقشة دوهرينج؛ أولها: تجنب الانقسام الفكري داخل الحزب الذي كان لا يزال في بداياته، والثاني: نشر آرائه حول الموضوعات المثيرة للجدل، والثالث: تحذير القّراء من الأنظمة الألمانية الأخرى التي تمثل الهراء المطلق. واعترف إنجلز صراحة أنه هاوٍ غير متخصص في التشريع والعلوم الطبيعية، وإن إسهامه قاصر على تصحيح الحقائق التي ليس فيها خلاف (ص 62) .

وفي 1894 أضاف في الرد على دوهرينج بعضا من محتوى مخطوطات ماركس إلى الفصل العاشر من الكتاب، وهكذا كشف أن ماركس ساعده في تأليف جزء صغير من الرد (ص 63) . وقد كتب في الرد على دوهرينج: إن الجدل لا يعدو أن يكون علم القوانين العامة للحركة وتطور الطبيعة والفكر والمجتمع البشري. ويقول أيضا: كنت أنا وماركس الشخصين الوحيدين اللذين أنقذا الجدل الواعي من الفلسفة المثالية الألمانية وطبقناها في التصور المادي للطبيعة والتاريخ (ص 65).

وكان لدى إنجلز وجهة نظر وضعية تجاه العلوم، حيث قال: إن تراكم الحقائق المأخوذة عن العلوم الطبيعية تجبرنا على الاعتراف بالتصور الجدلي للطبيعة. وكان منهج إنجلز يتمثل في البحث عن حقائق نسبية قابلة للتوصل إليها عن طريق العلوم الوضعية وجمع نتائجها من خلال التفكير الجدلي. وبعد أن حاول تحديد العلاقة بين التفكير الجدلي والتاريخ والعلوم، تناول القضية الأساسية الكبرى لكل فلسفة، وهي علاقة التفكير والوجود. وقد أكدت الاكتشافات الحديثة في مجال الانثروبولوجيا كتلك التي تمت في علوم الأحياء والكيمياء والفيزياء والتاريخ والفلسفة حقيقة تصوره المادي للتاريخ القائم على الجدل (ص 75).

إنجلز والماركسية

وفي الفصل الأخير من الكتاب يقيّم المؤلف إسهامات إنجلز الفكرية ويصدر أحكاما بشأنها. والتفسير المادي للتاريخ هو العنصر الأساسي في تركة إنجلز الفكرية (ص 79)، وقد ابتكر هذا المصطلح بنفسه ودافع عنه. ويرى الكاتب أنه إذا كان هناك معيار واحد

للتفرقة بين الماركسي وغير الماركسي، فسيكون التفسير المادي للتاريخ هو المنافس الأقوى بين هذه المعايير. كما يعتبره أول عالِم ومؤرخ أنثروبولوجي ماركسي وأدى تأثيره في نطاق هذين المجالين إلى نتائج يمكن اعتبارها تقدمية. وفي شروح إنجلز لكتابات ماركس كانت نوايا إنجلز -حسب ما يرى مؤلف الكتاب- صادقة للغاية، وقد ذاعت شهرته السياسية والفكرية أكثر بسبب علاقته بماركس وتفسيراته لأعماله، وقد جعل طموحاته داخل حدود علاقته كتلميذ بأستاذه (ص 80). وموضوع كتاب ماركس "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" أصبح الموضوع الرئيس لشروح إنجلز وتفصيله لآرائه.

ويرى المؤلف أن إنجلز كان يفتقر إلى حنكة المتشكك المثقف الذي يستطيع طرح أسئلة صعبة على نفسه ثم يسعى للإجابة عليها. ولم تكن فلسفة إنجلز -حسب رأيه- مجرد فلسفة متناثرة في أفكاره الجدلية المختلفة كما هو الحال مع ماركس، بل كانت في حد ذاتها كيانا يحتوي على كثير من الافتراضات غير المفحوصة والمصطلحات غير المعرّفة، وفي رأيه أن العلاقة بين ماركس وإنجلز علاقة بين الأستاذ والشارح.

وهناك مزاعم أنهما كانا متفقين في كل الموضوعات، وعملا باعتبارهما مؤلفين مشتركين يعتبر كل منهما عمل الآخر عمله، وهو تصور غير صحيح، كما يرى، والصورة التي ظهرت كانت لشخصين لكل منهما أعمال مستقلة مع استثناءات قليلة. وماركس قدّم الإسهامات الأكثر إبداعا بينما إنجلز قدّم الإسهامات الأكثر تأثيرا. ويصل المؤلف إلى استنتاج أن دفاع إنجلز عن التفسير المادي للتاريخ غير حاسم من الناحية التحليلية ودوغمائي في النهاية (ص 84). وأشار إلى أن البعض في الغرب تجاهلوا وجود الاختلاف بين ماركس وإنجلز، وتناولوا ماركس منفردا، وآخرون لهم وجهة نظر أن أحدهما تحدث نيابة عن الآخر.

ونعرض هنا شهادة إنجلز عن نفسه الذي وضع مرتبته بعد مرتبة ماركس، فقد كتب لأحد أصدقائه القدماء "لقد كنت دائما ثاني عازف على الكمان بجانب ماركس"[4] ويقول لينين "كان ماركس يعمل في تحليل الظاهرات المعقدة في الاقتصاد الرأسمالي، وكان إنجلز يعرض في مؤلفاته المكتوبة بأسلوب واضح وجدلي في كثير من الأحيان أهم القضايا العلمية ومختلف وقائع الماضي والحاضر بروح المفهوم المادي للتاريخ لدى ماركس ونظريته الاقتصادية"[5].

الهوامش

1 - ماركس وإنجلز، مختارات، ج1، دار التقدم، موسكو، د. ت، ص 23.
2 - المصدر نفسه، ص 24.
3 - المصدر نفسه، ص 20.
4 - المصدر نفسه، ص 25.
5 - المصدر نفسه، ص 23.

نصوص قديمة

من الدولة الريعية إلى نصف الديمقراطية*

عصام الخفاجي

يثير الوضع المأساوي الذي يعيشه العراق (والمنطقة العربية عموماً) حالة من النوستالجيا بين أوساط واسعة من المثقفين العراقيين تحديداً تنطلق من اختراع ماضٍ متخيل وردي، هو العهد الملكي، لتنطلق بعدئذٍ الى النظر الى التحولات التي شهدها العراق منذ عام 1958 كحدث خارجي، طارئ لا تفسير له غير رغبات العسكريين الذين أدخلوا العراق في دوامة العنف والاستبداد. مثل هذه النظرة تريح العقل الكسول إذ هي تعفي المرء من التفكير في البنى الاجتماعية التي لم تجعل ثورة تموز ممكنة الحدوث فحسب، بل انها لقيت حماساً منقطع النظير في بين معظم أوساط الشعب العراقي يوم ذاك.

يكفي التساؤل عن الفرق بين الانقلاب العسكري في 1958 وانقلاب بكر صدقي 1936 لكي نتوصل الى ان المؤسسة السياسية (أو العسكرية) لا تخلق شيئاً لا أساس له في المجتمع. ففي عام 1936 لم تكن مشروعية النظام الملكي مطروحة على جدول التغيير السياسي، ولا مؤسساته الناشئة كالبرلمان، ولا رجال الحكم الرئيسيين. أما 1958 فجاءت على خلفية مختلفة تماماً: خيبات أمل مريرة ناجمة عن أربعة عقود ظهرت خلالها قوى اجتماعية جديدة كانت تجد نفسها مهشمة في المجتمع والاقتصاد والسياسة، حياة دون إنسانية لملايين الفلاحين في الوقت الذي كان الوضع الاقتصادي للعراق في تحسن مستمر، استغلال بشع من جانب كبار ملاك الأرض، مدن تكتظ بمئات ألوف النازحين الذين يعيشون في ظروف مزرية في صرائف خلف السدة والشاكرية وحي العاصمة، وغيرها، وشركات نفط أجنبية كانت تغرف مئات الملايين من دون أن تسعى السلطات الحاكمة الى تقييد نشاطها.

تمأسس المثقف اليساري العراقي اليوم، فاستعار عقلاً ولغة لا ترى في ماضي العراق غير بغداد الأندية والصحافة المتعددة الألوان (نسبياً)، وحلقات المثقفين في مقهى البرازيلية، ونسي ان الغالبية الساحقة من العراقيين كانت تعيش في عالم آخر، ما جعل آمالها وخيباتها مادة طيعة للثورات واستبدادها. وما لم نرَ الثورات في سياقها المجتمعي، لن نستطيع التفكير بمستقبل الديمقراطية في العراق. ذلك ان حصر الذهن في ماضٍ ديمقراطي متخيل، وافتراض ان الديمقراطية المستقبلية ليست غير استئناف لممارسات قطعها حدث خارجي طارئ هو الثورات، يعني عدم رؤية التغيرات الهائلة التي حصلت على امتداد نصف قرن، والقوى الاجتماعية التي نشأت وصعدت، وأنماط رؤاها وتفكيرها السياسي، بغض النظر عن عواطفنا تجاه الفاعلين الجدد في هذا المجتمع.

أرضية التحول في العراق - كما أراها - تكمن في أزمة البنى قبل الرأسمالية التي كانت قائمة في الزراعة. ان عجز هذه العلاقات عن

استيعاب التوسع في قوة العمل، وفي احتواء هؤلاء الناس وازدياد الثروات الذي صاحبه مزيد من التهميش أدى إلى ازدياد السخط في أوساط هؤلاء الضحايا، وهم الغالبية الساحقة من أبناء المجتمع.

أزمة نظام المحاصصة أدت الى تهميش الغالبية الساحقة من أبناء الشعب عرباً وكرداً، وهذا هو أساس تذرير المجتمع العراقي. يتطلب هذا الحكم توضيحاً، أو بالأحرى توضيحين: يتعلق الأول بنظام المحاصصة وأزمته، والثاني، بمعنى وعواقب التذرير الاجتماعي.

برغم تعارفنا على تسمية نظام العلاقات الزراعية الذي كان سائداً حتى إقرار برامج الاصلاح الزراعي بالاقطاعي أو شبه الاقطاعي، إلا انه، وبرغم وجود سمات مشتركة له مع النظام الاقطاعي، لم يكن كذلك بالمعنى العلمي الدقيق. أما أزمته فتجلت في ان زيادات الانتاج التي تحققت منذ الاربعينيات (وهي زيادات يتغنى بها المدافعون عن النظام الملكي اليوم بتذكيرنا ان العراق كان مصدراً للمواد الزراعية) تمت على حساب انهيار مستمر في انتاجية الفلاح والأرض. اجتماعياً تمثلت الأزمة، وهي الوجه المقابل لتدهور الانتاجية، في مظهرين: الأول ان الفلاح العراقي صار في وضع شديد الشبه بأقنان الأرض في ظل الاقطاع الأوروبي، كان شبه آدمي كما وصفته دورين وارنر، أكبر المختصين في مجالها آنذاك، يعيش في مستوى دون الكفاف، ويمنع عليه مغادرة الأرض حتى يفي بديونه التي كان من المستحيل عليه ايفاؤها حتى في أكثر المواسم خصوبة. المظهر الثاني لأزمة النظام تمثل في الهروب الواسع من الأرض للسبب نفسه. وليس مصادفة ان أصول الغالبية الساحقة من المهاجرين الى بغداد والبصرة في الخمسينات كانت من الألوية (المحافظات) التي عرفت أبشع انواع الاستغلال، أي العمارة والكوت. وتجلت الأزمة في أن العراق الذي تدفقت عليه موارد نفطية كبيرة نسبياً منذ عام 1952، كان من أفقر بلدان المنطقة عشية ثورة تموز، حيث قدر الراحل الكبير محمد سلمان حسن حجم البطالة آنذاك بـ 40 بالمئة من السكان النشيطين اقتصادياً آنذاك.

كانت الأزمة أدت الى تفتت العلاقات الاجتماعية السابقة وتذرير الأفراد، أوَ ليس هذا مؤشراً (ومبشراً) بنشوء المجتمع المدني الذي يقوم على المواطن الفرد؟ هنا يتطلب الأمر التوضيح الثاني. الفرد المذرر المنفصل عن قطيع العشيرة، الطائفة، الملّة، أو الانتماء الجهوي هو يشعر بولاء لدينه، ملّته، اقليمه، أو حتى روابط الدم التي تربطه بأقاربه، بل هو الفرد الذي يختار (أو يرفض) طوعاً هذا الولاء من دون قسر اجتماعي أو قانوني. وعليه فإن نشوء هذا الفرد لا يحدث لمجرد انه فقد ثقته بشيخ القبيلة وهاجر الى بغداد أو البصرة، في حالة الفلاح العراقي التي أشرنا اليها. انه يحدث حينما يتيح الشرط الاجتماعي هذه الامكانية: امكانية أن ينتقل الفرد عبر المواقع الاجتماعية والجغرافية من دون قيد قانوني أو عرفي. ولا يتحقق ذلك إلا عبر التصنيع ونشوء الطبقات الحديثة المميزة للعصر البرجوازي.

حين ينتظم الأفراد المذررون في الجماعات الحديثة ينفسح المجال أمام هذا الحَراك الاجتماعي، ومن دون أن يعيد الأفراد انتاج أشكال ولاء وتكافل اخرى تضمن جماعيتهم. ان الفهم المبسط لعملية التذرير يطمس

الفرق بين "العوام" وهم أفراد مذررون لم ينتظموا بعد في طبقات حديثة، قادهم سخطهم (المشروع بلا شك) الى تأييد استبداد الثورة الفرنسية، والثورة العراقية وديمومتهما، وبين الجماعات الحديثة التي يبلور توازن القوى في ما بينها ادارات مجتمعية للصراعات، وقيوداً على السلطات.

نتوصل مما سبق الى ان انهيار المشروعية الاقتصادية والايديولوجية للنظام القديم من دون نشوء بديل ارقى تاريخياً، أي عملية تصنيع وتحديث واسعة النطاق، تكمن في جذر الاستبداد الذي رافق الأزمة الثورية في العراق (والمنطقة المحيطة) أزمة العلاقات ما قبل الرأسمالية ليست ظاهرة عراقية أو عربية حصراً، ففي التاريخ الأوربي هناك ظاهرة طاعون الشحاذين في أوربا بين انهيار الاقطاع وصعود الرأسمالية فاصل امتد الى مئتي سنة، ولكننا اليوم نقول ببساطة ان سقوط الاقطاعية قد أعقبه مباشرة صعود البرجوازية. فترة القرنين من الزمن التي مرت بها أوربا تشبه أوضاعنا عشية الثورات. طاعون من الشحاذين لا توجد آلية لامتصاصهم، لولا عملية التصنيع والتحديث وامتصاص العاطلين عن العمل لأنتهوا الى ما انهينا اليه. ما حصل عندنا ان تهميش الأيدي العاملة لم يؤد الى إعادة تنظيمهم في آليات جديدة، آلية المصنع والنشاطات المدنية بالتحديد. وعلى هذه الأرضية قامت الثورات أو الانقلابات العسكرية. ومن هذه الأرضية استمدت الثورات شعبيتها.

لذلك علينا أن ننطلق من وعي ذات الفترة، فالجماهير المنطلقة بغبطة وسعادة الى الشوارع لم تكن مخدوعة بل كانت تعبر عن سخط على النظام الذي تم إسقاطه وترحيب أو أمل بأن القادم الجديد سيجلب لها شيئاً. ان ما حصل لدينا ليس استثناء فإن وجود أفراد ذررتهم العلاقات السابقة، جعل من الممكن الاستفادة من سخطهم من قبل مجموعة من العسكرية أو غيرهم أنجزت هذه الثورات.

ماهي خصوصية بلدان الشرق في هذا السياق؟ ما حصل عندنا هو وجود آلية مكنت الدولة من التسلط ولعب دور طفيلي. هذه الآلية سبقت ومهدت للثورات كثورة 1958. وهذه الآلية لم تنتجها الثورة بل استفادت منها، والمقصود هنا إتفاقية المناصفة مع شركات النفط. لقد جرى حديث عن الدولة وتدخلها بعد الثورات، وفي الحقيقة ان أرضية هذه الآلية قامت في العراق وفي ايران، وبشكل أقل، في مصر قبل حدوث الثورات التي جاءت لتلتقط ثمار هذه الآلية. ففي سنة 1950 كانت عوائد العراق من النفط هي 6 ملايين باوند استرليني، وفي سنة 1954 قفزت العوائد الى 54 مليوناً. ويعني هذا ان القفزة هي أكبر بأضعاف من القفزة التي حصلت سنة 1973 بالمعنى النسبي. أدى هذا الأمر الى زيادة الامكانيات المتاحة للدولة، وهذه هي الأرضية التي مكنت السلطات التنفيذية من أن تستغني عن البرلمانات بترافق مع فقدان البرلمانات لوظائفها الفعلية. وفي الحقيقة اذا لم نأخذ العنصر الثاني الذي لا علاقة له برغبة الطبقات، وأعني بالعنصر الثاني امكانية حصول الشيء وليس فقط كونه مرغوباً من جانب فئة ما، لن نفهم معنى الانتقال من الحكم غير المباشر الى الحكم المباشر. لا تستطيع أي سلطة أن تمد مجساتها الى المجتمع مباشرة كدولة مركزية. لذلك فإن البرلمان الملكي قام على أساس ضمني هو الاعتراف بأن سلطة الدولة على عشائر أو طوائف معنية تمر من

خلال شيخ العشيرة أو وجيه الطائفة. وهذا هو المستوى الوسطي الذي يتوسط العلاقة بين القاعدة والحكم. وقد يعطينا هذا الأمر احساساً بالديمقراطية، وهو ما أوهم أشقاءنا اللبنانيين لفترة طويلة بأن هذه هي الديمقراطية، بينما هي، في الحقيقة، شكل من أشكال الحكم غير المباشر لمرحلة ما قبل الرأسمالية.

كانت السلطة المركزية في العهد الملكي عاجزة عن أن تمد مجساتها الى المجتمع مباشرة. لذا كان هناك مستوى متوسط، يمثله الأعيان والشيوخ ووجهاء المدن، قائم بين الدولة والأفراد من أبناء المدينة أو الريف. وجود هذا المستوى ليس رغبة من هذا الحاكم أو ذاك، بل يرجع الى ان الامكانية التقنية – بالمعنى الواسع لكلمة تقنية – لكي تمد السلطة مجساتها الى المجتمع لم تكن قائمة بعد. وحين قامت هذه الامكانية حصلت الثورات. وهكذا فقد كبار الشيوخ وأعيان المدن وظائفهم الاجتماعية وتجسد ذلك في الهجرات الواسعة والانتفاضات المدنية التي هي في أحد مظاهرها تعبر عن اختفاء دور أعيان المدن في تمثيل أبنائها والسيطرة عليهم. وبهذا المعنى وجدت سلطات استمدت قدرتها على الاستقلالية النسبية عن الفئات المهيمنة بفعل اتفاقيات المناصفة. ان هذه الأرضية لن ينتجها عبد الكريم قاسم بل استفاد منها لكي يعززها ويرتقي بها. والسؤال ما تأثير ذلك على آفاق الديمقراطية، وما هي العلاقة الدستورية بين الحاكم والمحكوم؟ من الناحية التاريخية نشأ الدستور قبل نشوء الرأسمالية، وكان تعاقداً بين النبلاء والملك الاقطاعي. وقد نشأ الدستور لتنظيم العلاقة المختلة بين الملك الضعيف الذي كان بحاجة الى فرسان الإقطاعيين. وكان النبلاء بحاجة الى الملك للدفاع عن اقطاعياتهم. وهذه كانت علاقة ملزمة وتعاقدية، فرضت قيوداً من جانب النبلاء على الملك، والتزامات من جانب الملك إزاء النبلاء، وحين ازداد ثقل التجار أصبحوا المرتبة الثالثة ودخلوا الى البرلمان. ان العلاقة الدستورية لم تنشأ برغبة هذا الحاكم أو ذاك. والماغنا كارتا (الوثيقة العظمى 1215) سنّت قبل نشوء الرأسمالية بكثير. القضية لا تكمن في ان اتفاق مجموعة من الناس على أفضلية الحكم الدستوري على الحكم اللادستوري سينتج هذا الدستور. ومن الممكن هناك أن يضعوا دستوراً جميلاً ولكن لا ضمانات فعلية لاستمرار هذا الدستور. باختصار، لا ضمانات راسخة لأي حكم دستوري من دون وجود توازن قوي تصل من خلاله الطبقات الاجتماعية المختلفة الى قناعة بحاجة إحداها للأخرى، وبتلازم بقائها مع بقاء الطبقات الأخرى. وهذا لا ينفي بالطبع الصراعات الاجتماعية التي تحاول كل فئة من خلالها تحسين شروط حياتها ووزنها على حساب الفئات الأخرى.

إن نشوء الدولة الريعية عندنا بسبب اتفاقية المناصفة جعل هذه العلاقة الملزمة بين الحاكم والمحكوم غير قائمة. ولنقارن هذه الظاهرة مع الشعار الأمريكي "لا ضريبة بدون صوت"، فدفع الضريبة يعني ان جهاز الدولة وموظفيها، بمن فيهم القادة، مدينون الى المواطن الفرد الذي يتكفل معيشتهم مقابل خدمة مصالحه. وهذا ما يسمح للفرد بأن يكون له صوت في السياسة. ان العلاقة الملزمة بين الحاكم والمحكوم انتهت مع صعود الدولة الريعية، ولا أقصد هنا بالدولة الريعية الدولة الغنية، بل أقصد الدولة التي تستمد مواردها المالية من اقتطاعات خارج نشاط الفئات

الاجتماعية، فحصول الدولة على المال عن طريق ضخ النفط مثلاً، وهنا لا تشعر الدولة المواطن بانها اقتطعت من دخله وبالتالي للمواطن حقوق عليها بسبب هذا الاقتطاع. وهذا هو جوهر فكرة المكرمة عند صدام حسين. فالمجتمع مذرر والسلطة تشجع الفرد ليكتب للرئيس مرحمة، لكي يزوده بالأموال. كان البعث واعياً كل الوعي بهذا الواقع فشجع الفرد على أن، يطلب بصورة الاستجداء، ولكن بالمقابل كان أي مطلب جماعي مهما كان بسيطاً يقابل بقمع شرس. (في اواسط السبعينات كان هناك خط هاتفي مباشر يمكن للأفراد استخدامه للاتصال "بالسيد النائب" لطلب المكارم الشخصية). وجرى تحريم الحصول على حقوق من الدولة التي عمَقَت الاحساس بان لا حقوق للمواطن تجاهها. يمكن للمواطن أن يستجدي ويأخذ كَمِنّة، ولكن لا حقوق له على الدولة. وهنا بالامكان الاغداق على أي شخص بصفته الفردية ولكن لا يجوز أن يطلب حقوقاً بصفته ممثلاً لمدينة أو طائفة أو تجمع نقابي. وكل هذه الأمور من المحرمات.

للثورات مهمات تدميرية لتقويض البنى المتفسخة، ومهمات بنائية لانشاء آليات أحدث للتنظيم. ثوراتنا في المنطقة أنجزت المهمة التدميرية بنجاح فائق: الاصلاح الزراعي حطم ما بقي من أسس ومشروعية العلاقات ما قبل الرأسمالية، ومحاولة حماية السوق وتأميم النفط ..الخ. ويسهل اليوم أن نقول بأن هذا الشعار أو ذاك كان خاطئاً، ولكن لا بد أن ننظر الى الأمور بمنظار ابن تلك الفترة لتلك الشعارات. فعندما ترى سطوة الشركات الاجنبية ونهبها وأنت ابن المدينة الجائع، يكون من الصعب الآن القول بأن الشعار المعادي لبريطانيا والتحرر من الاستعمار بصورة راديكالية آنذاك لم يكن هاجساً لرجل الشارع في ذلك الوقت. يجب أن نضع أنفسنا في تلك الفترة، فمواطن تلك الفترة كان يرى ان شركات النفط هي التي تنهب، وبالتالي من الصعب أن نتحدث في عام 2000 بأن رغبة التخلص من بريطانيا لم تكن هاجساً عند الشارع.

هذه هي أرضية صعود الدولة الريعية، الدولة التي ذررت وفتت.

لكن بين التذرير ونشوء المجتمع المدني فجوة هائلة، هي الفجوة بين الدولة الريعية والدولة الصناعية، وهنا تكمن أزمتنا. قلتُ ان النظام العشائري فقد مشروعيته الايديولوجية عشية ثورة تموز 1958. وليس هذا مجرد شعار، بل ان ترجمته الفعلية تمثلت في كثرة حالات التمرد من جانب أبناء العشائر ضد الشيوخ، والهجرة شكل من أشكال الخروج على طاعة الشيخ. لكن هذا لا يعني قط ان مجتمعاً مدنياً نشأ على انقاض ذلك.

قبل ستين عاماً درس باحث موهوب هو صالح حيدر الريف العراقي وتوصل الى ان القبيلة فقدت وظيفتها، كما فقد الشيخ سلطته المعنوية مع تحوله الى مالك أرض على حساب أبناء قبيلته.

لكنه أبرز ان البديل الذي ظل يحظى بثقة الفلاح هو فخذ العشيرة ورئيس الفخذ. لقد اكتسب السركال وظيفة اجتماعية أكبر من وظيفة شيخ القبيلة، لذا فان انتهاء الوظيفة الاجتماعية لشيخ القبيلة لا يعني صعود المواطن الفرد. والمجتمع المدني والديمقراطي ليست وصفات أو برامج سياسية، فهذه مقولات تاريخية لا يمكن أن تنشأ لمجرد ان مجموعة من المثقفين والسياسيين يريدون قيامها. انها

لا يمكن أن تتأسس دون أن تتوفر لها أرضية تسمح لها بتأدية وظيفة اجتماعية.
يقال دائماً بأن استبداد النظام وفساده هما اللذان أبَّدى هذا الوضع، وفيهما تكمن أسباب الاخفاق. عند مراجعة تجارب دول معينة نجحت في التحديث ككوريا الجنوبية وتايوان نجد ان الفساد والمحسوبية والقرابة والدكتاتورية القمعية كانت ملازمة لها، ومقاربة لما حصل في منطقتنا. ولذا فإن الفساد وحده لا يفسر لماذا أخفقنا، في حين نجح دكتاتوريون وفاسدون آخرون. القضية هنا بتصوري، تتعلق بفكرة الدولة الريعية. ففي العالم الثالث كان هاجس الأنظمة التي جاءت الى الحكم بعد الثورات هو كيفية تحقيق أعلى ما يمكن من العملات الصعبة لكي لا يتم الاعتماد على الخارج عبر الاستدانة. ففي النموذج الكوري الجنوبي وتايوان على سبيل المثال كانت الأنظمة تتغاضى عن مظاهر الفساد بشرط تحقيق نسب عالية في التصدير. والنجاح هو المعيار. لقد كانت هذه الأنظمة مختلفة خصوصاً بعد اعتراف امريكا بالصين والخوف من أن تفك الولايات المتحدة دعمها عنهم. وهذا ما دفعهم للتصدير لتوفير عملة صعبة وتطلب الأمر المنافسة وتطوير الكفاءة في أسواق فيها بضائع متعددة المناشئ.
ما حصل عندنا هو ان وفرة المال النفطي لم تفرض قيوداً كهذه على دولنا. كان الهدف الأول للدولة عندنا القضاء على البطالة، وهو هدف شعبوي بامتياز. ولم يكن هدف الخطط الخمسية تقليل المديونية لأنها لم تكن موجودة بالمعنى الحقيقي، وهذا أدى الى خلق أرضية اجتماعية مرتاحة نتيجة توفير وظائف وفرص عمل، ونتذكر قرار مجلس قيادة الثورة لعام 1974 بتوفير وظيفة لكل خريج جامعة. بلد مثل كوريا لم يكن يستطيع اتخاذ مثل هذا الاجراء. وأصبحت مهمة الدولة الريعية التوظيف وهذا أدى الى ترهل جهاز الدولة وصعود الأنظمة الشعبوية. وما إن أدركنا أن القمع لعب دوراً كبيراً في اسكات الشعب عن التمرد، علينا الاعتراف بأن التحسن الهائل لمستوى المعيشة أدى الى خلق نوع من الاذعان لدى الشعب العراقي. والاذعان لا أقصد به التأييد أو الحب، ولكن، على الأقل في أسوأ الأحوال قبول وصمت.
لئن دخلت دولة العهد الملكي الى المجتمع عبر وسائط كشيخ العشيرة مثلاً، فإن دخول الدولة الحالية الى المجتمع يمر عبر الحزب وهو ليس قاعدة شكلية أو مجرد واجهة. رغم ان هذا الحزب مترهل كأي حزب حاكم، إلا اننا سنخدع انفسنا لو قلنا انه ليس ثمة بعثي يأخذ علاقته بالحزب كعلاقة جدية. ان مثل هذا التصور خداع للنفس عند اليساريين والإسلاميين عموماً. واضافة الى الحزب هناك المنظمات الجماهيرية التي لم تكن أيضاً مجرد واجهة شكلية للسلطة، وأعضاؤها من الانتهازيين، بل هناك من انضم اليها بقناعة، وأحب هذه الاتحادات. ولهذا دخلت الدولة الى الحكم المباشر الذي يوصل مجساته الأيديولوجية والقمعية الى أقصى البلاد، ويتدخل حتى عبر العائلة.
حين انسحبت دولة الرعاية الاجتماعية بشكل عام في أوائل الثمانينات، تجلى الكثير من مظاهر المعاناة الكبيرة في الوضع المعيشي والصحي. وما يعيشه الإنسان العراقي ليس بفعل الحصار بل ان الحصار عمَق هذه الظاهرة التي كانت قائمة منذ الثمانينات. لقد كان محتّماً على الدولة العراقية أن تتراجع عن اتساعها. فالتدخل له منطقه

الداخلي سواء وجدت حرب أم لا. حين بدأت الدولة بالخصخصة في العراق، فإن هذا الأمر يختلف عما جرى من خصخصة في بريطانيا في عهد تاتشر على سبيل المثال. ففي بريطانيا كان هناك نظام الضمانات الصحية والمساعدات الاجتماعية التي تسند ظهر المواطن. أما المواطن العراقي وعندما حصلت الخصخصة فقد وجد ان لا آلية اقتصادية أخرى تستطيع أن توظفه وتشغله، ولا مستشفيات تستطيع أن تعالجه، ولا مدرسة لتعليم أولاده. وبهذا المعنى انبعثت الهويات الجزئية من جديد. وأقصد بها الهويات دون الوطنية، وهي ليست تكراراً لهويات الأربعينات. إذ تلعب تلك الهويات الجزئية دوراً في التواصل بين السلطة والناس. والمتابع لأحداث الانتفاضة (انتفاضة 1991-المحرر) يجد أن العشائر العراقية، حيث ما بقي لها نفوذ، لعبت دوراً مشيناً في قمع الانتفاضة، فحين هرب المنتفضون، وأغلبهم من أبناء المدن والمراكز الحضرية، كانت العشائر هي التي سلمتهم الى السلطة. وعلينا ألا نبالغ بأن العشيرة لا تزال متضامنة ومتجانسة. حيث ما وجدت العشيرة فإنها لم تعد تلعب هذا الدور الكبير.

ان التباري من قبل بعض جهات المعارضة بأن أبناء العشائر يقاومون غير صحيح، فمن يقول بأن الشخص الذي يقاوم يفعل ذلك باسم عشيرته؟ ويبدو ان البعض يساهم في تأجيج العشائرية وهي غير موجودة. وان إعادة إحياء هذه المؤسسة له مدلول راهن يتعلق بالخصخصة لا بالمعنى الاقتصادي فحسب بل حيث لا أساس موجود آخر لكي تصعد رأسمالية محلية فاعلة. لقد عمقت السياسة الريعية لنظام التذرير، فربطت الافراد على امتداد نصف قرن بالدولة كرب عمل، ومشتر لخدمات المقاول والصناعي، ومجهز لمواد أولية مستوردة ومنتجة محلياً بأسعار مدعومة من قبلها. فلما انسحبت الدولة، اتجه المقاول الى ملء نشاطات كانت الدولة تقوم بها لكنها لا تتطلب تشغيل قوة عمل دائمة واسعة الحجم. ووجدت الغالبية الساحقة من المواطنين أنفسها عزلاء دون ضمانات. وهنا يكمن جذر انبعاث الهويات الطائفية، والعشائرية والإقليمية، التي تقدمت لملء الفراغ لتقديم العون والعلاج والتعليم، أو المواساة في أسوأ الاحوال، لمن لم تعد لديهم ضمانات أخرى. انها ظاهرة حديثة ذات وظائف اجتماعية مختلفة، وليست مجرد استمرار للهويات السابقة.

كيف أرى المستقبل؟ لا شك ان النظام الحالي سيسقط اليوم أو غداً. وهناك آثار قائمة ستفرض نفسها على النظام حتى لو استمر. ففي ظل هذا الخراب القائم، ليست هناك كتلة اجتماعية – ولا أقصد احزاباً – في العراق لديها برنامج تحديثي حقيقي وبرنامج بديل. ان اليسار الذي كان يتبارى في تبني برامج كبيرة، أصبح تحت ضغط السطوة اللبرالية، ويستحي ان يطرح برامج اجتماعية حتى لا يقال له انه مع التدخل. ان القضية ليست في التدخل من قبل الدولة أو اللا تدخل. ان الديمقراطية شكل للنظام المطروح كبديل، ولكن ما هو المحتوى؟ لقد غابت صورة أي شعار مستقبلي لدى الحركات السياسية كالتقدم والتحديث ناهيك عن الاشتراكية والتنمية ..الخ. ان الحديث يجري عن بديل ديمقراطي، أما شكل هذه الديمقراطية ومحتواها فلا تجدها في الخطاب القائم. وبهذا المعنى غابت صورة المستقبل، وغابت كتلة معينة من المجتمع لها برنامج تحديثي.

كيف سيسير الأمر في هذا المجتمع المذرر؟ ان كردستان العراق صورة مصغرة أمامنا لما يجري. لا نشاط واسع للقوى المجتمعية – القطاع الخاص – فالحصار عزز هذا الشيء. فالامكانيات المالية تمر من خلال قادة الأحزاب. وازداد الشكل الريعي في كردستان. فإذا لم يكن للفرد علاقة مع أحد الحزبين، لن يستطيع الشروع في نشاط حياتي مجز. ومن دون حماية ميليشيا من الميلشيات حتى الاشتغال في التهريب يغدو متعذراً. وهذه هي احدى نتائج الدولة الريعية. والأوسع والأخطر من هذا هو ما الذي سيحدث في ظل تباري القوى جميعاً بالحديث عن الليبرالية ؟ ان الشكل الأكثر احتمالاً هو دور البنوك، وبضمنها البنوك الاسلامية، ووصفات صندوق النقد الدولي تشجع ذلك. وفي العراق سيتأجج الصراع الطائفي، فالبنك السعودي، وهو مؤسسة مالية، والبنك الإيراني، أيضاً مؤسسة مالية، ولكنهما سيتحولان الى واجهة لأحزاب وحركات سياسية، ولن ينعدم في ظل البطالة والخراب من يعمل لديها. ان صورة الخراب الاقتصادي في ظل الانفتاح الذي قاده السادات ستكون مضاعفة لدينا.

وأنهي كلامي بالقول ان امكانية اقامة ديمقراطية بالمعنى الذي نتمناه صعبة في المدى القصير طالما هناك مجتمع يعمل بدورات متوازية. فمن يعمل بالبيع على الأرصفة لا علاقة له كنمط قيم وعلاقات اجتماعية ومنظومات بمن يعمل في شركات الاستيراد والتصدير التي تتعامل مع الولايات المتحدة. وهذا الأخير لا علاقة له بمن يعمل ضمن المؤسسات المالية الاسلامية. وفي حالة عدم وجود آلية تربط فئات المجتمع وتشعرهم بأن الواحد منهم يحتاج الآخر، لن تكون هناك ضرورة لعلاقة دستورية. ولكن يجب أن نميز بين رغبة خيرة للقيام بشيء وبين أرضية سلمية قيامه، والمسافة بين الأمرين كبيرة. ربما سيُحزن العلمانيين القولُ بأنه ربما كان علينا أن نقلل مما نتمناه وأن نرضى كبداية للطريق نحو الديمقراطية بالاعتراف بالطريقة التي يرى الناس أنفسهم بها.

ذلك ان الهويات ليست، ولا يمكن أن تكون حصرية قط. لقد تعودنا أن نحصر الولاء الحديث بالوطن، ولكن حين يشعر المرء بنفسه عراقياً فهذا لا يعني انه لا يمكن أن يشعر بنفسه مسلماً أو مسيحياً أو آشورياً أو كردياً، أو غير ذلك. وهذه الظاهرة ليست عراقية أو عالمثالية بل تجدها في أكثر الدول تقدماً، وفي أحيان تاريخية معينة قد يطغي شكل معين من الهوية ولكن الهويات تكون على الدوام ملتبسة ومتراكبة في ما بينها.

فإذا كان الفرد يرى ان انتماءه العشائري يسبق غيره فعلينا أن نوجد آليات للديمقراطية لا تقول له بأن هذا الأمر مختلف. دعنا نجد أشكالاً لمن يرى نفسه ابن عشيرة قبل أن يكون عراقياً، ودعه يتممه بهذا الشيء حتى يكتشف الى اين يوصله ذلك. أما القفز على حقائق الواقع والقول ان المواطنة تسبق هذا الشيء فإن ذلك يولد ردات فعل متفجرة.

(*) نص المداخلة الشفوية التي قدمها الدكتور عصام الخفاجي في ندوة معوقات الديمقراطية التي اقيمت في هولندا في نيسان 2001، وهو أستاذ جامعي وكاتب .

نشرت في الثقافة الجديدة/ العدد 303/ كانون الأول 2001

نصوص مترجمة

العلاقة الفكرية بين ماركس وأنجلز من وجهة نظر بيئية

كوهي سايتو*
ترجمة بتصرف: حازم كويي

المنظور: إعادة تقييم

1. المقدمة

من المعروف أن ماركس قد تعرض لانتقادات متكررة بسبب "نزعته البرومیثية" المزعومة. أولئك الذين أعلنوا أنفسهم ماركسيين، رأوا أن إنتاجية ماركس لا تتوافق مع البيئة المستدامة. مع اشتداد الأزمات البيئية في سياق العولمة النيوليبرالية، حظيت "إيكولوجيا ماركس" مؤخراً باهتمام متزايد. يستخدم علماء البيئة الاجتماعية مفهوم "التصدع الأيضي" في رأس المال لتحليل الجوانب المُدمرة للإنتاج الرأسمالي: مثل الاحتباس الحراري، وتعطيل دورة النيتروجين، أو انقراض الأنواع. وهكذا أصبحت البيئة أحد المجالات الرئيسية التي يكتسب فيها "رأس المال" لماركس أهمية جديدة بعد 150 عاماً من نشره.

ومع ذلك، لا يتفق جميع الماركسيين مع بيئة ماركس. تدعي المواقف الرافضة أن التعليقات المعزولة في الفصل لا تمثل أساساً نظرياً كافياً للقدرة على مواجهة الأزمة البيئية الحالية بشكل تحليلي. وغالباً ما يُعارض "الماركسيون الغربيون" على وجه الخصوص مشروعاً اشتراكياً بيئياً. ففي مقابلة مع سلافوي جيجيك (فيلسوف وناقد ثقافي سلوفيني - المحرر)، علق بوضوح على أن البيئة هي "أفيون جديد للشعب".

يعود أحد أسباب هذا الرفض إلى مشكلة قديمة تتعلق بـ "العلاقة الفكرية" بين ماركس وإنجلز.

اعتبرت الماركسية الغربية، التي أسسها جورج لوكاش، العلوم الطبيعية من اختصاص أنجلز وفي نفس الوقت أهملت انشغال ماركس بها. لذا يجد نفسه في معضلة عدم قدرته على تطوير نقد ماركسي للبيئة دون الاعتراف بانحيازهِ السابق إلى جانب واحد. بسبب هذه المعضلة، واجه مفهوم الاشتراكية البيئية معارضة مذعورة من بعض الماركسيين.

تم تطوير نهج أكثر نضوجا من قبل جون بيلامي فوستر وبول بوركيت. فقد طورا بدءاً من النقطة التي لم تكن فيها وجهات نظر ماركس وأنجلز متباعدة بشأن البيئة، مفهوم التصدع الأيضي باستخدام الإطار المنهجي الذي وضعه ماركس بشكل فعال لتحليل المشاكل البيئية المعاصرة، التي تدعم أهمية البيئة الماركسية اليوم. كما أظهرا أن بيئة ماركس هي جزء لا يتجزأ من مشروعه الأكبر لنقد الاقتصاد السياسي والتفاوض

بشأن علاقة ماركس بالاقتصاد البيئي. ومع ذلك، فإن هذا النهج يثير سؤالا، هو ما إذا كانت الاختلافات بين ماركس وأنجلز في ما يتعلق بالاقتصاد السياسي - التي لا يجادل فيها فوستر وبوركيت - تؤدي في النهاية إلى مفاهيم مختلفة في الإيكولوجيا.

يتخذ هذا المقال مقاربة تركيبية: من خلال التركيز على تفاعل ماركس مع العلوم الطبيعية، التي تجاهلتها الماركسية الغربية، ويجب تسليط الضوء على الاختلافات بين البيئة الخاصة لكل من ماركس وأنجلز. بناءً على أسس التعاون ووجهات النظر المشتركة لماركس وإنجلز، يربط التحليل الحالي رأس المال بالمواد المنشورة حديثاً من النسخة الكاملة لماركس-إنجلز والتي لم يأخذها فوستر وبوركيت في الاعتبار. هذا النهج يجعل من الممكن رسم الخطوط العريضة لخط فكري نظري لمزيد من التطوير لمشروع ماركس غير المُكتمل لرأس المال في القرن الحادي والعشرين.

2. التقسيم الفكري للعمل؟

اعتبرت الماركسية الغربية العلم الطبيعي تخصص إنجلز ومَيزتهُ عن فلسفة ماركس من أجل الحفاظ على الأخير من الحتمية الميكانيكية والاقتصادية لـ "المادية الديالكتيكية" السوفيتية. لأنه إذا كان جورجي بليخانوف محقاً في وجود ديالكتيك مستقل عن الطبيعة، فسيكون من الممكن بشكل أساسي تصميم منهج ديالكتيك مع العلوم الطبيعية ثم نقله إلى المجتمع البشري. وجدت الماركسية الغربية أن مثل هذا الاستنتاج الوضعي إشكالي، وسعت إلى حماية الماركسية من وجهة نظر ميكانيكية للعالم من خلال اختزال الديالكتيك في الإنسان.

المجتمع محدود. تم التأكيد على نوع من التقسيم الفكري للعمل بين ماركس وإنجلز، حيث كان الأخير بمثابة كبش فداء للتوسع غير المقبول للديالكتيك في الطبيعة. ومن المفارقات أن أنجلز نفسه أشار إلى تقسيم العمل هذا. في مقدمة الطبعة الثانية من Anti-Duhring، التي نُشرت بعد وفاة ماركس، كتب إنجلز: "كان ماركس عالم رياضيات دقيق، لكننا لم نتمكن من متابعة العلوم الطبيعية إلا شيئاً فشيئاً، بشكل متقطع". على أية حال قام إنجلز فيما بعد بعمل إنسلاخ "رياضي وعلمي كامل، كما يسميه ليبيغ" في الحقيقة، فإن "مناهضة دوهرينغ" و"ديالكتيك الطبيعة" يشهدان على انشغال أنجلز المكثف بالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا. فقد كان لعمله تأثير كبير على تشكيل النظرة الماركسية التقليدية للعالم، لأسباب ليس أقلها أن ماركس لم يكتب أي عمل عن موضوع الطبيعة.

لكن في مقدمة كتابه "ضد دوهرينغ"، حجب إنجلز تفصيلاً هاماً عن قُرائه.

وبصفته في ذلك الوقت محرر رأس المال، كان يبحث في مخطوطات وملاحظات ماركس - لذلك كان يعلم أن ماركس قد تعامل بشكل مكثف مع العلوم الطبيعية. لم يذكره أنجلز، بل أعلن بدلاً من ذلك أن ماركس قد أتبعَ العلوم الطبيعية "فقط بشكل مجزأ وغير منتظم ومتقطع".

في رسالة إلى إنجلز بتاريخ 4 يوليو 1864، ذكر ماركس، أن إنجلز شجعه على قراءة فسيولوجيا وتشريح الجهاز العصبي والدماغ لكاربنتر، وكتب "سأتبع خطواتك دائماً". ومع ذلك، بعد قراءة الطبعة السابعة من الكيمياء الزراعية لليبيغ في عام 1865، تعمق ماركس

في العلوم الطبيعية. فبدءاً من عام 1868 فصاعداً، تضمنت قائمة القراءة الخاصة به عناوين من تخصصات مختلفة مثل الكيمياء والجيولوجيا وعلم المعادن وعلم وظائف الأعضاء وعلم النبات.

وفي 19 ديسمبر 1882، أقرَ إنجلز أن ماركس كان أكثر دراية بمشكلة زيادة الانتروبيا الناتجة عن استهلاك الوقود الأحفوري: الإنسان ليس فقط عامل تثبيت للحاضر، بل يُبدد الحرارة الشمسية أكثر من الماضي [...]. أنت تعرف أفضل مني ما نفعله في إهدار إمدادات الطاقة، والفحم، والخامات، والغابات، وما إلى ذلك. ومع ذلك، بدلاً من ذكر هذه النقطة في مقدمة "ضد دوهرينغ"، أوضح إنجلز أن ديالكتيك الطبيعة كان تطبيقاً للديالكتيك، الطريقة التي أسسها وطورها ماركس.

هذا غريب. شدَدَ إنجلز على أن الأفكار التي طورها في كتابه "أنتي دوهرينغ" كانت متوافقة تماماً مع آراء ماركس، وأنه "قرأ له المخطوطة بأكملها قبل طباعتها" وأن ماركس يتفق معه تماماً. ومع ذلك، فإن إنجلز قدم هذا "الاعتراف" فقط بعد وفاة ماركس. في الوقت نفسه، لم يذكر دراسة ماركس المكثفة للعلوم الطبيعية، على الرغم من أن مجموعة ملاحظات ماركس حول العلوم الطبيعية هي على الأرجح الدليل الأكثر شمولاً على أن "ديالكتيك الطبيعة" يجب أن يُفهم على أنه مشروع تعاوني. لذلك من المنطقي قراءة هذا الصمت غير العادي: ضمنياً اعترف إنجلز أن العلوم الطبيعية لها معنى مختلف عند ماركس بالنسبة له.

3. الصدع الأيضي: النظرية ومدياتها

من المعروف الآن أن كُلاً من ماركس وإنجلز كان لهما اهتمام كبير بالعلوم الطبيعية، فإن أحادية انحياز الماركسية الغربية أصبحت واضحة.

ومع ذلك، ليس من السهل أن نستنتج من هذا أن كلاهما له نفس الاهتمام بالبيئة. والمطلوب دراسة أكثر تفصيلاً.

بالطبع، ليس كل الماركسيين الغربيين يستحقون النقد على حد سواء. دان لوكاتش في البداية تطبيق الديالكتيك على الطبيعة، لكنه غير موقفه في ما بعد، وأقر بأن ماركس لم يفهم "المجتمع" و"الطبيعة" كمجالين منفصلين تماماً، لكنهما متشابكان. أدرك لوكاتش أن هذه الوحدة تجد تعبيراً عنها في مفهوم "التمثيل الغذائي"، والذي أصبح المفهوم المركزي للتحليلات الماركسية المتمثل بـ "التمزق الايضي". أهم جانب في مفهوم ماركس عن التمثيل الغذائي هو وصف العمل المقدم في "رأس المال" باعتبارهِ التأثير الوسيط لعملية التمثيل الغذائي بين الإنسان والطبيعة:

"العمل هو أولاً وقبل كل شيء عملية بين الإنسان والطبيعة، وهي عملية يتوسط فيها الإنسان وينظم ويتحكم في التمثيل الغذائي مع الطبيعة من خلال أفعاله".

في كل مجتمع، يجب على الناس العمل مع الطبيعة بوعي، وهدف واضح من أجل تلبية احتياجاتهم والقدرة على العيش على الأرض. استخدم ماركس مصطلح "التمثيل الغذائي" لوصف هذه العلاقة فوق التاريخية بين الإنسان والطبيعة. ومع ذلك، يمكن أن يتخذ هذا التمثيل الغذائي أشكالا ملموسة مختلفة، اعتماداً على كيفية تنظيم نشاط التوسط في العمل اجتماعياً. في مخطوطة أسس نقد الاقتصاد السياسي لماركس، أشار إلى أنه في ظل ظروف الإنتاج الرأسمالية، يوجد "فصل" بين الإنسان

والطبيعة. على هذه الخلفية، يحلل ماركس في كتاب "رأس المال" اغتراب الإنسان عن الطبيعة في ظل علاقات الإنتاج الرأسمالية.

وكما تم توضيحه في المجلد الأول من "رأس المال"، تتخذ "عملية العمل" فوق التاريخية في الرأسمالية شكلاً جديداً باعتبارها "عملية تثمين". تبعا لذلك تتغير عملية التمثيل الغذائي بين الإنسان والطبيعة. كان الهدف في مجتمعات ما قبل الرأسمالية هو إنتاج قيم استعمالية ملموسة، لكن الإنتاج الرأسمالي معني في المقام الأول بإنتاج القيمة. وفي حين أن العمل كان يُنفذ في ظل قيود اجتماعية وطبيعية ويخدم لتلبية احتياجات محددة، فإن الإنتاج الرأسمالي يسعى للاستغلال المتواصل. وهكذا تتم إعادة تنظيم العمل والطبيعة بشكل أساسي، أي وفقاً لأكبر قدر ممكن من تجسيدات العمل المجرد.

في ظل أولوية منطق استخدام رأس المال، تصبح تأثيرات الطبيعة والعمل الملموس في عملية العمل شيئاً مجرداً ومرؤوساً. إن عملية التمثيل الغذائي بين الإنسان والطبيعة تتوسطها القيمة كموضوع للعمل التجريدي، وهو ليس سوى إنفاق قوة العمل البشرية بشكل عام.

إنها تتغير بطريقة تجعلها ذات فائدة كبيرة لتثمين رأس المال. يشير ماركس في كتاب "رأس المال" مراراً وتكراراً إلى أن هذا التحول في العالم المادي بغرض خلق فائض القيمة له سمات مفترسة ويمكن أن يكون له تأثير مدمر: إن "الجشع الاعمى الذي استنزف الأرض من جهة، استولى من جهة أخرى على حيوية الأمة من جذورها". تناول ماركس المشكلة، الهدر الرأسمالي في ما يتعلق بالعاملين الأساسيين للإنتاج: استنفاد "قوة العمل" و"القوى الطبيعية".

كما هو معروف جيداً، كانت كيمياء ليبيغ الزراعية هي التي دفعت ماركس إلى استكمال "رأس المال" بتحليل "السرقة" لنظام الزراعة. انتقد ليبيغ الزراعة الرأسمالية الحديثة ووصفها بالاستغلال المفرط الذي كان من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من الانتاج ومكاسب قصيرة الأجل، وبالتالي تخلق ظروفاً يمكن فيها للنباتات تناول أكبر عدد ممكن من العناصر الغذائية دون أن تتجدد التربة. حتى أنه حذر من انهيار الحضارة الأوروبية نتيجة نضوب التربة وما يصاحب ذلك من ضياع للأسس المادية.

في "رأس المال"، أشاد ماركس بـ"المزايا الخالدة" ليبيغ، وتعرضه لـ "الجانب السلبي للزراعة الحديثة". وفقاً لماركس، فإن الإنتاج الرأسمالي هو عقبة أمام "عودة مكونات التربة التي يستخدمها الإنسان في شكل غذاء وملبس إلى التربة، أي الحالة الطبيعية الأبدية لخصوبة التربة الدائمة. في الوقت نفسه، فهو يدمر الصحة الجسدية لعمال المدينة والحياة الفكرية لعمال المزارع".

خلال القرن التاسع عشر، تطور نضوب التربة إلى مشكلة اجتماعية. وجد الطعام الذي تناوله عدد سكان المدن المتزايدة طريقه إلى الأنهار عبر المراحيض كمياه الصرف الصحي. أدى تراكم الفضلات إلى انتشار الرائحة الكريهة في مدن مثل لندن، وانتشرت أمراض مثل الكوليرا. إن العداء بين الزراعة والصناعة واضح هنا. بالإشارة إلى الكيمياء الزراعية لليبيغ، صاغ ماركس استنفاد التربة على أنه تناقض خلقه الإنتاج الرأسمالي في إطار التمثيل الغذائي بين الإنسان والطبيعة.

قدّر ماركس أيضاً عمل ليبيغ كثيراً لأن الكيمياء الزراعية قدمت له أساساً علمياً لتحليله

النقدي للتقسيم الاجتماعي للعمل، والذي وصفه بالفعل في "الأيديولوجية الألمانية" بأنه "فصل بين المدينة والريف".

بفضل قراءة ليبيغ، أدرك ماركس أنه يجب أن يتعمق أكثر في كيفية تغيير الرأسمالية وتآكل العلاقة بين البشر والطبيعة. بعبارة أخرى، هذا هو سبب رغبته في دراسة العلوم الطبيعية بشكل مكثف، للتحقيق في أسباب ونتائج ما يصفه في المجلد الثالث من رأس المال بأنه "صدع غير قابل للشفاء" في عملية التمثيل الغذائي العالمي للطبيعة. تأريخياً، تم حل مشكلة نضوب التربة بسبب نقص المواد غير العضوية إلى حد كبير مع إدخال عملية هابربوش، التي مكنت من إنتاج الأمونيا صناعياً بكميات كبيرة. ومع ذلك، فإن زيادة استخدام الأسمدة الكيماوية يؤدي إلى مشاكل أخرى مثل انخفاض مستويات المياه، وانخفاض القدرة على الارتباط بالمغذيات وقابلية أكبر للإصابة بالأمراض والحشرات. يتم إطلاق النيتروجين المتبقي في التربة في البيئة ويسبب تكاثر الطحالب، بينما يؤدي النيتروجين إلى تلويث المسطحات المائية والنباتات. وبهذه الطريقة، فإن "الشقوق" في عملية التمثيل الغذائي ليست ثابتة، ولكنها "تتحول" إلى مشكلة في مناطق أخرى. توجد "تحولات أيضية" مماثلة في مجال الصناعات الاستخراجية مثل إنتاج النفط وتعدين المعادن النادرة. نظراً لأن عملية إعادة التدوير لا يمكن أبداً أن تأخذ في الاعتبار بشكلٍ كافٍ عملية التمثيل الغذائي بين الإنسان والطبيعة، فإن تنفيذ أساليب الإنتاج المستدامة في ظل الرأسمالية يواجه عقبات لا يمكن التغلب عليها. يقدم مزيج ماركس من نظرية القيمة والتمثيل الغذائي في "رأس المال" أساساً مفاهيمياً لتحليل نقدي للاستغلال المفرط للرأسمالية.

4. إنجلز والرأسمال

ظلت جهود ماركس الجادة لاستيعاب العلوم الطبيعية غير مكتملة، لأنه توفي قبل أن يتمكن من إكمال عمله "رأس المال". وعليه، فإن تحرير المجلدين الثاني والثالث وقع على عاتق أنجلز. عندما تجاهل مجموعة ملاحظات ماركس حول العلوم الطبيعية في كتابه "أنتي دوهرينغ"، ظهر بالفعل اختلاف دقيق في المعنى بين ماركس وأنجلز في مفهوم التمثيل الغذائي. تتضح هذه النقطة أيضاً في ما يتعلق بتحرير إنجلز لرأس المال.

لقد أدرك إنجلز بلا شك أهمية نقد ليبيغ للاستغلال المفرط في الزراعة. ففي مسألة السكن، على سبيل المثال، أشار إلى ليبيغ إلى "التناقض بين المدينة والريف". ودعا إلى استعادة "الصلة الوثيقة بين الإنتاج الصناعي والزراعي"، على غرار ما نادى به "البيان الشيوعي" من أجل "توحيد العمليات الزراعية والصناعية".

بالإضافة إلى ذلك، توسع إنجلز في سياق عمله التحريري في المجلد الثالث من وصف رأس مال ماركس للنظام الزراعي المفترس مع بعض الأمثلة الملموسة. لذلك أضاف المقطع التالي: "في لندن، على سبيل المثال، لا يعرف [الاقتصاد الرأسمالي] أن يفعل شيئاً أفضل لفضلات 4.5 مليون إنسان كسماد بدلاً من استخدامه لتلويث نهر التايمز". هنا يظهر التعاون الفكري بين ماركس وإنجلز على الفور.

ولكن عندما يتعلق الأمر بمفهوم "التمثيل الغذائي"، تبدو الأمور مختلفة. على الرغم

من أن إنجلز كان يعلم أن ماركس قد حلل مشكلة نضوب التربة باستخدام مفهوم ليبيغ عن التمثيل الغذائي، إلا أنه تعمد تغيير جملة محددة للغاية في المجلد الثالث من رأس المال. كتب ماركس في المخطوطة الأصلية:

"وهكذا، فإن ملكية الأرض الكبيرة تنتج [...] ظروفاً تؤدي إلى حدوث صدع لا يمكن علاجه في العلاقة بين الاجتماعي والطبيعي، من خلال القوانين الطبيعية للتربة، حددّت العلاقة الفكرية بين ماركس وأنجلز عملية التمثيل الغذائي، ونتيجة لذلك دُمرت قوة التربة وينتقل هذا الدمار إلى ما وراء حدود بلد المرء عن طريق التجارة. (ليبيغ)".

في إشارة إلى ليبيغ، أكد ماركس على خطر حدوث اضطراب عالمي هائل في العلاقة المتبادلة بين "التمثيل الغذائي الاجتماعي" (الإنتاج الرأسمالي، التداول والاستهلاك).

وطور "التمثيل الغذائي الطبيعي" مفهوماً واضحاً للعلاقة المتوترة بين تحديد الشكل الاقتصادي الرأسمالي والخصائص الطبيعية للعالم المادي.

غيّرَ إنجلز الجزء الأول من الجملة على النحو التالي: "إنه بذلك يخلق ظروفاً تؤدي إلى تمزق لا يمكن إصلاحه في سياق التمثيل الغذائي الاجتماعي المنصوص عليه في قوانين الحياة الطبيعية "الأيض الطبيعي" لم يعد مذكوراً صراحةً والتربة "تصبح حياة"، مما يطمس التناقض بين الأيض المجتمعي والطبيعي". بالطبع في بعض الحالات قام أنجلز بمراجعة الصياغات غير الواضحة أو المُربكة أو الخاطئة لماركس. لكن في المثال المقتبس، ليس من الواضح فقط ما يسعى إليه ماركس - إنه أيضاً ممر رئيسي لنظريته في التمثيل الغذائي. كيف يتم إذن تصنيف تغييرات إنجلز؟

للإجابة على هذا السؤال، من المفيد إلقاء نظرة على "ديالكتيك الطبيعة" لإنجلز. في كتابه "ضد دوهرينغ"، قصد إنجلز فهم القوانين التي تحكم الطبيعة والتاريخ، وقبل كل شيء، "استخلاصها من هذا الشكل الصوفي [الهيغلي] وإحضارها إلى الوعي بكل بساطتها وصلاحيتها الشاملة". كان من المفترض أن يكون المشروع مادياً، متجنباً سوء الفهم الهيغلي لـ "بناء القوانين الجدلية في الطبيعة" - كان هدف إنجلز "العثور عليها في الطبيعة وتطويرها منها". بمعنى آخر، كان مهتماً بفهم قوانين الطبيعة الموضوعية. بدلاً من شرح الظواهر الطبيعية بطريقة معرفية بمنهج ديالكتيكي، اتبع أنجلز مقاربة وجودية. كان لا بد من وضع الديناميكيات المتأصلة في الطبيعة وتطورها بشكل ديالكتيكي.

وفوق كل ذلك، فإن "ديالكتيك الطبيعة" عند إنجلس مُرتبط بالمطلب العملي لتحقيق "الحرية" من خلال "التمكن" و"السيطرة" على الطبيعة الخارجية. في الواقع، حسب إنجلز، فإن بناء الاشتراكية كمجتمع حر يعني أيضاً أن نصبح "سادة واعين حقيقيين للطبيعة": "القوى الموضوعية الغريبة التي حكمت التاريخ حتى الآن تقع تحت سيطرة الناس أنفسهم. عندها فقط يصبح الناس على وعي تام بصنع تأريخهم، ومن ذلك الوقت فصاعداً سوف تصبح القضايا الاجتماعية التي تحركها هي السائدة، والتي لها تأثيراتها المطلوبة. إنها قفزة الإنسانية من عالم الضرورة إلى عالم الحرية".

وفقاً لأنجلز، لكي يتمكن الناس من تحقيق قفزة إلى عالم الحرية، لا يتعين عليهم فقط إلغاء القاعدة الموحدة لرأس المال، التي تعمل بشكل

مستقل عن الوعي والفعل البشري، ولكن أيضاً تبني قوانين الطبيعة بشكل كامل.
ومع ذلك، لم يعتقد أنجلز أن معرفة القوانين الطبيعية ستؤدي إلى التلاعب التعسفي بالطبيعة. حيث حذر في عمله "ديالكتيك الطبيعة" من "انتقام" الطبيعة قائلاً:
"دعونا لا نتملق لأنفسنا كثيراً، مع ذلك، بانتصاراتنا البشرية على الطبيعة. مقابل كل انتصار من هذا القبيل، فإنها تنتقم منا".
أدرك أنجلز حدود الطبيعة وانتقد التفاعل البشري التعسفي مع الطبيعة، وخاصة الإنتاج الرأسمالي الموجه نحو تعظيم الأرباح قصيرة الأجل. عندما يتم تجاهل قوانين الطبيعة، يفشل التمكنُ من الطبيعة، وينتج عن العمل عواقب لا يمكن التنبؤ بها: يتوقف الناس عن أن يكونوا نشطين، ويضطرون إلى الرد بشكل سلبي على قوى الطبيعة التي يتعرضون لها.
إن "انتقام" الطبيعة هو الشخصية الرئيسية في إيكولوجيا أنجلز ونقده لتعظيم الربح قصير النظر. كما غيَّر أنجلز المقطع حول الصدع الأيضي في المجلد الثالث من "رأس المال" وفقاً لعامل انتقام الطبيعة. في الطبعة التي حررها، أكد أنجلز أن تجاهل قوانين الحياة الطبيعية سيكون مدمراً للحضارة الإنسانية.
في المقابل، فإن النهج المنهجي الخاص بنظرية الأيض عند ماركس، والذي يرغب في تتبع كيف أن قانون القيمة الذي يحدد التمثيل الغذائي الاجتماعي يثقل كاهل التمثيل الغذائي الطبيعي ويسبب صدعاً لا يمكن إصلاحه، وجد أنجلز أن صياغة ماركس الخاصة للعلاقة بين التقييم الاقتصادي والعالم المادي كان من الصعب على القراء فهمها، وبالتالي قام بتكييف الجملة مع الفكرة الأكثر "سهولة للوصول" لانتقام الطبيعة.

يتعلق هذا التحرير أيضاً بحقيقة أن أنجلز لم يقدر نظرية ليبيغ الأيضية. عندما تحدث عن مفهوم ليبيغ للاستقلاب في "ديالكتيك الطبيعة"، فهو ينتقدهُ على أنه "متعجرف" في علم الأحياء.
فيما يتعلق بمسألة أصل الحياة، أنكر ليبيغ إمكانية التطور التاريخي للحياة العضوية وأيد فرضية "الحياة الأبدية" "المستوردة" إلى الكوكب من الفضاء الكوني. من ناحية أخرى، جادل أنجلز في أن الحياة عملية أيضية تطورت وظهرت من غير الأحياء، وهو ما يؤكده بوجود "البروتين". ويرى: "الحياة هي نمط وجود الأجسام البروتينية، والتي تتمثل لحظتها الأساسية في التمثيل الغذائي المستمر مع الطبيعة الخارجية المحيطة بها".
نظر أنجلز إلى العملية الكيميائية لاستيعاب البروتين وإفرازه كأصل الحياة واعتبر أيضاً أنه من الممكن إنتاج كائن حي صناعياً من خلال إنتاج البروتين في المختبر.
في عام 1840، وصف ليبيغ عملية امتصاص العناصر الغذائية، والاستيعاب، والإفراز بأنها "أيض أو استقلاب" وحاول شرح نشاط الحياة كعملية كيميائية، على الرغم من أنه لم يرغب في التخلي عن آرائه الحيوية تماماً.
رفض أنجلز حيوية ليبيغ القائمة على الفصل بين البيولوجيا والكيمياء ووجه انتباهه إلى المبادئ التي يتعذر تفسيرها لجميع الكائنات الحية. يرى أنجلز أن الأجسام غير العضوية لها عملية أيض تتكون من التبادل الكيميائي مع بيئتها. بعد الأصل التاريخي "للبروتين" يظهر هذا التمثيل الغذائي نفسه في شكل الحياة.
وهكذا أكد مفهوم أنجلز عن التمثيل الغذائي على الأصل التاريخي للبروتين، لكنه رفض

مفهوم ليبيغ لعملية التمثيل الغذائي، ولم يطبق المفهوم على القضايا البيئية. ونتيجة لذلك، فقد أنجلز فرصة استخدام نظرية التمثيل الغذائي لبحث العلاقة بين الإنسان والطبيعة من منظور فوق تأريخي، وكشف خصوصيات وتناقضات هذه العلاقة في ظل ظروف الإنتاج الرأسمالي. بدلاً من ذلك، حصر إنجلز مفهوم التمثيل الغذائي في نطاقه النظري في عملية نشأة الحياة وظهورها، والتي تحدث بشكل مستقل عن البشر.

في مناهضة دوهرينغ، فإن المنبع الرئيسي للديالكتيك، الذي يتسم بـ "نفي النفي"، هو "قانون [...] في النباتات والحيوانات، في الجيولوجيا، في الرياضيات، في التاريخ، في الفلسفة ". في الأساس لا يُفهم "التمثيل الغذائي" من الناحية البيئية، بل كدليل على أن هذا القانون يتغلغل في الطبيعة بأسرها.

على الرغم من أن أنجلز استند جزئياً إلى منظور ليبيغ، إلا أنه لم يتبنَّ فكرة التمثيل الغذائي المُضطرب بين الإنسان والأرض من رأس المال، لكنه احتفظ بـ "نقيض المدينة والريف" السابق من "الأيديولوجيا الألمانية".

لم يطور أنجلز صورة عميقة مفادها أن التطور النظري لماركس يكمن في تحليله لعملية الأيض المجتمعي والطبيعي المترابطة. بعبارة أخرى، فقدَ أنجلز ما أصبح أساساً لنقد ماركس للاقتصاد السياسي منذ خمسينيات القرن التاسع عشر، أي الاهتمام بكيفية تحويل عملية التمثيل الغذائي بين الإنسان والطبيعة وإعادة تنظيمها من خلال الإدماج الرسمي والحقيقي للعمل تحت رأس المال. في هذه المرحلة، أدت الاختلافات في الاقتصاد السياسي بين ماركس وأنجلز إلى اختلافات في علم البيئة. بالطبع، يمكن إعادة تفسير "فصل المدينة عن الريف" بشكل مُثمر على أنه تناقض بين "المركز" و"المحيط" من أجل تحليل الإمبريالية البيئية الحديثة من منظور النقد البيئي للرأسمالية. ومع ذلك، لا ينبغي أن يؤدي هذا إلى إهمال حقيقة أن ماركس قد بدأ في دراسة التمثيل الغذائي المُضطرب بين الإنسان والأرض.

استند تحليل ماركس إلى إدراك أنه في كل مجتمع يجب على الناس العمل مع الطبيعة. وانطلاقاً من ذلك، درس، لماذا وكيف ينشأ الاغتراب والعلاقة المنحرفة بين الذات والموضوع كنتيجة للشكل المُحدد للعمل في ظل ظروف الإنتاج الرأسمالية. بهذا المعنى، لا يكفي انتقاد الأزمة البيئية بإدانة الإنتاج الضخم الذي يهدف إلى تعظيم الأرباح أو مناشدة أخلاقية التعايش الضروري بين الإنسان والطبيعة. وفقاً لماركس، تعد الأسئلة البيئية أكثر جوهرية وموضوعية بسبب "الفصل" بين الإنسان والطبيعة لشرح ظروف الإنتاج. يجب توضيح كيف يغير منطق رأس المال الشامل كلياً وعي الإنسان وسلوكه، بل ويُعطل عملية التمثيل الغذائي العالمي للطبيعة.

في حين تظل الاعتبارات التي تم تطويرها في الأيديولوجيا الألمانية و"البيان الشيوعي" حول "عكس" و "توحيد" المدينة والريف ثابتة ومجردة، فإن مفهوم التمثيل الغذائي في رأس المال يجعل من الممكن تحليل العمليات التاريخية الديناميكية للإنتاج وتراكم رأس المال. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يوضح الحاجة إلى تنفيذ أسلوب الإنتاج المستدام، بحيث يمكن تغيير شكل العمل جذرياً، أي إلغاء "العمل الخاص" و "العمل المأجور". من ناحية أخرى، استمر أنجلز في التمسك بوجهة النظر التي طورها عام 1840 ورفض نظرية ليبيغ

في التمثيل الغذائي.
ولكونه لم يفهم استقلاب الإنسان والطبيعة كحلقة وصل بين نقد الاقتصاد السياسي والإيكولوجيا، فقد استمر في التمسك بالدافع الثابت لـ "انتقام" الطبيعة. هذا التناقض أدى أيضاً إلى أفكار مختلفة حول مستقبل المجتمع الاشتراكي.

5. جدلية "الهيمنة" و"الانتقام"

رأى ماركس وأنجلز أن السيطرة الواعية والهادفة على قوانين الطبيعة من خلال العمل باعتباره نشاطاً بشرياً فريداً، وغالباً ما وصفاه بـ "السيطرة" على الطبيعة. على سبيل المثال، كتب أنجلز في "أنتي دوهرينغ": " الحرية تتكون من الهيمنة على أنفسنا وعلى الطبيعة الخارجية القائمة على معرفة ضرورات الطبيعة". لذلك فهي بالضرورة نتاج للتطور التاريخي، يحب النقاد رؤية مثل هذه المقاطع كدليل على البروموثيسية "Promethean-ism". ومع ذلك، فإن تحذير إنجلز من "إنتقام" الطبيعة يمثل معارضة، فالسبيل الوحيد لعالم الحرية يكمن في الفهم الصحيح لقوانين الطبيعة والتطبيق الصحيح للمعرفة المكتسبة منها. تعرضت هذه الفكرة أيضاً للنقد مؤخراً. على سبيل المثال، يذكر جيسون دبليو مور، في كتابه "الرأسمالية في شبكة الحياة"، بأن الافتراض "ثابت" من أن الطبيعة ستنتقم يوماً ما من الإنسان إذا استمر تجاهل القوانين الطبيعية. يرفض نيل سميث أيضاً هذا النوع من "التفكير اليساري المروع" في كتابه "التنمية غير المتكافئة".

من ناحية أخرى، لم يربط ماركس تعطيل الرأسمالية لعملية التمثيل الغذائي العالمي للطبيعة بانتقامها. وبدلاً من ذلك، تم النظر في جانبين آخرين في الفصل. الأول هو أن رأس المال لا يقبل القيود التي تفرضها الطبيعة. أشار ماركس أيضاً في "الغروندیسه Grundrisse"، إلى أن مرونة رأس المال هي إحدى نقاط قوته، لأنها تسمح له بالتغلب على الصعوبات في تراكم رأس المال من خلال مزيد من تطوير التقنيات واختراع قيم المنفعة الجديدة تدريجياً لإنشاء "نظام المنفعة العامة". ولكن بما أن رأس المال لا يأخذ في الاعتبار الجوانب المادية الأخرى إلى جانب العمل المجرد، فإن محاولة تجاوز حدود الطبيعة لا تؤدي إلى حل تناقضاتها الخاصة، بل تعمقها على نطاق أوسع. كان بحث هذه العلاقة الديناميكية بين رأس المال والطبيعة أمراً محورياً بالنسبة لماركس الراحل. وبينما صاغ أنجلز قوانين الطبيعة فوق التاريخية على أنها "علم" للكون، تحول اهتمام ماركس البحثي أكثر فأكثر نحو الأسئلة التجريبية في الجيولوجيا والكيمياء الزراعية وعلم المعادن. قبل كل شيء، حاول أن يفهم المرونة الرائعة لرأس المال في العملية التأريخية المترابطة التي يعمل فيها الإنسان مع الطبيعة والطبيعة شرط وجود الإنسان.

ثانيًا، إن وصف ماركس لعملية التمثيل الغذائي المختل يتجنب النبرة المروعة ويؤكد على عامل المقاومة النشطة. إن إطالة يوم العمل اللانهائي وإعادة تنظيم عملية الإنتاج الهادف الى انتاج فائض القيمة يؤديان إلى الاغتراب عن العمل وإلى أمراض جسدية وعقلية. في النهاية، يتطلب هذا تنظيماً واعياً للسلطة المتجسدة، على سبيل المثال من خلال إدخال أيام العمل العادية والتدريب المهني من خلال مؤسسات الدولة، يمكن تصور مسار مماثل فيما يتعلق بالطبيعة. إن اختلال عملية التمثيل

الغذائي العالمي للطبيعة، يجعل من الضروري لتشكيلة التنظيم الاجتماعي لأنشطة الإنتاج أن تكون أكثر وعياً، كما كتب ماركس في كتاب "رأس المال": "لكن [الإنتاج الرأسمالي] يجبر في نفس الوقت، على تدمير الظروف الطبيعية لنشوء عملية التمثيل الغذائي، الذي ينظم بشكل منهجي قانون الانتاج الاجتماعي في شكل يتناسب مع التطور البشري الكامل". وبما أنه لا يمكن أن يؤخذ في الاعتبار تماماً الأبعاد المعقدة لعملية التمثيل الغذائي الاجتماعي والطبيعي، فإن الإنتاج الرأسمالي يؤدي إلى تدمير الطبيعة.

إنه يدمر أي إمكانية للتطور المشترك بين البشر والطبيعة ويعرض خطر الوجود المستمر للحضارة البشرية. فالرأس المال، لا يهمه سوى التراكم، بغض النظر عما إذا كان الكوكب سيبقى غير صالح للسكن للإنسان والحيوان. بدلاً من انتظار انهيار الرأسمالية من خلال انتقام الطبيعة، من الضروري لتحقيق مجتمع المستقبل أن يتخذ أولئك الذين يكافحون الأزمة البيئية العالمية إجراءاتٍ للتحكم بوعي وفعالية في عملية التمثيل الغذائي الخاصة بهم ومع بيئتهم.

في المجلد الثالث من "رأس المال"، كتب ماركس: "الحرية في هذا المجال يمكن أن تتكون فقط من حقيقة أن الإنسان الاجتماعي، المنتجين المرتبطين، الذين ينظمون بطريقة عقلانية التمثيل الغذائي مع الطبيعة، ويضعونها تحت سيطرتهم الجماعية، بدلاً من أن تحكمها قوى عمياء. ينفذونها بأقل جهد وفي ظل أحسن الظروف وأكثرها ملاءمة لطبيعتهم البشرية.

لكن هذا يظل دائماً مجالاً للضرورة. أبعد من ذلك يبدأ تطوير القوة البشرية، التي يُنظر إليها على أنها غاية في حد ذاتها، عالم الحرية الحقيقي، الذي لا يمكن أن يزدهر إلا في عالم الضرورة كأساس له".

كما أشرنا، شدد أنجلز على الحاجة إلى تطبيق قوانين الطبيعة بوعي و"عالم الحرية" يقوم على وجه التحديد في السيطرة على الطبيعة. ماركس أكد نقطة أخرى. فقد كان الشرط الضروري بالنسبة له أيضاً هو أن يدخل المنتجين في تحالف مشترك، في ضوء التمثيل الغذائي المضطرب ويضعون "القوة العمياء" تحت سيطرتهم الواعية. وإلا فإن الوجود البشري مُعرض للخطر. ومع ذلك، "يظل هذا دائماً مجالاً للضرورة". يجب أن يدور المجتمع الجديد القائم على التحالف حول التطور الحر للفرد، والذي يتجاوز العمل المُحرر. العمل ضروري للوجود البشري، لكنه مجرد نشاط إنساني. إذا كان العمل المحرر ممكناً باستخدام القوى المنتجة التي تم تطويرها في ظل الراسمالية، فعند توسيع وقت الفراغ الى ما بعد العمل المحرر، يجب أن يكون عالم الحرية الحقيقي ممكناً.

بالنسبة لماركس، الحرية لا تشير فقط إلى التنظيم الواعي للقوانين الطبيعية على أساس العلوم الطبيعية، ولكن أيضاً إلى الأنشطة الفنية، وتنمية علاقات الحب والصداقة والأنشطة الترفيهية مثل الرياضة والأدب.

من ناحية أخرى، ظل أنجلز مرتبطاً بديالكتيك الطبيعة وشدد على ظهور الحرية البشرية من معرفة قوانين الطبيعة العابرة لتأريخ الطبيعة، حيث ستدرك السيطرة على الطبيعة على الفور مجال عالم الحرية. بسبب هذا المعنى المختصر لمجال الحرية، لم يهتم أنجلز بالتطور الكامل للفردانية في الشيوعية، التي كانت في المقدمة بالنسبة لماركس، لكنها

اعتمدت على المفهوم الهيغلي للحرية. وهكذا، يمكن أن تصبح الحرية حقيقة واقعة من خلال السعي الواعي لما هو ضروري.

6. مجموعة من الملاحظات والنقد للاقتصاد السياسي

تساعد نظرية ماركس في التمثيل الغذائي أيضاً في فهم أهمية ملاحظاته حول العلوم الطبيعية، المكتوبة منذ عام 1868. تحتوي هذه المجموعات غير المعروفة من الملاحظات على أدلة حول الشكل الذي قد تبدو عليه الأجزاء غير المكتوبة من "رأس المال". في الواقع، لم يقتصر اهتمام ماركس بالعلوم الطبيعية على نظريته عن الريع. يتجاوز ليبيغ الى أبعد من ذلك ويتعامل مع العلاقة المتناقضة والمعاد تنظيمها بين الإنسان والطبيعة في ظل الإنتاج الرأسمالي. باختصار، يتعلق الأمر بفهم كيف تحدد القوة المُجسدة لرأس المال عملية التمثيل الغذائي العالمي وتؤدي إلى تناقضات في العالم المادي.

وتتمتع بأهمية خاصة في هذا السياق مقتطفات ماركس من العالم الزراعي الألماني كارل فراس، ففي رسالته الى أنجلز كتب ماركس أنه خلال تدوينه المكثف للملاحظات، وجد عند فراس ميلاً اشتراكياً (غير واع)، التغيرات المناخية في بلاد ما بين النهرين ومصر واليونان نتيجة لإزالة الأشجار على نطاق واسع، وبتحفيز من كلمات الثناء لماركس قرأ أنجلز لاحقاً كتاب فراس عن المناخ وعالم النباتات، حيث تحتوي ملاحظات أنجلز في الفترة من 1879 إلى 1880 مقتطفات من هذا الكتاب، على الرغم من أنها مختصرة، حيث ضمنها في كتابه ديالكتيك الطبيعة، لكن إعادة صياغته تشهد على ان قراءة أنجلز لفراس تأثرت بماركس، ومقارنة بعام 1864، تغيرت العلاقة الفكرية بين ماركس وإنجلز بما يتعلق بالعلوم الطبيعية.

في هذا الصدد، فإن المثال الأول الذي يجب الاستشهاد به هو أن ماركس، في الرسالة المذكورة أعلاه، شدد على رؤية فراس بأن "الثقافة إذا كانت تقدمية بشكل طبيعي وغير متقنة بوعي تترك وراءها الصحاري"، ونحن نوازي ملاحظة أنجلز التالية من: "إن الثقافة الشعبية المتقدمة تترك وراءها صحراء تماماً". وكتب أنجلز باختصار أن عمل فراس مهم، لأنه "الدليل الرئيسي على أن الحضارة هي عملية عدائية، تستنزف الأرض، وتدمر الغابة، تجعل التربة قاحلة لمنتجاتها الأصلية وتزيد من سوء المناخ". وكمثال على ذلك، أشار إلى أن درجات الحرارة في ألمانيا وإيطاليا قد ارتفعت بمقدار "6-5 درجات مئوية" [درجات ريومور] في المتوسط. وقد انعكس ذلك في فكرة أن الانتاج غير الواعي يؤدي الى "الخراب" كما كتب عنها إنجلز في ديالكتيك الطبيعة.

ويُكمل أنجلز، مردداً صدى عمل فراس: "إن الأشخاص الذين قطعوا الغابات في بلاد ما بين النهرين واليونان وآسيا الصغرى وأماكن أخرى من أجل الأراضي الصالحة للزراعة لم يحلموا بأنهم بذلك يضعون الأساس للخراب الحالي لتلك الأراضي من خلال حرمانها من مراكز تراكم تجميع حاويات الرطوبة للغابات".

ثانياً، في الرسالة نفسها، كتب ماركس أن فراس كان "داروينياً قبل داروين"، بينما اقتبس أنجلز مقطعاً من عمل فراس يذكرنا بـ "الانتقاء الطبيعي" لداروين: في نفس الوقت، فإن شجرة البلوط حساسة جداً لعوامل

المناخ المادية المذكورة. وحتى مع حدوث تغير طفيف فيها، يتخلف عن منافسة التقدم الطبيعي والحفاظ على الذات ضد الأنواع الأخرى الأكثر صلابة وقوة. وبالضد من صور الغابات المتنافسة والأكثر صرامة والأقل حساسية"، فسر أنجلز تصريحات فراس كدليل مضاد لـ "الإيمان بثبات الأنواع النباتية" على أساس الجدل الداروينى.

مع ذلك، فإن اهتمام ماركس بفراس لم يقتصر على فكرة انتقام الطبيعة والاعتبارات الداروينية. ففي بداية عام 1868، قرأ ماركس بدقة مقدمة فراس وجورج لودفيغ فون موريز، لتأريخ دستور الأراضي الحدودية زمن الإقطاع، المحكمة، القرية، والمدينة والسلطة العامة. وفي ذلك يتعامل المؤرخ القانوني موريز مع نظام الملكية العقاري الألماني. في الرسالة المذكورة أعلاه إلى أنجلز في 25 مارس 1868، وجد ماركس أن عمل موريز يشهد على "أتجاه اشتراكي". في هذا السياق، لماذا درس ماركس المجتمع الألماني، وهو موضوع يبدو أنه لا علاقة له بالعلوم الطبيعية.

يمكن العثور على دليل في كتابات فراس، في كتاب الأزمات الزراعية وعلاجاتها، المنشور عام 1866 والمقتبس من موريز، قدم فيها تقييماً لاستدامة المجتمعات الألمانية.

"إذا كانت القرية، بالطبع، لا تسمح ببيع الخشب أو التبن أو القش أو حتى السماد، وكذلك الماشية (الخنازير!) إلا للقرويين، وأمرت بأن يتم بيع واستهلاك جميع المحاصيل الحقلية المزروعة فيما بينهم داخل سوقهم، بما في ذلك النبيذ، (ما أدى غالباً إلى حق الحظر)، عندئذ لم يكن هناك نقص لديهم في الوسائل للحفاظ على قوة الحقول فحسب، بل من خلال استخدام الغابات والمراعي أو حتى المروج المروية بالأنهار، التي تمنح زيادة في قوة الأرض في كل مكان [...]. "(فراس 1866، 210)

حجة فراس، لا تتمثل في أن كل مجتمعات ما قبل الرأسمالية، التي تجهل قوانين الطبيعة، تركت وراءها الدمار. بدلاً من ذلك، كان الأرجح أن إنتاجية التربة قد زادت في المجتمع الألماني، بشرط أن يكون الإنتاج مستداماً. على عكس المجتمعات اليونانية والرومانية، حيث كان الإنتاج السلعي موجوداً بالفعل إلى حد ما وحيث كانت الرابطة المجتمعية فضفاضة إلى حد ما، فقد سنت المجتمعات الألمانية سيطرة مجتمعية على استخدام الأراضي، وبالتالي تمكين الإدارة المستدامة. عند قراءة عمل فراس، لجأ ماركس إلى تحليل موريز من أجل تتبع "الاتجاه الاشتراكي" بشكل أكبر. نتيجة لذلك، قام بقياس التمثيل الغذائي بين الإنسان والطبيعة في مجتمعات ما قبل الرأسمالية.

بدلاً من التركيز على انتقام الطبيعة بتجاهل قوانينها في مجتمعات ما قبل الرأسمالية، أدرك ماركس أن التمثيل الغذائي المُصمم بشكل مستدام بين الإنسان والطبيعة في الإنتاج التعاوني هو مصدر "قابلية البقاء". ففي مسودات رسالة إلى فيرا ساسوليتش، أشار ماركس مرة أخرى إلى موريز مجادلاً، بأن روسيا يمكن أن تشرع في مسار اشتراكي، إذا عادت إلى قدرة حياة المجتمعات القديمة ولم تتبع مسار التنمية للرأسمالية الغربية.

هذه الحيوية تتغذى على قوة المجتمعات الزراعية. تم التوسط في التمثيل الغذائي هناك بطرق مختلفة اختلافاً جوهرياً عن الرأسمالية، حتى لو حدث هذا بطريقة غير واعية من خلال التقاليد والأعراف أكثر من معرفة قوانين الطبيعة. وبفضل إستدامته،

يمكن أن يوفر هذا التمثيل الغذائي أساساً مادياً لمقاومة تقدم منطق رأس المال. ولأن فراس وموريز أكدا على هذه الحيوية، فقد اكتشف ماركس نزعة اشتراكية في أعمالهما. ويبرر كذلك اهتمامه العملي بتحقيقات فراس.

من الإضافات الملحوظة لنظرية ماركس في التمثيل الغذائي، الدفاتر المكتوبة عام 1878، والتي تحتوي على مقتطفات من الأطروحات الجيولوجية لجون ييتس وجوزيف بيت جوكس. تغطي هذه المقتطفات التفصيلية مجموعة واسعة من الموضوعات ولا تقتصر على البيئة. في النهاية، أجرى ماركس أبحاثه الجيولوجية من أجل الاقتصاد السياسي. على سبيل المثال، كتبَ: "أهدرت مبالغ هائلة من المال في تعدين الفحم بدافع الجهل وحده".

كما أقتبس ملاحظات جوكس في دليل الطالب للجيولوجيا ذاكراً أن الجيولوجيا لها "أهمية عملية كبرى" و"واحدة من النقاط الرئيسية". وأن إحدى النقاط الرئيسية للتطبيق العملي للجيولوجيا في الجزر البريطانية "هي" من أجل منع إسراف إنفاق الأموال من قبل الشركات المتسرعة، وتوجيه إدارة المشاريع المؤسسة حيث توجد فرص النجاح". اهتم ماركس أيضاً بتفسيرات جوكس، حول كيف تؤدي الاكتشافات الجيولوجية إلى طرق معرفة أكثر تقدماً، لتسهيل استخراج المواد الخام والمواد المساعدة مثل الفحم والحديد، وزيادة الإنتاجية، وكيفية مساهمة وسائل النقل في تشكيل العلاقة بين الإنتاج الصناعي والزراعة (والصناعات الاستخراجية).

علاوة على ذلك، أكد ماركس كيف أن الطبقات الجيولوجية، باعتبارها حالة طبيعية خارجة عن سيطرة الإنسان، لها تأثير على التنمية الاجتماعية فكتب قائلاً:

"إنكلترا مقسمة إلى جزأين مختلفين تماماً، حيث يتناقض شكل ومظهر التربة، وحالة الناس وتوظيفهم بشكل متساو". الجزء الشمالي الغربي "الأرض القديمة بشكل أساسي" وغالباً ما تكون برية وقاحلة جبلية [جرداء وتلال]، لكنها مليئة بالثروات المعدنية في كثير من الأماكن".

من ناحية أخرى، يتميز الجزء الجنوبي الشرقي بشكل عام بتربة ثانوية، ناعمة ولينة، "مع ثراء ضئيل أو معدوم". وبالتالي، في المنطقة الأولى، "يغلب السكان العاملون والصناعيون"، وفي المنطقة الثانية "زراعيون في الغالب".

في المجلد الأول من "رأس المال"، تصور ماركس ظهور "توليفة جديدة أعلى، اتحاد الزراعة والصناعة" من شأنها التغلب على التعارض بين المجالين. عند القيام بذلك، يجب أن تؤخذ الخصائص الجيولوجية الثابتة التي حددها جوكس في الاعتبار بشكل أكثر شمولاً. في الواقع، سلط ماركس الضوء على هذه المقاطع في ملاحظاته للرجوع إليها في المستقبل.

بالإشارة إلى فراس وداروين، يناقش جوكس أيضاً تأثيرات المناخ وهطول الأمطار على التكوينات الجيولوجية والنباتات والحيوانات. يشير علم الحفريات إلى التغيرات المناخية واسعة النطاق وطويلة المدى، بالإشارة مباشرة إلى داروين، مجادلاً، كما أشار ماركس: "تغير المناخ ينطوي على تدمير الأنواع".

في هذا السياق، أضاف ماركس أيضاً ملاحظة جوكس: "إن انقراض الأنواع لا يزال مستمراً (الإنسان نفسه هو أكثر المبيدات نشاطاً)". تعامل ماركس مع التغيرات المناخية من

منظور جيولوجي طويل المدى وتناول آثارها على البيئة، خاصة فيما يتعلق بالعواقب التي تصيب الإنسان، كما فعل فراس من قبله. يمكن العثور على تعليق مماثل حول تغير المناخ في أمريكا الشمالية في سياق مقتطف من التاريخ الطبيعي للمواد الخام التجارية ليبتس: "لقد أدت عمليات التطهير الهائلة بقطع أشجار الغابات، الى تغير ملحوظ في المناخ] ". على عكس أنجلز، فإن اهتمام ماركس بأعمال داروين وفراس لا يقتصر على الموضوعات الموسوعية مثل أصل الحياة أو الانتقاء الطبيعي أو التطور، ولكنه يركز على المزيد من المظاهر الملموسة لعلاقة التمثيل الغذائي البشري بالطبيعة.

7. الخاتمة

على الرغم من كل جهوده، لم يحقق ماركس من أن يأخذ في الاعتبار بشكل كامل في "رأس المال"، الأفكار التي اكتسبها في المجالات المذكورة، ولكن لا يزال من الممكن تحديد الاختلافات الرئيسية بشأن البيئة بين ماركس وأنجلز. كان منظور أنجلز يدور حول استخدام العلوم الطبيعية للتعرف على قوانين الطبيعة بشكل موسوعي من أجل تحقيق عالم الحرية. بينما يبحث نهج ماركس المادي في كيفية عكس الذات/ الموضوع والجوهر/ المظهر حتماً في ظل ظروف اجتماعية معينة، فإن مادية أنجلز تقوم على ثنائية الوعي والمادة وتعطي الأولوية الوجودية للأخيرة. يتميز نهجه بفلسفة ما وراء التاريخ، ولهذا السبب فإن إنجلز رفض في نهاية المطاف مفهوم ليبيغ عن التمثيل الغذائي وكان راضياً عن الأطروحة التي تم تطويرها في أربعينيات القرن التاسع عشر حول "التناقض بين المدينة والريف".

من ناحية أخرى، لم يكن ماركس مهتماً بمثل هذه الأسئلة الفلسفية، على الأقل منذ "الأيديولوجيا الألمانية". من خلال تطوير مفهوم التمثيل الغذائي، أراد ماركس أن يفهم التغيرات الجسدية والاجتماعية في العلاقة بين البشر والطبيعة من وجهات النظر التاريخية والاقتصادية والعلمية. لأن التقنيات التي تم تطويرها في سياق النظام الصناعي الحديث قد أدت إلى إعادة تنظيم غير مسبوقة للعلاقة الأيضية الكاملة بين المجتمع والطبيعة. في ستينيات القرن التاسع عشر، فهم ماركس الإمكانات المُدمرة التي أطلقتها المعرفة العلمية. رأى التطبيق التقني على أنه "القوة الإنتاجية لرأس المال" وبالتالي حذر من الإنتاج الرأسمالي غير المستدام.

غير انه ولسوء الحظ، وبسبب الاختلافات النظرية، أهمل أنجلز والماركسيون اللاحقون تماماً مجموعة ملاحظات ماركس.

بعد 150 عاماً من نشر المجلد الأول من "رأس المال"، من الضروري إذن بحث هذه الملاحظات المنسية من أجل إعادة اكتشاف المدى المذهل لنقد ماركس للاقتصاد السياسي.

---

* كوهي سايتو: المولود عام 1987، أستاذ الفلسفة بجامعة طوكيو. حصل على الدكتوراه في عام 2016 من جامعة هومبولت في برلين، وهو محرر مشارك لإصدار ماركس إنجلز الكامل، أستاذ مشارك في الاقتصاد السياسي بجامعة مدينة أوساكا، وهو مؤلف لعدة كتب.

الهوامش

Marx and the Rift in the Universal Metabolism of Nature, in: Monthly Review, 65:7 :(2013)
York, Richard/Clark, Brett (2011): The Ecological Rift. Capitalism's War on the Earth, New York
Burkett, Paul (2016): Marx and the Earth. An Anti-Critique, Leiden
Fraas, Carl (1847): Klima und Pflanzenwelt in der Zeit, ein Beitrag zur Geschichte beider, Landshut
Die Ackerbaukrisen und ihre Heilmittel, Leipzig :(1866)
Jordan, Zbigniew A. (1967): The Evolution of Dialectical Materialism, London–
Georg (1977): Geschichte und Klassenbewußtsein, in: ders., Werke, Bd.2. Frühschriften, Darmstadt ,
Marx, Karl (1962): Das Kapital. Erster Band, in: MEW 23, Berlin–
Das Kapital. Zweiter Band, in: MEW 24, Berlin :(1963)
_ Das Kapital. Dritter Band, in: MEW 25, Berlin :(1964)
_ Grundrisse der Kritik der politischen Ökonomie, in: MEW 42, Berlin :(1983)
– Entwürfe einer Antwort auf den Brief von V.I. Sassulitsch, in: MEW 19, Berlin :(1987)
− Das Kapital (ökonomisches Manuskript 1863–1865). Drittes Buch, in: MEGA II/4.2, Berlin
Marx, Karl /Engels, Friedrich (1967): Briefe Januar 1881 – März 1883, in: MEW 35, Berlin
1974a): Briefe Januar 1860 – September 1964, in: MEW 30, Berlin)
_ 1974b): Briefe Januar 1868 – Mitte Juli 1870, in: MEW 32, Berlin)
_ Manifest der Kommunistischen Partei, in: MEW 4, Berlin :(1977)
_ Die Deutsche Ideologie, in: MEW 3, Berlin :(1978)
– Naturwissenschaftliche Exzerpte und Notizen, Mitte 1877 – Anfang 1883, in: MEGA :(1999)
– IV/31,Berlin
Exzerpte und Notizen zur Geologie, Mineralogie und Agrikulturchemie, März – September 1878, in: MEGA IV/26, Berlin
Moore, Jason, W. (2015): Capitalism in the Web of Life, London
Smith, Neil (2008): Uneven Development, Athens/London
Stanley, John L. (2002): Mainlining Marx, Piscataway
Wendling, Amy E. (2009): Karl Marx on Technology and Alienation, New York
Žižek, Slavoj (2009): Ecology, in: Taylor, Astra (Hg.): Examined Life. Excursions with Contemporary

حوارات

رائد فهمي يراجع 90 عاماً من مسيرة الحزب:

(القسم الثاني)

حاوره: زهير الجزائري وسوران قحطان

في الجزء الثاني من الحوار مع الرفيق رائد فهمي نستكمل المراجعة التاريخية لمسيرة الحزب، ونتناول مواقف الحزب في مرحلة المعارضة وبعد احتلال الكويت والصراع في مؤتمرات الحزب وتجربة الكفاح المسلح، ونتناول تأثيرات انهيار المنظومة الاشتراكية على مواقف الحزب. كما ستأخذ العلاقات مع قوى المعارضة المختلفة حيزا مهما من هذا الحوار. كذلك الموقف من الحرب والاحتلال.

الثقافة الجديدة: بين المؤتمرين الثالث والرابع فرق كبير هو الفرق بين التحالف مع البعث والكفاح المسلح ضده. كيف تنظر للمؤتمرين؟

رائد فهمي: دائما ما كان الحزب ينظر الى قضية عقد المؤتمر الوطني ان فيها جانب من التحدي. وكذا الحال عندما عقد المؤتمر الثالث. في سياق تلك الفترة، أي عام 1976، كان وجهة نظر الحزب هي تعزيز العمل الجبهوي. بمعنى، معالجة الثغرات والنواقص والاشكاليات من منطلق تعزيز الجبهة. خصوصا وان الحزب يعرف ان هناك من

يتربص بالجبهة، سواء من داخل البعث او من القوى الأخرى. وبالتالي، فإن الحزب وهو يقدر حجم المخاطر الأمنية، فإنه كان يضعها مقابل الايجابيات الكثيرة لعقد المؤتمر. خصوصا وان الحزب سيعقد لأول مرة مؤتمرا بصورة علنية، وهي جزء من تكريس وجوده العلني. كما انها إشارة ثقة لرفاقه وأصدقائه.

اما ان النظام سيكشف عضوية الحاضرين، فأقول ان قسم غير قليل منهم كانوا اما أعضاء لجان الجبهة، او أعضاء في منظمات نقابية او اتحادات، وبالتالي فهم مكشوفون أساسا للنظام. اما الرفاق غير المكشوفين والذين يحرص الحزب على عدم كشفهم، فإن السؤال سيكون كم ستكون هذه العملية صعبة ومعقدة، وكم تستحق ان تكون حاسمة في تقرير عقد المؤتمر من عدم عقدّه! للاعتبارات التي ذكرتها آنفا.

طُرح أيضا ان المؤتمر كان من الممكن عقده في مناطق بعيدة، في كردستان مثلا. إلا ان الفعل ستكون له دلالات متعددة. فإن عدم عقده في بغداد يعني ان الحزب ليس لديه ثقة بالآخر، بالحليف. او ان لديه مقاصد او نوايا ثانية، او عنده قراءة مختلفة للوضع لا يريد ان يُطلع عليها.. الخ. وهذا كله يعطي إشارات سلبية، وفيه اضعاف للعمل الجبهوي.

بالنسبة لي ليس لدي أي تقديرات سلبية عن المؤتمر الثالث 1976. بغض النظر طبعا عن مضامينه ومنها اطروحة (التطور اللارأسمالي) التي اقرت في المؤتمر. فهذا موضوع اخر. لكن على وجه العموم، كان من الصعب وقتها التنبؤ بكل التفاصيل التي حدثت لاحقا. نعم ربما كانت هي موجودة في لحظة عقد المؤتمر كاحتمالات وامكانيات ومخاطر كان من الضروري ان يجري العمل على ادارتها والتحسب لها، دون ان يؤثر ذلك على عقد المؤتمر.

اما بخصوص المؤتمر الرابع، فقد جاء في ظل وضع وظروف اخرى كليا، حيث عُقد في ظل ظروف عسكرية صعبة. حيث كان الحزب قد انتقل الى الكفاح المسلح، والحرب العراقية الإيرانية على أشدها. والمكان الذي كان محددا لعقده اتضح انه مشخص من قبل النظام. وكان يتعرض للقصف. وفي آخر لحظات، اضطر الحزب الى تغيره الى مكان آخر. ومن جهة أخرى، انعقد المؤتمر الرابع في ظل صراع سياسي حاد حول الموقف من الجبهة والتحالف، وحول استراتيجية اسقاط النظام، واختيار شكل الكفاح المسلح بوصفه شكل النضال الاساسي. هذا على الجانب السياسي. لكن هناك جوانب اخرى أيضا. فهناك الكثير من السلبيات التي أثيرت حول الموقف السياسي السابق للحزب. ليس فقط قيام الجبهة وانما أيضا حول إدارتها، والمسارات التي اتخذها العمل الجبهوي، والصراعات الدائرة فيها كونها وحدة وصراع. وكذلك حول بعض الأوهام التي ارتبطت بالعمل الجبهوي. وأيضا حول التساهل بل والتراخي، وضعف اليقظة، وكم من الثغرات فتحت امام الاندساس في فترة الجبهة. حيث اتضح ان اجهزة النظام الامنية كانت مندسة في عدد من مفاصل الحزب. وأيضا، أثيرت العديد من النقاشات حول مواقف وسلوكيات بعض الرفاق في فترة الجبهة. عقد المؤتمر الرابع لحسم هذه الأمور وبإطار الشرعية الحزبية.

عموما، كانت مشاعر ومواقف الرفاق عموما، وليس المشاركين في المؤتمر الرابع فقط، خصوصا من غادروا البلاد، هي عدم الرضا والاحتجاج الموجهين الى القيادات

الحزبية الأساسية التي كانت تمسك مفاصل العمل الحزبي. وهذه القيادات بمعظمها هي التي ابتعدت عن العمل الحزبي في المؤتمر. خاصة تلك القيادات التي كان لديها مواقف متحفظة تجاه الكفاح المسلح. وتمتلك تصورات غير دقيقة، بل وحتى أوهام إزاء التحالف واستمراره.

نعم، لم تكن تلك الظروف مثلى لعقد المؤتمر. ونعم حدثت في المؤتمر نقاشات حادة. فالصراع كان حادا، خصوصا الصراع السياسي. حيث وصل الأخير الى مفترق طرق. فالاختلاف والتحفظ على موضوع شكل الكفاح الرئيسي وحول الرؤية الاستراتيجية، يجعل من الصعوبة بمكان، ربما من المستحيل، ان يجتمع هذين الاتجاهين داخل قيادة الحزب. لذلك تم التعبير عن هذا الصراع وغيره بالتغيرات التي حدثت. لكن هل تم اقصاء القياديين بعملية غير ديمقراطية!؟ هل كانت هناك تهديدات منعت بعض الرفاق من ان يحضروا!؟ حسب علمي لا توجد مثل هذه المعطيات. بالعكس، كان هناك حرص من قبل قيادة الحزب ومن قبل الرفيق عزيز محمد (أبو سعود) بأن يحضر الجميع ليشاركوا في اعمال المؤتمر. بعضهم لم يحضر الى المؤتمر بقرار منهم. بينما بعض القيادين ابتعدوا أو تم استبعادهم قبل عقد المؤتمر لأسباب مختلفة. من بين هذه الأسباب، وان كانت حالات قليلة جدا، نشوء علاقة وصلات غير مبدأية، وعليها علامات استفهام، بين نظام البعث وبين بعضهم. وهذه العلاقة تطورت حينها لأسباب مختلفة. ربما نتيجة لموقف سياسي متطرف في مسألة التحالف والعلاقة مع البعث، او موقف سياسي مائع او لأسباب شخصية ومصلحية.

تجربةً الأنصار

الثقافة الجديدة: لنتحدث الآن عن تجربة الأنصار! هل كانت فعلا ممارسة ضرورية في تلك الظروف، أم فرضت على الحزب موضوعيا؟ وهل كانت هناك بدائل نضالية أخرى؟

رائد فهمي: بلا أدنى شك، لعبت تجربة الأنصار دورا كبيرا في بقاء الحزب. ليس بالمعنى الوجودي والحفاظ على الرفاق والرفيقات فحسب، بل ليستمر في نضاله، عنصرا فاعلا على الساحة العراقية. وبالتالي، يجب ان لا يُبخس نهائيا من قيمتها، دون ان ننسى مطلقا الضحايا التي لا تعوض من شهداء الحزب، وكذلك محدوديتها كتجربة نضالية لأسباب موضوعية.

بعد انتهاء الجبهة، كان لبعض الرفاق تحفظات على الأنصار كممارسة نضالية. خصوصا وأنها ستكون، من وجهة نظرهم، على حساب العمل الجماهيري وعلى حساب الصلة مع الناس. لكن، هل كانت هناك إمكانية للعمل الجماهيري في ظل البعث في تلك المرحلة؟! كيف يمكن ان تستمر في النشاط السياسي في ظل نظام قمعي بوليسي أغلقت اجهزته الأمنية كل منافذ العمل السري، ناهيك طبعا عن العمل العلني؟! هل كانت هناك إمكانية للاختفاء في البلد كما كان يحصل في السابق؟ لا ينكر أحد ان للحزب الشيوعي تجارب نضالية كبيرة، وتاريخ عريق في العمل السري في أقسى الظروف. فمثلا، عام 1963، عندما حصلت الحملة الدموية بعد الانقلاب، ذهب العديد من الرفاق الى الريف والى مدن الجنوب. لكن مع نظام البعث، فترة

انفصام الجبهة، كان الامر مختلفا. حيث كانت اجهزته الأمنية والقمعية، والحزبية أيضا، كانت موجودة في اغلب مفاصل البلد. لقد قيدوا الى حد كبير من إمكانية العمل السري. وبالتالي كان من المنطقي والواقعي ان ينسحب الحزب، لأجل ترتيب أوضاعه واختيار اشكال النضال المناسبة لتلك الظروف.

كما لم يكن واردا انتقال الحزب الى الخارج، مع ان هذا كان خطرا يتهدد الحزب. كانت هناك تجربة حزب "تودة" في ايران، وهو حزب جماهيري عريق. وكان لوجوده في الخارج، وبقاءه هناك، ثمنا كبيرا على نفوذه ومكانته. بهذا المعنى، كان أحد أبرز إنجازات حركة الأنصار انها أبقت الحزب على ارض الوطن. حيث أصبحت، ضمن الممكن بكل تأكيد، القاعدة الخلفية للعمل السري المحدود في الوسط والجنوب. كما انها استطاعت ايضا ان تحافظ على الكوادر الرئيسيين، كي يستعين بهم الحزب لا في النشاط الانصاري فقط، وانما في أي اشكال نضالية أخرى. وهذه القضية استطاع الجميع ملاحظتها. حيث ان هذه الكوادر والعناصر، هم من استطاعوا إعادة بناء الحزب في عموم البلاد بعد 2003.

نعم، لا ننكر انه ارتبط بهذا الخيار النضالي، تصورات مبالغ فيها، لم تتوفر بيئتها او امكانياتها، ولم نقدر على تنفيذها، ولم تزكها الظروف. فالرفيق أبو سعود "عزيز محمد" كان يتحدث عن تعريق حملة الأنصار، تعريق العمل المسلح. بمعنى أن تكون هناك انتفاضة مسلحة في عموم العراق. بينما، لا يمكن القيام باي نضال مسلح دون طبيعة جغرافية او عمق استراتيجي يقوم بالإسناد، والا سيحاصرك النظام ويقضي عليك. وهذا ما حصل فعلا في الاهوار عام 1967. فمثلا الحركات الإسلامية كانت لديها ميزة إيران، بحيث تكون قادرة على التغلغل من المناطق الحدودية الطويلة. هذا دون ان ننسى اتساع المدن وتغول الأجهزة القمعية والأمنية للنظام.

أما فيما يخص بعض الطروحات سواء تلك التي تتحدث عن التضحيات والخسائر البشرية غير المبررة لحركة الانصار، او عن كونها استهلكت الكوادر الحزبية على حساب العمل الجماهيري، فهي لا تمثل سوى نقد عام وأحاديث بالعموميات. فبخصوص التضحيات والخسائر البشرية، وهي دماء زكية ولا تعوض بكل تأكيد، أقول نعم ربما لو كانت هناك كفاءة أكبر في إدارة العمليات العسكرية لكان من الممكن تقليص الخسائر. لكن هذه القضية هي قضية إدارة عسكرية وليست سياسية. اما بخصوص العمل الجماهيري السري السلمي في الداخل، فإن الإمكانيات الفعلية المتوفرة للعمل السري في الداخل كانت محدودة كما ذكرت سابقا، وهي تنطوي على مخاطر كبيرة. وقد عرفنا بعد سقوط النظام ان تفاصيل غير قليلة من العمل السري كانت مراقبة من الأجهزة الأمنية.

نعم، ربما كانت هناك مبالغة في حشد غالبية الكوادر الحزبية وخاصة تلك التي جاءت من الخارج في مكان ونشاط واحد. على الرغم من ان دعوة الحزب للالتحاق بالأنصار كانت عامة في جوهرها، وتركت حرية للرفاق، الا ان الاكثرية منهم عادوا الى الوطن وساهموا في الحركة بروح عالية. لكن، هذا لا يعني انه لم تجري تجاوزات للحدود الضرورية في بعض الأحيان. وذلك عبر ممارسة الضغط المعنوي عليهم للذهاب الى كردستان. خصوصا وان بعض الرفاق المتواجدين في الخارج كان من الممكن ان يقدموا للحزب في أماكن تواجدهم

خدمات كبيرة أخرى، خصوصا من لديه مهارات او إمكانيات معينة. وكان من الممكن أيضا ان نحافظ على بعض الرفيقات والرفاق من الكوادر الحزبية. كما ان بعض الرفاق لم يستطيعوا المواصلة. وكانت تجربة كردستان والانصار صعبة بالنسبة لهم. ومع ان الحزب كان متنبها للكثير من هذه الحالات إلا ان هذا لا يعني ان اننا لم نفقد البعض.

أؤكد مرة أخرى، ان حركة الأنصار في المحصلة النهائية، هي التي مكنت الحزب من ان يستمر على ارض الوطن، وان تبقى تنظيماته وتستمر، وان يمارس انشطته المتنوعة الفكرية والسياسية والتنظيمية. وان لا يتحول الى حزب مناضل من الخارج. ربما كان من الممكن إدارة بعض القضايا بشكل أفضل، إلا ان حركة الأنصار كانت ضرورة في تلك الظروف والاشتراطات التي كانت تحيط بالوضع. وفي النهاية، اعتقد ان قرار الحزب كان سليما.

الحركة الكردستانية و (بشتاشان)

الثقافة الجديدة: في تربة كردستان حيث انطلقت حركة الأنصار والكفاح المسلح، لم يكن الحزب وحيدا. برأيك كيف ادار الحزب علاقته مع الأطراف الكردستانية الرئيسية؟

رائد فهمي: بداية، لنكن منصفين. عندما ذهب الحزب الى كردستان، وبدأ العمل المسلح، استقبل من قبل الأحزاب الكردستانية. وبدونهم، ربما كان الامر سيكون صعبا. ذلك لأن تواجدهم هناك ليس حالة حديثة. فهم مارسوا الكفاح المسلح منذ عقود. ولديهم تشكيلاتهم وبناهم التحتية. ولم يكن ممكنا للحزب ان يخوض الكفاح المسلح دون ان تكون هناك علاقة إيجابية مع الأطراف الكردستانية المسلحة. وكان يسعى ان تكون لديه علاقة إيجابية مع مختلف الأطراف. فهذا نهج ثابت عند الحزب، ومعتمد لغاية الآن. فهو يقف على مسافة واحدة، ولا ينحاز في علاقاته، ولا يتدخل في النزاعات عندما تظهر. وهذه القضية مهمة جدا، ليس لكونها قضية نهج ثابت فقط، وانما أيضا لما لها من تداعيات على بعض رفاقنا الكرد. وهذه، وان كانت ليست حالة سياسية عامة، الا انها موجودة. فرفاقنا الكرد كانوا يتأثرون بمحيطهم، بالمناخ العام الموجود في المنطقة وبوجود هذه الأحزاب. وبالتالي، فان حزبنا الشيوعي العراقي سواء أكان موجودا في أربيل او السليمانية او أي منطقة أخرى، حرص ان يكون خارج الصراعات الثنائية. بل بالعكس، كان الحزب هو العنصر الذي يحاول التخفيف من هذه الصراعات ومن الاقتتال. وعلى الرغم من ان حركة رفاقنا كانت محدودة نسبيا ومحددة في مناطق تواجد الأطراف الكردستانية، الا ان هذا لم يكن يمنع الحزب من ان يعمل، حيث كان يقدر موازين القوى بشكل جيد، وكان له أيضا مجالاته ومناطقه.

لقد كان لرفاقنا الكردستانيين مواقف اممية تجلت بوضوح من خلال احتضانهم للرفاق العرب في تلك الظروف.

اما الأخيرين فقد اعتبروا من قبل كل الجماهير والأطراف الكردستانية مناضلين وطنيين تجاوزوا كل الاعتبارات القومية، ودافعوا، من ضمن القضايا الكثيرة التي دافعوا عنها، عن قضية الشعب الكردي وعن حقوقه المشروعة.

ان موقف الحزب الشيوعي العراقي يستند الى نهجه الثابت بضرورة وحدة المواقف السياسية وكذلك وحدة الحركة القومية الكردستانية، المؤسسة جميعها على بعد ديمقراطي. وكان الحزب دقيقا جدا وحريصا، منذ بداية تجربة الأنصار، على ان يتعامل مع الحركة القومية الكردية بتعبيراتها السياسية المختلفة. وان لا ينغمر في الصراعات، والنزاعات الداخلية. وهذا الموقف ثابت لغاية الآن. على الرغم من ان الوضع تغير تماما. فهناك الآن حزب شيوعي كردستاني وحكومة إقليم. وان بقي كل طرف مسيطرا على مناطق نفوذه.

لكن من جانب آخر، ان كل تحالف هو وحدة وصراع اضداد، وفي كل التحالفات هناك تنافس وصراع. ان جريمة بشت ئاشان، وهي جريمة بشعة بكل المقاييس، هي جزء من هذا الصراع. ولقد دفع الحزب بسببها ثمنا غاليا. حيث سقط فيها للحزب شهداء وشهيدات من أروع الرفاق والرفيقات والكوادر المتقدمة، بعضهم كان مهيئ للنزول الى داخل الوطن، والعمل على بناء تنظيمات الحزب.

اننا لا نعزل هذه الجريمة البشعة والاحداث المروعة التي جرت فيها عن الخلفية السياسية. حيث انها حصلت في ظل تقارب بين الاتحاد الوطني الكردستاني ونظام البعث. ومن جهة أخرى، وعلى الرغم من سعي الحزب للوقوف دائما على مسافة واحدة من طرفي النزاع في كردستان، إلا انه لم يستطع تجنب الدخول في هذا الصراع في نهاية المطاف. طبعا هذا لا يعني عدم وجود مواقف او ضعف في التحسب او ردود فعل وقضايا أخرى تدخل من باب الاخطاء العسكرية.

في النهاية، لقد كان لهذا الصراع بين الطرفين الكردستانيين بشكل عام، وجريمة بشت ئاشان انعكاسات مباشرة على رفاق وجمهور الحزب وعلى الأجواء المحيطة بعمل الحزب.

علاقة الحزب بمحيطه

الثقافة الجديدة: في تلك الظروف، وبحكم واقع المنطقة الجيوسياسي، كان من الصعب جدا ان تنشأ وتستمر الحركة الانصارية، ما لم تتوفر لها خلفية معينة تسندها. ترى كيف كانت علاقة الحزب بمحيطه من دول الجوار في تلك المرحلة؟

رائد فهمي: أعتقد ان سوريا كنظام كان يحترم الحزب الشيوعي العراقي، والحزب كان يعمل هناك بحرية كبيرة. لقد كانت العلاقات سلسة وعندما تبرز أي مشكلة، كان لدينا رفاق مكلفين بهذه الصلة معهم. لا ننسى ان سوريا كانت المنفذ للذهاب الى كردستان. وكل هذه المنافذ كانت تحت سيطرة المخابرات السورية. عموما لم يتلمس الحزب أي ضغوطات معيقة لعمله، خصوصا وانه – أي حزبنا - لم يكن يتدخل بالشأن الداخلي السوري. كما كانت علاقتنا جيدة مع الحزب الشيوعي السوري والذي يسمى الآن الحزب الشيوعي السوري الموحد. وكذلك مع الحزب الذي يقوده الدكتور عمار بكداش. لكن العلاقة تدهورت مع الاخير بعد عام 2003.

ومن جهة أخرى، كانت علاقتنا جيدة مع مختلف القوميين العراقيين، خصوصا التقدميين. بالنسبة لقيادة قطر العراق في سوريا، كان لديها مكتب مكلف بإدارة شؤون العراقيين. وكل الوثائق الخاصة بالعراقيين كانت تتم من خلال هذا المكتب. وحسب علمي كانت العلاقة معهم جيدة. وكانت علاقتنا جيدة

أيضا بجماعة عبد الاله النصراوي.
اما بخصوص إيران، فلم تكن لدينا علاقة مباشرة بالنظام الإيراني، ولا مع جهات رسمية ايرانية. لكن أحيانا ونتيجة القتال، كان هناك بعض الجرحى من الرفاق، كانوا يذهبون الى إيران. وفي بعض الأحيان يضطر الحزب لعبور إيران لبعض الاعتبارات. وكنا نذهب بمساعدة الحزب الديمقراطي الكردستاني. وكان لرفاقنا تواجد في إيران، وبعضهم اعتقلوا مثل الرفيق عادل حبة.
اما بخصوص تركيا، فبحسب علمي لم تكن لدينا علاقة مع الجهات الرسمية التركية. ولكن عندما حدثت جريمة الانفال وضربت حركة الأنصار اضطر رفاقنا الى الانسحاب تجاه تركيا. وهناك لم تكن المعاملة جيدة. لكنها كانت محطة للشيوعين وللأكراد للانتقال تجاه أوربا.
ولا بد هنا من ان نشيد بدور اليمن الديمقراطية، لمساهمتها في توفير وسائل دعم الأنصار المختلفة. بما فيها السلاح وتطوير القدرات العسكرية والبشرية. كما لعبت دورا رائعا في احتضان الشيوعين الذين خرجوا من العراق. فالشيوعيون العراقيون لم يذهبوا، بعد انتهاء الجبهة وبدء الحملة الوحشية، الى لبنان وسوريا فقط. وانما ذهب قسم غير قليل منهم الى اليمن. وهناك قسم منهم توفرت لهم الفرصة للتدريب العسكري، بينما لعب اخرون دورا مهما في المؤسسات التعليمية او الإعلامية اليمنية.
كما لعبت أيضا المنظمات الفلسطينية، دورا مهما في تدريب كوادرنا، وكذلك بتوفير بعض الدعم العسكري. ومن المعروف أيضا، ان عددا من رفقنا الصحفيين والاعلامين والمثقفين تم احتضانهم سواء من قبل منظمة التحرير او الجبهة الشعبية او الجبهة الديمقراطية، للعمل في مؤسساتهم الإعلامية. مثل مجلة الهدف ومجلة الحرية وغيرها. كما ان ورفاقنا من جهتهم لعبوا دورا كبيرا في دعم القضية الفلسطينية.

الأحزاب الإسلامية وسائرون

الثقافة الجديدة: تحدثنا سابقاً عن العلاقة مع بعض الأحزاب والشخصيات القومية العراقية وعن العلاقة مع الأحزاب الكردية. ماذا عن العلاقة بالأحزاب الإسلامية في تلك المرحلة؟ وبماذا يتميز تحالف سائرون 2018 عنها؟

رائد فهمي: حسب علمي فان الحزب لم تكن لديه أي علاقات مع الأحزاب الإسلامية قبل الثمانينات. ففي السبعينات، كانت العلاقة متوترة بحكم ان تلك الاحزاب لها موقف معادي للوضع السياسي ككل. لكن عندما انتقلنا الى المعارضة بعد عام 1979، بدأت أرضية تظهر لنشوء علاقات. لكن العلاقة لم تخرج عن كونها لقاءات وزيارات. كانت اللقاءات لا تعقد في كردستان، وانما في سوريا. وذلك بسبب إمكانية التواصل حيث انهم موجودون في سوريا. لم تتبلور العلاقة بشكل معين وملموس، إلا بعد ان تشكلت لجنة العمل المشترك، عام 1989.
وهذه اللجنة تشكلت وقتها كشكل من اشكال التنويج لما كان يحدث في تلك الفترة. حيث خف التوتر وبدأت مظاهر ذوبان حدة الصراع والعداء بين الأطراف المختلفة. ومن ثم تواترت الصلات والعلاقات بحكم وجود المعارضة في سوريا. فهذا الظرف بحد ذاته يتيح للمعارض فرصة اللقاء.

وكانت لجنة العمل المشترك حينها، عبارة عن شكل من اشكال التحالف الذي يضم تيارات المعارضة مصنفة، او يجري التعامل معها على أساس كونها تيارات سياسية. وليس كما حصل لاحقا بعد تشكل المؤتمر الوطني الموحد عام 1992. وكانت طريقة التمثيل هذه تمثل جانبا إيجابيا. حيث كنا نحن الشيوعيون والديمقراطيين نمثل تيارا. بينما كان هناك تيار إسلامي شيعي ممثلا بالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة وعدد من المنظمات الإسلامية الأخرى. بجانب تيار قومي عربي ممثلا بقيادة قطر العراق وبعض العناصر القومية. اما التيار الكردستاني فكان يمثله الحزبين الكرديين الديمقراطي والاتحاد الوطني بالإضافة الى أحزاب كردستانية أخرى مثل الحزب الاشتراكي.

وبعدها حصلت زيارة وفد من حزبنا برئاسة الرفيق حميد مجيد موسى (أبو داود) الى إيران بدعوة من المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وكان هناك اللقاء مع السيد محمد باقر الحكيم. وهذا يبين مدى التطور الحاصل في العلاقات. لاحقا تحسنت الامور بشكل أكبر بعد انتفاضة آذار 1991. ومثال على ذلك انا كنت في فرنسا، وانا اعرف ان هناك أعضاء في حزب الدعوة واسلاميين آخرين موجودين في فرنسا. لكن، لم تكن لدينا أي صلة بهم. بعد ان حصلت الانتفاضة حصل التواصل بيننا، وشكلنا آنذاك لجنة باسم دعم الانتفاضة. وكان أبرز طرفين في اللجنة نحن كحزب شيوعي عراقي وممثلين عن حزب الدعوة وعن مؤسسة الخوئي. والتي تضم عناصر إسلامية مختلفة. وقد استمرت هذه اللجنة في العمل معظم التسعينات. وكانوا أحيانا يحضرون ويشاركون في الوقفات التي كنا نقيمها ضد الدكتاتورية.

هذه العلاقة والتقارب كانت موجود في بلدان أخرى أيضا لكن بشكل متفاوت، من بلد لآخر. وذلك حسب طبيعة القيادة الإسلامية الموجود في كل بلد. ولاحقا استمرت العلاقة عندما تشكل المؤتمر الوطني الموحد. وكذلك عندما خرجنا منه. خصوصا وانهم بدأوا حينها في التواجد في كردستان.

اما بخصوص الاخوان المسلمين، فلا اعتقد ان هناك علاقة للحزب معهم، حتى تشكيل المؤتمر الوطني. واستمرت اللقاءات بهم بعدها، خصوصا ان قياداتهم موجودة في إنكلترا، طيلة التسعينات وحتى 2003.

وعندما تشكل المؤتمر الوطني، وانحلت لجنة العمل المشترك، تشكل بصيغة أخرى تختلف عن اللجنة. فقد تشكل من ممثلي لهويات: سنة وشيعة وكرد. بينما نحن بقينا كطرف خاص خارج هذا التقسيم. وبالتالي، ليس غريبا ان هناك تواصل وعلاقة مع الأحزاب الإسلامية. خصوصا وأنها كانت مستندة على أرضية مشتركة. وهي النضال ضد الدكتاتورية. وبهذا المعنى، فإن التحالف مع التيار الصدري، كحركة سياسية إسلامية، ليست علاقة سياسية مستحدثة. لكن هذا التحالف كانت له خصوصيته. وهو يستند الى تحليل الحزب لتناقضات المرحلة ولأولوياتها. وهو من رسم أرضية التحالف وبرنامجه. ففي النهاية، لم تأتي أرضية التحالف عبثا. كنا نحن من حددها في احتجاجات عام 2015. وكانت البصمة الرئيسية لهذه الاحتجاجات ولشعاراتها ومطالبها وقواعد عملها مدنية، وكان للحزب دور بارز.

تلك الاحتجاجات تواصلت أسبوعيا بصورة مشتركة لمدة عامين أو أكثر توفرت خلالها

المشتركات السياسية التي انعكست في برنامج تحالف (سائرون). وقد ضم التحالف ستة أحزاب يغلب عليها الطابع المدني، وحتى حزب (استقامة) كان أمينه العام شخصية اكاديمية محترمة تناصر التيار الصدري ولكنها أقرب إلى المدنية.

كان التحالف ذا طابع سياسي- انتخابي، ويمكن أن يتعمق مضمونه ويستمر في حال توفر عدد من الشروط تتعلق بالإدارة السياسية والتنظيمية للتحالف وللعلاقة ما بين الكتلة النيابية المؤلفة من 54 نائبا، وقيادة التحالف المتمثلة بالمجلس الذي يضم قيادة الأحزاب المنضوية في التحالف.

وارتبط قرار انسحابنا من التحالف باستقالتنا، الرفيقة (هيفاء الأمين) وأنا من مجلس النواب في 27 تشرين الأول 2019، تضامنا مع انتفاضة تشرين واحتجاجاً على فشل مجلس النواب في استدعاء ومساءلة الحكومة ورئيسها عن الممارسات القمعية إزاء المنتفضين. وقد عكس ذلك اختلاف مواقفنا، نحن كحزب مع الكتلة النيابية في مدى التضامن والدعم الواجب اتخاذه إزاء الانتفاضة. بخروجنا من مجلس النواب، انفرط التحالف الانتخابي وكذلك في جانبه السياسي بسبب تهميش دور المجلس السياسي للتحالف وحصر العمل عمليا بالكتلة النيابية التي تضمنا وحزب استقامة فقط، اذ لم يفز أي مرشح من الأحزاب الأخرى، وبرزت خلال الحملة الانتخابية ممارسات تمييزية من الماكنة الانتخابية للتيار الصدري انعكست سلبا على الأحزاب المنضوية في التحالف.

ومن جانب آخر جرى اهمال البرنامج المتفق عليه عند تشكيل تحالف سائرون من قبل الكتلة البرلمانية كما حدثت تغييرات في طريقة إدارة التحالف من قبل التيار الصدري إذ انحسر دور العناصر المستقلة في حزب استقامة لصالح القيادة المباشرة من عناصر قيادية في التيار الصدري، وانعكس ذلك على العلاقة بين كتلة سائرون والتيار الصدري وعلى الإدارة المشتركة للتحالف لصالح التبني المباشر لما يصدر عن السيد الصدر ومكتبه من دون مناقشته مع أطراف التحالف ومع حزبنا بالتحديد. وقد نبهنا إلى ذلك واعتبرنا ذلك غير منسجم مع الطبيعة التحالفية لسائرون. ونتيجة لكل هذه العوامل مجتمعة، أدت استقالتنا من مجلس النواب إلى انتهاء التحالف الانتخابي وعدم استمرار التحالف السياسي.

بعد احتلال الكويت..

الثقافة الجديدة: الاحتلال العراقي للكويت.. ما الذي دفع النظام لهذا الخيار، وماذا كان موقف الحزب منه؟

رائد فهمي: خرج العراق من حرب إيران عام 1988 وهو مثخن الجراح. من جهة، كان هناك تذمر كبير من الحرب ونتائجها، خصوصا بسبب الخسائر البشرية والمادية الهائلة. ومن جهة أخرى، كان هناك تدهور اقتصادي ومديونية عالية جدا، مصحوبة بتحطم للبنية التحتية. مع توقف لكل سياسات التنمية منذ عام 1981، وتحول نحو الاقتصاد العسكري من خلال التصنيع العسكري. بل ان الصناعات المدنية ذاتها صارت وجهتها عسكرية، وقد ترك هذا آثاره الكبيرة على عدد كبير من الصناعات. بالإضافة الى ذلك، ضرورة توفير مئات الآلاف من فرص العمل للجنود العائدين.

وبالتالي، كان متوقعا ان ينصرف البلد، مع

انتهاء الحرب، لمداواة جراحه. وبالفعل، حاول صدام ان ينفتح سياسيا، وتحدث عن تعددية وعن الدستور. وافتعل ضجة بهذا الخصوص. لكن الأمور سرعان ما خبت. اما اقتصاديا، فقد بدأت عملية الخصخصة أساسا منذ عام 1987. والتي استفاد منها ازلام النظام والمتزلفين للسلطة. وكان هذا ارتداد عن كل نهجه السابق بخصوص القطاع العام.

لاحقا، بدأت عام 1990 المفاوضات مع الكويت بخصوص النفط، وبعض المسائل الحدودية. وكان الحديث ان الكويت بدأت بحفر الابار واستنزاف جزء من النفط العراقي. وقد شرعت الاحداث بالتصاعد مع اعلان النظام ان الكويت لا تقدم تنازلات من خلال المفاوضات. وكعادته، حاول صدام اختزال الأمور. لقد كان يتوقع ان تكون الحرب مخرجا لأزماته. فبعد احتلال الكويت في 2 آب 1991، ودمجها باعتبارها المحافظة التاسعة عشر، بدأ يتحدث عن اقتصاد كبير ومضاعفة موارد العراق بسبب ما تملكه الكويت من موارد.

نحن في الحزب الشيوعي العراق كان لدينا موقف واضح من الاحداث. لقد ادنا هذا الفعل على أساس مبدأي. حيث اننا نعتبر الكويت دولة من الدول العربية، ونعترف بوجودها. وهي عضو في الجامعة العربية. وفي الأمم المتحدة. وبالتالي، الحديث عن الدمج والالحاق غير ممكن، فهو فضلا عن كونه خرق للقانون الدولي، فإن فيه تعديا صارخا على حقوق مجموعة بشرية تسكن الكويت. وأشرنا أيضا، كيف ان حزبا قوميا من المفترض ان يحترم الجامعة العربية ويحترم كل البلدان العربية، ويؤكد على استقلالها ووحدتها، وإذا به يقوم باحتلال بلد عربي آخر بالضد من الجامعة العربية، وبالضد من كل المواثيق التي تربط البلدان العربية. انه ارتداد كبير، عن هويته او ما يدعيه من هويته السياسية الرئيسية وبرامجه الوحدوية.

كما ان لدينا كحزب وجهة نظر تجاه خطاب النظام الذي تحدث عن الحقوق التاريخية التي استند اليها لاحتلال ودمج الكويت. نعم، كانت الكويت تاريخياً جزء من ولاية البصرة. أي انها كانت جزء من احدى الولايات العثمانية التي أصبحت لاحقا العراق المعاصر. لكن، هذا لا يعني بأي حال من الأحوال ان هناك إمكانية للاستناد الى هذه الحقائق والاحداث التاريخية في فرض وقائع سياسية وإدارية جديدة. هذا المنطق غير ممكن وربما مستحيل. فهناك الكثير من المناطق كانت ضمن اطر إدارية في زمن الاحتلال العثماني، ولاحقا اعيد تشكيل معظمها في المعاهدات اللاحقة مثل سايكس بيكو وغيرها. وبالتالي، هي حدود افتعلتها الامبريالية والدول الاستعمارية، خدمة لمصالحها في الدرجة الأساس. ولهذا نجد ان مناطق شاسعة تقطنها قوميات معينية شطرت الى نصفين. على سبيل المثال مشكلة ولاية الموصل والاهواز وغيرها. وبناء على منطق الحقوق التاريخية، الذي اعتمده النظام الدكتاتوري، يمكن ان تظهر أيضا مطالبات شبيهة في هذه المناطق.

علاوة على ذلك، كان الحزب على قناعة تامة ان احتلال الكويت هو عبور للخطوط الحمراء، وله تداعيات جيوسياسية على المنطقة، تداعيات تتعلق بسيادة دول الخليج والنفط ومكانته الاستراتيجية. وخضوع هذه المنطقة وثرواتها لسيطرة النظام العراقي يعتبر خطرا كبيرا جدا، يتجاوز حدود هذه البلدان، لأنه يمكن ان يؤثر على الإمدادات

النفطية العالمية. ولهذا، وكما توقع الحزب حينها، وفر احتلال الكويت فرصة للتدخلات الخارجية، وساهم في تشكيل تحالف دولي وارسال قوات واساطيل الى المنطقة. حيث شارك في التحشدات العسكرية معظم الدول الكبرى ودول الناتو. لقد وفر احتلال العراق للكويت الذريعة القانونية كي يتم ترسيخ وجود الدول العظمى في المنطقة، خصوصا الولايات المتحدة. وعمليا، أصبحت الأخيرة تبسط "حمايتها" وسيطرتها وهيمنها على المنطقة، وصار لها نوع من أنواع الوصاية عليها، وبما يضمن مصالحها السياسية والاقتصادية. ربما تقلص لاحقا عديد قوتها، الا انها عززت تواجدها في المنطقة عبر العديد من الآليات، ومن بينها القواعد المتعددة.

في ذات الوقت، كان الحزب يدرك تماما ان من سيدفع ثمن شن الحرب على العراق هو الشعب العراقي. وهو المنهك اساسا بسبب الحرب العراقية الإيرانية. وبالتالي، كنا نقف بالضد من الحرب وندعو الى تطبيق قرارات الأمم المتحدة التي تدعو النظام العراقي للانسحاب من الكويت.

في اوروبا والعالم انطلقت حركات واسعة تضامنية، ضد الحرب وحركات شعبية واسعة، اشتركت فيها منظمات من مختلف الاتجاهات ما بين يسارية ومنظمات سلام وحركات اجتماعية والتي تطالب بعدم شن الحرب. في وقتها كنت في فرنسا، وكانت الحركات المناهضة للحرب قوية هناك. وكنا كحزب جزءا من اللجان التنسيقية لهذه الحركة، بالإضافة الى الحزب الشيوعي الفرنسي وأحزاب أخرى والكثير من المنظمات والحركات اليسارية. وكنت أحد المتحدثين في الندوات التي تعقد للتنديد بخطاب الحرب وترجيح كفة ممارسة الضغوط على النظام للانسحاب، وكذلك دعم قوى المعارضة الوطنية.

وكما ذكرت سابقا، خلال فترة احتلال الكويت، وخاصة عندما حدثت الحرب وبدأت عمليات الانتفاضة، كثفت قوى المعارضة نشاطها. بل تطورت العلاقة بيننا وبين الحركات السياسية الإسلامية بالإضافة الى الأحزاب القومية العربية والكردية. وتضاعفت الاتصالات بوفود مشتركة من المعارضة مع العديد من الجهات من بينها جهات رسمية في أوروبا وامريكا، وكذلك لقاءات مع أحزاب سياسية وقوى شعبية. وفي فرنسا، كان هناك النشاط مضاعف بدرجة كبيرة للمعارضة العراقية. حيث كنا نحن وحزب الدعوة وبعض الشخصيات المستقلة وقسم منها إسلامية مستقلة وقسم آخر يساري مستقل أعضاء في التنسيقيات المناهضة للحرب. وكان لها دور كبير وندوات تعبوية وانشطة متنوعة.

الحزب والانتفاضة

الثقافة الجديدة: بعد انسحاب قوات النظام من الكويت بدأت احداث انتفاضة آذار 1991، ومما لا يعلمه الكثيرون هو دور الحزب الشيوعي في هذه الاحداث.

رائد فهمي: شارك رفاقنا في انتفاضة آذار 1991. وكان الحزب طرفا فاعلا ومؤثراً، سواء في كردستان او الجنوب. وان كانت بنسب متفاوتة. ففي كردستان كان دور الحزب بارزا، لأن وجوده منظما وكان اقوى وأفضل. حيث كان تحركهم بشكل مخطط باعتبار المساهمة في الانتفاضة وجهة عامة

لدى الحزب. وقد لعبوا دورا بارزا في تحرير أربيل من قبضة أجهزة النظام القمعية. كما كان لهم دور مميز في تحرير عقرة، بالإضافة الى مناطق عديدة في كركوك.
اما في الجنوب، فكان الحراك جماهيريا، وقد حث الحزب رفاقه على المشاركة في الانتفاضة. وبالفعل، شارك الكثير منهم في المواجهات التي حصلت مع النظام. ومعهم الكثير من أصدقاء الحزب والديمقراطيين. وقد نالهم الكثير بعد اشتداد القمع. وقد كان رفاقنا من ضمن الذين غادروا العراق بعد انتهاء الانتفاضة، ومنهم من استقر في مخيم رفحا.
إلا ان الانتفاضة في الجنوب نسبت، خصوصا من قبل الاعلام، الى الإسلاميين. ولا تذكر الأدوار الأخرى. خصوصا ان إيران، دفعت بالمجلس الأعلى وقوات بدر. وكان لهم دور عسكري واضح منظم وبدعم وإسناد منها. وبالتالي، وبسبب وجود هذه التنظيمات الإسلامية كان الخطاب السائد وقت الانتفاضة في الجنوب هو الخطاب الإسلامي. وماركزت عليه وسائل الاعلام كان هو هذا الخطاب وهذه الشعارات الإسلامية. وكانت بعضها طاردة، من قبيل "نريد حاكم جعفري". وربما هذا ما جعل الامريكان والأوروبيين المشاركين في التحالف الدولي يقلقون من مآلات الانتفاضة. على الرغم من ان النظام دخل فعليا مرحلة العد التنازلي في تلك المرحلة. خصوصا وانهم كانوا يلاحظون، بالإضافة الى الخطاب والشعارات الإسلامية، وحجم التأثير الإيراني. وبالتالي، وبعد ان قرأوا الوضع بهذه الصورة، غير الأميركيان موقفهم، واعتبروا ان بقاء صدام ونظامه، لكن بظروف صعبة وتحت العناية المركزة، أفضل من مجيء بديل بدأت ملامحه تتبدّى بالنسبة لهم. وهكذا سمحوا للطيران العراقي ان يقمع الانتفاضة بشراسة ودموية.
من النقاط التي تسجل على المعارضة في تلك الفترة هو ضعف دورها، كمجموع، في التأثير على مجريات الانتفاضة ناهيك عن ممارسة أي دور قيادي. كما صار واضحا ان بعض أطراف المعارضة ليس عندهم تواجد في الداخل. ويتذكر الجميع ان المعارضة تداعت لعقد مؤتمر بيروت، على أساس تنظيم كيفية التعامل مع الانتفاضة، وتنسيق العمل، والذهاب الى الداخل. لكن هذا كله جاء متأخرا فالانتفاضة تم قمعها من قبل النظام. وهذا أشر ان قوى المعارضة حينها، رغم تعددها، إلا ان درجة التنسيق فيما بينها كانت ضعيفة، وان قدرة الفعل المشترك عندها محدودة.

البيرسترويكا والانهيار

الثقافة الجديدة: وصلنا الى مرحلة مهمة في تاريخ الحركة الشيوعية والاشتراكية واليسارية في العالم وهي المرحلة التي بدأت منذ تسلم غورباتشوف السلطة وحتى انهيار الاتحاد السوفيتي. نريد ان نتحدث عن تلك الفترة، وما هي العوامل التي أبقت الحزب متماسكا؟

رائد فهمي: كان خطاب غورباتشوف، في البداية، ذا بعد إصلاحي. وقد بدأ بتشخيص أمور سلبية في النظام السوفيتي، من قبيل البيروقراطية وقضية الحريات، والنظام شديد المركزية. وكذلك طبيعة العلاقة مع الدول الاشتراكية، وكيفية التعامل مع حركات الإصلاح التي ظهرت فيها، مثلا في تشيكوسلوفاكيا او هنغاريا. وبالتالي لم يكن

الحزب - على الأقل الجزء الأكبر منه –ضد هذا الخطاب، بل كنا نتوسم به خيرا. ذلك لأن الإصلاحات والتعديلات الداخلية ستساهم في تطوير ونمو الاشتراكية. وشيء طبيعي جدا ان يكون لكل نظام مسارات قد تكون غير سليمة او أخطاء. وهذه الأخيرة قد تؤدي الى انتاج مؤسسات غير سليمة وقد تتسبب في آثار اقتصادية وبالتالي قد تخلق مشاكل اجتماعية وحالات تذمر. وهذا كله، بحكم حركة الواقع وجدلية هذه الحركة، ربما يتحول الى أزمات حكم. وكان من المفترض أساسا ان يكون عند الاتحاد السوفيتي آليات داخلية قادرة على تعديل المسار، وعلى التعامل مع المشاكل، مع الحفاظ على هوية وطبيعة النظام الاشتراكي. وقد نشأت في الاتحاد السوفيتي في الخمسينات والستينات حركات تدعو للإصلاحات، خصوصا على الصعيد الاقتصادي. لكن هذه الحركات سرعان ما اخمِدت.

وانا اعتقد اننا كأحزاب شيوعية في بلدان العالم المختلفة، سواء في بلدان ما يسمى الكتلة الاشتراكية او في باقي البلدان، كنا مقصرين. لأننا كنا نعتبر هذه التناقضات غير تناحرية، ولم نكن نملك التقدير السليم للخلل ولا لحجم تراكم الأخطاء. علما ان هذه الأخطاء غير مرتبطة بأشخاص او بقرارات غير سليمة للحزب الشيوعي السوفيتي فقط. ذلك ان قسما كبيرا منها مرتبط بالبنية الداخلية وبالأسس التي تقوم عليها. مثل: الدولة، التنظيم الاقتصادي للمجتمع الاشتراكي، دور المنظمات وغيرها. كما ان النظام الاشتراكي، كان يعاني من مصاعب حقيقية، بدأت تبرز على ادائه ككل، خصوصا من ناحية علاقته مع مختلف أوساط الشعب، كذلك بدور الطبقة العاملة والشعب في إدارة الديمقراطية الاشتراكية، والمؤسسات المفترض فيها ان تكون رقابية، لمصالحهما. فالسوفيتات كان دورها محدود، ودون مستوى الدور الذي كان من المفترض بها ان تلعبه، كمعبر حقيقي عن الإرادة الشعبية. وكذلك الامر بالنسبة للنقابات، فعمليا لم تكن تلعب دوراً في الدفاع عن حقوق العمال حتى إذا اقتضى الامر إزاء الحكومة. لقد كانت بالدرجة الأساس منفذة للسياسات العامة للحزب.

كان المعلن بالعموم والدعاية تقول ان الاتحاد والمجتمع السوفيتي خالي من التناقضات. هناك حالات خاصة تعزى الى تمردات شخصية او أي توصيف آخر بعيد عن الواقع. بينما على ارض الواقع، كان المجتمع يفرز تفاوتات وتعارضات تصل الى حد التناقضات. حيث برزت شريحة ترتبط مصالحها بدورها في إدارة المؤسسات الاقتصادية، وبتمتعها بالسلطة والنفوذ، قسم منها بسبب موقعها في الحزب والدولة. وبالتالي، كانت هناك فجوة بينهم وبين السواد الأعظم من المجتمع.

وكان من المفترض ان يكون هناك تحليلا تفصيلياً، قائم على أرضية ماركسية، لتناقضات النظام الاشتراكي، وتحديد مستوياتها. لكن مع الأسف هذا لم يحدث. وكان يجري التداول بالسلبيات والاخطاء الموجودة، وإذا كانت هناك بعض المعالجات، فهي جزئية ولم تذهب في العمق.

وعندما بدأ غورباتشوف يتحدث عن هذه الظواهر، معلنا ما كان يتم الحديث عنه في الخفاء، سواء في الاقتصاد او معاناة الناس او التفاوت الموجود بين المجتمع السوفيتي والمجتمعات الأخرى، كان خطابه يلقى صدى إيجابياً. لكن عندما بدأ الإجراءات العملية، كان التحرك يحدث على عدة جبهات وعدة

مستويات في آن واحد! بل عمل غورباتشوف على اضعاف الحزب بأشكال مختلفة، عبر ضرب تنظيماته! واستهدفت عناصر رئيسية في بناء الحزب وبصورة قوية جدا ضعضعت فاعليته وحطت من هيبته. وهنا بدأت المخاطر تبرز. أوليس الحزب هو الأداة والوسيلة الضامنة، لإحداث هذه الإصلاحات على مستوى تنظيم الدولة والقانون وإجراءات مختلفة سياسية واقتصادية، للحفاظ على أسس وجوهر النظام الاشتراكي. وبالتالي، كيف لك ان تضبط هذه الإصلاحات ولا تؤدي الى تفجر الأوضاع. نعم، كان الحزب الشيوعي السوفيتي في تلك الفترة قد ترهل، وهناك العديد من العناصر المتسلقة. لكن هذا لا يعني ان عليك ان تضعضع الحزب وانت تعمل على اجراء الإصلاحات. لقد أدى ذلك الى إطلاق العنان لكل القوى المعادية للاشتراكية سواء في الداخل او في الخارج. ففي الداخل، كانت هناك قوى اجتماعية تريد التخلص من النظام الاشتراكي. كما تسبب في فتح قنوات كثيرة لتأثيرات الغرب. اما بخصوص الحزب الشيوعي العراقي، فإن نهج الإصلاح لقى تعاطفا مع الوجهة في البداية. وقد انعكس هذا في صحافة الحزب. وكان الحزب يعتبر الإصلاحات مطلوبة، لكن مع تحفظات. نعم كان هناك رفاق في حزبنا مندفعين كليا مع طروحات غورباتشوف. إلا ان الحزب لم يكن بمثل هذا الاندفاع دون تفكير. فالحزب لم يكن رافضا بالمطلق لضرورة اصلاح النظام الاشتراكي. فهي تشترط ان نحافظ على الأداة الرئيسية وهي الحزب وان لا نفرط فيه او نضعفه. وعندما حصلت العملية الانقلابية على غورباتشوف، اعتبرنا من قام بالانقلاب قوى حزبية سوفيتية ملتزمة ايديولوجيا بالنظام الاشتراكي، وهي تنظر بعين القلق للمخاطر المحدقة. الا ان تحركهم لم يكن سليماً، ولجأت الى الانقلاب بطريقة تكاد تكون كاريكاتيرية. مع ان من شارك بها هم قياديون كبار في الدولة الحزب الشيوعي السوفيتي والكي جي بي. وبعدما تم القضاء على الحركة، كان العد التنازلي لانهيار الاتحاد السوفيتي قد أصبح اشد وضوحا.

الصدمةً والارتباك

الثقافة الجديدة: ما مدى تأثير هذه الأحداث على الحزب الشيوعي العراقي في تلك المرحلة؟

رائد فهمي: وفي تلك الفترة كان حزبنا مستمرا في اجراء التحضيرات والاستعدادات لعقد المؤتمر الوطني الخامس. وكان الحزب قد قدم مسودة فيها الكثير من الانفتاح، وفيها قضايا نظرية وسياسية جديدة. وقد طرحت هذه الوثيقة للنقاش العام، ونشرت في مجلة (الثقافة الجديدة). وكان نقاش حيوي، وواسع، ومتنوع. وكان يجري في منابر الحزب المختلفة، وبشكل خاص (الثقافة الجديدة). لكن عندما حصل الانهيار نشأ وضع جديد. فما قدم كان يحتاج الى تعديل. وبالفعل قدمت ورقة معدلة. اكدت على ان ما انهار لا يمكن ان يمر مرور الكرام، وكأنه حدث خارجي، ليس له تداعيات على واقع الحزب، وعلى آليات عمله.

وعندما حصل الانهيار عام 1991، لا نستطيع انكار الأثر الكبير، وربما كان هزة كبيرة على شيوعيي العالم عموما، ومنهم الحزب الشيوعي العراقي. ففي تلك الفترة كان الحزب

يعاني من أوضاع صعبة جدا، بما في ذلك على المستوى القيادي، حيث كانت هناك صراعات عميقة. كما كان الحزب قد تعرض الى ضربة كبيرة في الانفال وانتهاء الحركة الانصارية. وعندما جاء انهيار التجربة الاشتراكية كانت تلك ضربة ايديولوجية في الصميم. خصوصا وان الحزب تربى على الاشادة بهذه التجربة وبدورها العالمي، وبكونها على رأس الحركة الشيوعية العالمية تقود النضال من اجل الاشتراكية. وكان خطاب الحزب ينطلق اساسا خلال عقود طويلة متحدثا عن النموذج الاشتراكي السوفيتي، وعن طليعة النظام الاشتراكي، وان التناقض الرئيسي هو بين الاشتراكية والرأسمالية، وان المعسكر الاشتراكي هو السند الأول لحركات التحرر وحركات الطبقة العاملة في العالم. فبغض النظر عن النواقص الظاهرة، الا ان هذه التجربة بقيت المثال الملهم للشعوب. وفجأة، ينهار الحلم، ينهار ما كان ينظر له على انه تجسيد لمشروعك الاشتراكي وبالتالي لأهدافك وربما حتى هويتك. وهنا أدرك الحزب ورفاقه ان الوقت قد حان، أكثر من أي وقت آخر، كي يعالج أوضاعه الداخلية، بالإضافة الى معالجة هذا الارتباك الفكري الكبير.

وإذا كان في داخل الحزب في تلك اللحظة أكثر من راي، وتعدد في المواقف حول خطاب غورباتشوف والإصلاح ومن ثم الانهيار، وبعض الرفاق غيروا مواقفهم تماما من الاشتراكية ككل، الا ان هناك رؤية كانت قد بدأت تتشكل داخل الحزب منذ الثمانينات، انطلقت من تشخيص عدد من ظواهر الضعف والثغرات تستفحل في الاتحاد السوفيتي. على سبيل المثال، بروز ممثلين لشريحة اجتماعية بدأت امتيازاتها وبالتالي مصالحها تتوضح شيئا فشيئا، مبتعدة عن الروح الثورية التي يفترضها النضال والبناء الاشتراكيين. يضاف الى ذلك، تباطؤ معدلات النمو، مع نوع من الركود الاقتصادي. وكذلك، الاسراف في سياسة العسكرة، على حساب قطاعات اقتصادية أخرى ذات مساس بحياة الناس، سواء تأمين مستوى معيشة وخدمات وسلع استهلاكية بمستوى أفضل. وكان لهذه السياسة وغيرها دور أساسي في خلق شيء أقرب للفجوة بين الجمهور الاوسع والسلطة السوفيتية. لقد كانت هذه الظواهر وغيرها مشخصة عند الحزب. لكن كانت تعتبر دائما من النواقص او من الثغرات التي كان من الممكن للنظام الاشتراكي ان يعالجها، ولكن هذه الامور يبدوا هي أعمق مما كنا نقدرها.

وعندما حصل الانهيار، كان الرأي الغالب في حزبنا، يعتبر ان عناصر الانهيار الرئيسية للاتحاد السوفيتي والتجربة الاشتراكية في البلدان الاشتراكية تعود الى أسباب داخلية. وهذا لا يعني انه لم يكن للمؤامرات الخارجية وضغط الدول الامبريالية الخارجية وغيرها من العوامل الخارجية دور مهم في الانهيار. ولكن الاتحاد السوفيتي، والبلدان الاشتراكية معه، صمدوا امام هكذا ضغوطات على مدى عقود، منذ ان كان وضعهم ضعيفا وحتى صار الاتحاد السوفيتي قوة هائلة. لكن الطريقة التي تم من خلالها مواجهة هذه الضغوطات ترتب عليها الكثير من النتائج داخليا، سياسة العسكرة التي ذكرتها انفا على سبيل المثال.

فكريا، كانت الوجهة الرئيسية، وهو ما تم تأكيده في المؤتمر الوطني الخامس، ان الاشتراكية ستبقى مشروع الحزب الاستراتيجي. والفكر الماركسي لا يزال على العموم سليما. ربما يكون الابتعاد عن التطبيق

السليم أحد عوامل الانهيار. لكن، هذا لا يعني ان أسباب الانهيار تعود الى خلل في التطبيق فقط. بل هناك مسائل في النظرية بحاجة للمراجعة. نعم، ربما تكون الستالينية قد لعبت دورا كبيرا في اختزال الماركسية الى مجرد قوانين عامة سهلة التقبل والحفظ. وهذه شكلت الوعي الاشتراكي لأجيال من الشيوعيين. الا ان هذا لا يعفينا من الاعتراف وتقبل ضرورة تدقيق بعض جوانب النظرية على اقل تقدير. فعلى سبيل المثال كانت هناك اطروحات للينين ترتبط بشيوعية الحرب، الا انها عممت واعتبرت قوانين عامة خارج السياق التاريخي الذي رافق طرحها. وأيضا، لم تكن قوانين بناء الاشتراكية التي كان الحزب يثقف بها، وتبناها في وثائق المؤتمر الثالث، جميعها سليمة. وقسم منها انتهى مع انهيار التجربة الاشتراكية، وغيرها.

ربما غيّر بعض الرفاق قناعاتهم الا ان الحزب بقي محافظا على تماسكه، مع اقراره بالحاجة المستمرة للتجديد والديمقراطية. وهذه العملية بحاجة ماسة الى ان تكون متواصلة، وان تتخذ مظاهر جديدة في كل مرحلة، بما يتناسب مع تغير الواقع الموضوعي، على ان تظل محافظة على جوهرها. ان بقاء هذا الجوهر وسلامته، أي الفكر الاشتراكي، لا يعني بأي حال من الأحوال الجمود والتحجر عن مواكبة الواقع.

الديمقراطيةً والتجديد

الثقافة الجديدة: وصلنا الآن الى المؤتمر الخامس: مؤتمر الديمقراطية والتجديد. هل لك ان تصف لنا الأجواء العامة قبل عقد المؤتمر الوطني الخامس؟

رائد فهمي: في تلك المرحلة، كانت رغبة غالبية الرفاق والرفيقات على العموم، وهاجسهم الاول، كما كانت دوماً، هي الحفاظ على الحزب. فكم التضحيات الهائل الذي قدم من رفاق الحزب ورفيقاته هو اساسا بسبب ايمانهم بقضية الحزب الوطنية والطبقية. كانت هذه الرغبة وهذا الهاجس مستمرين. وهما دائما ما يشتدان عندما يستشعر الرفاق ان الحزب يتعرض الى عواصف، سواء كانت هذه العواصف حملات قمع او إرهاب او عواصف ذات طابع فكري او سياسي.

وهذا لا يعني ان وضع الحزب كان مستقرا. لقد كان هناك وضعا قياديا صعبا، وخلافات كثيرة وكبيرة، تفاقمت نتيجة للتطورات السياسية المحلية والعالمية. كما كانت هناك الكثير من الأسئلة عند عموم رفاق الحزب، واختلافات فيما بينهما، حول العديد من المسائل والقضايا، مسائل وقضايا برزت خلال مسيرة الحزب، منذ الجبهة او منذ انتهائها وحتى انهيار المنظومة الاشتراكية. من بينها، ما رافق حركة الأنصار من مرارات - لا نتغافل عن الانتصارات والايجابيات والتضحيات الكبيرة، لكن هذا موضوع آخر - خصوصا بعد انتهائها بسبب حملة الانفال وضربة الكيمياوي. وكذلك، ما برز خلال هذه السنوات الطويلة من ثغرات ونواقص في العمل القيادي، وملاحظات على سلوكيات بعض الرفاق القياديين، والتي تكشفت على وجه الخصوص خلال التواجد والتقارب الناتج عن ظروف حركة الأنصار. فضلا عن الانعطافات في الاوضاع السياسية وما يراه بعض الرفاق من تحميل المسؤولية لقيادة الحزب وكذلك للخط السياسي المعتمد حينها، مثل المراهنات والتصورات او التقديرات

الخاطئة. ثم يضاف الى كل هذه الأعباء، انهيار المنظومة الاشتراكية والشكوك والاسئلة الكثيرة النظرية والفكرية التي تسبب بها هذا الانهيار. على الرغم من ان كل هذه الإشكاليات تركت آثارها على الرفاق، الا ان الحزب والحفاظ عليه، وضرورة ان يتماسك في ظل هذه العواصف، كان هاجس الرفاق الارأس.

كان المطروح امام الحزب وقيادته ورفاقه ورفيقاته سؤال مركزي: كيف يستطيع الحزب الخروج من أزمته التنظيمية والفكرية؟ وكيف يحافظ على وجهة سياسية سليمة؟ لقد تولدت عند الحزب، عبر عقود نضاله الطويلة، خبرة سياسية كبيرة، نضال استمر خلال أوضاع سياسية مختلفة وظروف دقيقة وصعبة. هذه الخبرة مكنته دوما من رسم سياساته بواقعية، بعيدا عن سيناريوهات القفز على الواقع. ربما كانت هناك في بعض الأحيان محطات لم ينسق فيها الحزب مع الواقع. لكن النهج عموما كان رسم السياسات بعقلانية وواقعية وتوازن. وان يكون الحفاظ على الحزب، وبناء الحزب وتمكينه من الاستمرار هو الاساس. في تلك المرحلة وقبيل المؤتمر الخامس، إذا كان هناك بعض الرفاق قد غيروا من أفكارهم وقناعاتهم وبعضهم ترك الحزب، لكن كانت غالبية الرفاق مدركة عن قناعة تامة ان لا بديل حقيقي عن الحزب الشيوعي العراقي، يوصف بأي درجة من درجات الثورية، للنضال في سبيل البديل الوطني والتقدمي. فكل الأحزاب الأخرى اما قومية او إسلامية، وهي بالتالي لا يمكن ان تمثل او تناضل نحو البديل الافضل. وبعض الأحزاب الوطنية او الديمقراطية هي أحزاب وجودها الحقيقي فوقي، بينما للحزب الشيوعي العراقي وجود حقيقي وامتدادات تاريخية وتنظيمية في مختلف مناطق العراق. وللخروج من أزمته التنظيمية والفكرية دشن الحزب قبل انعقاد المؤتمر الخامس، وضمن التحضيرات والاستعدادات نقاشا واسعا جدا على الصعيد الفكري والنظري. طرحت خلاله الأفكار دون تحفظات. واستمرت هذه النقاشات لسنوات قبل عقد المؤتمر. وقد فسح هذا الوقت الطويل نسبيا المجال كي تبرز الافكار بكل ابعادها واشكالها. واعتقد ان هذا النقاش الحر والعميق، في مختلف المنابر والهيئات، ساهم في امتصاص وقع الصدمة، وان كان قسم منه، بأبعاده المتنوعة العدمية والليبرالية او حتى المتشددة، هو أساسا لواقع نتاج الصدمة ذاته. على العموم، كان النقاش يتضمن طيفا واسعا من الأفكار في إطار اليسار والماركسية وتفسيرها، او اجتهادات حولها. كما اشتمل النقاش أيضا على قضايا أخرى، مثل تغيير اسم الحزب، انفتاح وتغيير في التوجهات السياسية وحتى الفكرية للحزب، ليبرالية في البناء التنظيمي. وقد اعيد طرح بعض هذه المواضيع في المؤتمر. لكن في النهائية، لأن عملية التفاعل والتلاقح الفكري هذه استمرت فترة طويلة، فقد كان نتاجها ان بدأت تتبلور رؤى وتصورات أكثر نضجا خلال المؤتمر، مركزها كما اشرت انفا الحفاظ الحزب.

وقد لعبت هذه النقاشات دورا كبيرا في تخفيف غلواء الضغوطات والاتجاهات التي كان من الممكن ان تهدد وحدة الحزب. فالخلافات إذا بقت دون حلول قد تتطور وتنعكس تنظيما. علما ان الوضع التنظيمي ذاته، قبل انعقاد المؤتمر كان مرتبكا. حيث اضطر العديد من الرفاق الى المغادرة الى المنافي. وواجه الحزب العديد من الإشكاليات التنظيمية بهذا

الخصوص. فبعض البلدان لم يكن فيها تنظيم حزبي أصلا، او كان التنظيم فيها صغيرا. فضلا عن ان الشيوعيين العراقيين واجهوا جملة من مشاكل اللجوء وترتيب الأوضاع وغيرها من المشاكل الشخصية. كما ان الحزب كان يواجه اساسا مشكلة لوجستية، فهو ما عاد قادرا على اسناد معيشة الرفاق اللذين خرجوا من كردستان او سوريا. وان استطاع ان يساهم في اخراج العديد الى بلدان اللجوء. وبعض الرفاق استطاعوا إيجاد حل بإمكانياتهم الخاصة. هذه القضايا وغيرها استنفذت الكثير من قدرات وطاقات الحزب. فكيف يمكن للحزب ووضعه التنظيمي في مثل هذه الظروف ان يخوض في التحضيرات لعقد مؤتمر فيه مثل هذه القضايا الجدلية الكبيرة فكريا وسياسيا وتنظيميا! وان يهيأ لها في المؤتمر أفضل الظروف للخروج بصيغة موحدة قادرة على مجابهة التحديات والتطورات.

الثقافة الجديدة: بعد هذه الفترة الطويلة من التحضيرات والنقاشات، ماهي المحصلة النهائية التي خرج بها المؤتمر؟

رائد فهمي: لقد فسح الحزب، من خلال المسودة التي قدمها لوثائق المؤتمر الخامس، المجال لمناقشتها في جميع الهيئات الحزبية على مختلف مستوياتها. وكذلك، في المنابر الحزبية (طريق الشعب) و (الثقافة الجديدة). وبالتالي، عندما عقد المؤتمر، وقد استمرت نقاشاته لمدة أسبوعين، كانت معالم بلورة التوازن بين الحفاظ على الحزب ومكتسباته وضرورة التجديد والتغيير قد تم تحديدها الى حد كبير. بمعنى ان نقاشات المؤتمر ونتائجه كانت في المطاف الأخير محصلة عاكسة لكل الطروحات والنقاشات التي كانت قد جرت خلال سنوات.

كانت المحصلة هي التأكيد على الثوابت وضرورة الديمقراطية والتجديد. وكانت الثوابت هي الحزب وهويته. وقد استفاد الحزب كثيرا من المثال الذي قدمته الأحزاب الشيوعية التي غيرت اسمها ونهجها بعد انهيار التجربة الاشتراكية. حيث عانت هذه الأحزاب لاحقا وبسرعة من تفاقم تناقضات كبيرة فيها، مما ادى الى تفجرها بسرعة. وقد اعتبرها الحزب ردود أفعال مرتبكة ومتسرعة. وكان يرى ضرورة التأني لاستيعاب الصدمة. وبالتالي كانت قناعة الرفاق بل وتعلقهم وانشدادهم الي هوية الحزب الشيوعية كبير جدا.

أما بخصوص ضرورة التجديد والديمقراطية، فلقد كانت الوجهة العامة في حزبنا، منذ ان كان يستعد ويجري التحضيرات اللازمة لعقد المؤتمر، ان هناك الكثير من القضايا الحزبية الداخلية بحاجة الى مراجعة. مثل الآليات التنظيمية والخطاب الايديولوجي والسياسي، وقضية المركزية على حساب الديمقراطية، وغيرها. وبالفعل، هذا ما تم اقراره في المؤتمر. فبالنسبة للديمقراطية الحزبية، تمت دمقرطة الحياة الحزبية الداخلية، بما فيها الانتخابات الحزبية. وفُسح المجال أكثر للمشاركة الجماعية في داخل الحزب لصياغة السياسات وتنفيذها. وتم تقريب القاعدة، في بناء الحزب الهرمي، أكثر فأكثر من مراكز صنع القرار.

كما ان خطاب الحزب السياسي والايديولوجي تغير بعد المؤتمر الخامس. حيث كان الخطاب سابقا بنسق معين واطر ثابتة غير مرنة، وأحيانا بتعابير وصياغات ايديولوجية، ليست

بمتناول قطاعات واسعة من الشعب. لقد تغير الخطاب باتجاه ان يكون أكثر ملامسة للواقع وينطلق منه ويرتقي به، بلغة بسيطة أقرب الى لغة الشعب. لكنه بقي متجذرا في ارضيتنا ومستخدما نظريتنا الماركسية، ودون ان يفرط في ايديولوجيته.

كان تجاوب الحزب الواعي مع الاحداث، وتعلمه السريع من التطورات، ومحاولته هضمها والتعامل معها بعقلانية وواقعية، كان كل هذا عاملا أساسيا في منع تصدعه وفي الحفاظ على وحدته، وليس كما حدث مع أحزاب شيوعية كثيرة. فمن جهة، كان لدى الحزب رؤية لواقع الاتحاد السوفيتي، وكان نسبيا مشخصا لعوامل الخلل، وان لم يكن يصل الى تقدير ان الأمور ستؤول الى الانهيار. وبالتالي كانت صدمة الانهيار أخف. ومن جهة أخرى، كان لدى الحزب ملاحظاته على السياسات العامة للاتحاد السوفيتي. كما انه لم يكن على توافق تام معها، على سبيل المثال عند لجوؤه الى الكفاح المسلح. فالاتحاد السوفيتي كان يتعامل في مرات عديدة من منطلق مصالحه كدولة، وليس من مصالح طبقية او اممية في علاقته مع الأحزاب الشيوعية العالمية.

وهناك قضية اخرى مهمة في هذا الصدد، ساهمت في تماسكه، وان يتعامل بمرونة مع الحوارات او الصراعات التي جرت، وهي ان الشيوعيين العراقيين كانوا يخوضون معركة وصراع ضد الدكتاتورية، وهذا يستدعي تماسك الشيوعيين وتمسكهم بالحزب. وربما لو كان الحزب في وضع آخر، حالة سلمية وهادئة مثلا، لكانت الأمور ستدور بشكل آخر، ولواجه الحزب مشاكل أكبر.

وفي ظل هذه الظروف أيضا تمكن الحزب ان يشخص الرفاق القادرين على قيادة الحزب في المرحلة اللاحقة. فقيادة الحزب الجديدة، وإن كان عليها ان تكون نتاج عملية انتخابية حزبية داخلية، لكن أيضا لا بد ان تكون لها مواصفات معينة. من بينها ان قادرة على مواجهة كل التحديات، وان تستطيع تأمين مواصفات الثبات والرسوخ خصوصا على المستوى القيادي، وتمتلك الخبرة، وان لا تكون مشاركة في الصراعات والاستقطابات والتخندقات الداخلية في قيادة الحزب. وكذلك ان يكون لها درجة مقبولية من عموم الطيف الحزبي، وان تكون عنصرا جامعا، ولديها الاستعداد الكامل لتسير بالحزب ضمن الوجهة الجديدة التي سيقرها المؤتمر، ولتطبيق او انفاذ شعار المؤتمر (الديمقراطية والتجديد). كان الرفيق (أبو داود) يتمتع بهذه الصفات، وربما كان أكثر من يمتلكها في تلك المرحلة. يضاف لها ثباته وتاريخه النضالي. كما ان التجديد في قيادة الحزب استلزم ان تكون دماء جديدة شابة، إلا انها ذات تجربة وخبرة، تنسجم مع وجهة الحزب عندما انتقل الى المعارضة بعد عام 1979. كما ان لها باع او تجربة في الكفاح المسلح. وفي ذات الوقت كانت القيادة الجديدة تستلزم وجود عناصر الخبرة التنظيمية، الى جانب التجربة التاريخية ممن يمثلون الاستمرار. كما ان القيادة الجديدة عكست الى حد كبير التوزيع الجغرافي والاجتماعي للحزب. كل هذه المسائل تعشقت اساسا مع المهمة الرئيسية وهي ان تكون قادرة على النهوض بالوجهة التي اقرها المؤتمر. ان هذه التوليفة كانت محكومة في قسم غير قليل منها بمتطلبات الحفاظ على الحزب. وانا اعتقد، انه رغم كل الظروف، الا ان القيادة التي خرجت من رحم المؤتمر كانت موفقة

الى حد غير قليل في تدقيق اهداف ووجهة المؤتمر. بالتأكيد، بصورة غير كاملة، إلا انها حققت الكثير لإخراج الحزب من أزمته.
طبعا هذا لا يعني ان الأمور كانت تجري بسلاسة. حيث ظهر هناك ضعف في التماسك والانسجام بين الرفاق القياديين، واشكاليات في العلاقة فيما بينهم. وبالتالي، صعّب من عملية القيادة.

الحصار والعامل الخارجي

الثقافة الجديدة: انتُخبت الى اللجنة المركزية في المؤتمر السادس؟ حدثنا عن أبرز القضايا التي ناقشها ذلك المؤتمر.

رائد فهمي: نعم، انتخبت الى اللجنة المركزية في المؤتمر الوطني السادس عام 1997. كانت أجواء المؤتمر مختلفة عن سابقاته، واتخذت مسارا شبه طبيعي. وقد استمر المؤتمر ليومين او ثلاثة. صعد رفاق جدد الى قيادة الحزب وخرج او انسحب رفاق آخرون. كان النقاش الأساسي في المؤتمر يدور حول موقف الحزب من الحصار، وأيضا من دور العامل الخارجي.
كان الحزب يقف ضد العقوبات الاقتصادية والحصار. فالعقوبات بالشكل الذي فرضت به، لم تكن موجه للنظام، بل وقع ضحيتها كل الشعب العراقي. كما ان هذه العقوبات وان كانت قد اضعفت النظام، لكنها أيضا طالت أسس ومرتكزات الدولة العراقية كلها. وهذه القضية أكبر من النظام بكثير. حيث ان آثارها هذه طالت حياة الناس، خصوصا بسبب ضعف قدرة الدولة على تقديم الخدمات، والحفاظ على امن البلد.
كما ان الدكتاتورية تمكنت فعليا من ترحيل ضغوطات العقوبات ووضعتها على كاهل الشعب العراقي. وهي بما يصلها من موارد استطاعت تأمين إعادة انتاج حكمها. لقد كان النظام، كما لاحظنا في تلك الفترة، مستمرا في بناء القصور، ويوزع الكوبونات والرشى للأجهزة الاعلامية والسياسيين في الخارج ليؤيدوه. وفي ذات الوقت ازدادت ثروة الكثير من ازلام النظام والمحسوبين عليه نتيجة لسيطرتهم على قنوات التهريب والتلاعب بأسعار العملة وغيرها من الأمور.
وكانت العلاقة مع المؤتمر الوطني موضع جدل كبير في المؤتمر السادس. فما هو موقف الحزب إذا كان الامريكان يسعون للتغيير؟! وكيف يتعامل الحزب مع كل هذه التطورات ويحافظ على استقلاليته؟! طبعا على مستوى الحزب كان هناك رفاق يميلون لإبقاء العلاقة مع المؤتمر الوطني. وإذا كانت هذه القضية، خصوصا في ظل تلك الظروف، تحتمل الاجتهاد، لكن كان هناك جانب مبدئي هو الاستقلالية الفكرية والسياسية والتنظيمية للحزب. كما كان التركيز ينصب على ما هي الاستراتيجية البديلة لإسقاط النظام؟ وإذا كان الحزب يركز على ماهي استراتيجيته البديلة؟ وهي بالدرجة الاساس التعويل على العامل الداخلي. كان يبرز السؤال المهم جدا: كيف نفعل هذا العامل؟ كيف يمكن ان نخلق الظروف كي يتحول السخط والتذمر الداخلي الى احتجاج وفعل سياسي؟
وكذلك كانت هناك قضية أساسية أخرى، وهي كيفية ادامة النضال المعادي للدكتاتورية؟ كيف نديم الصلة بقوى المعارضة بحيث نحقق شكلاً من اشكال التضامن الذي يوحدها بالضد من الدكتاتورية؟ كيف يمكن ان نحدد

شكل العلاقة بينها وبين العامل الخارجي الذي يدعمها، لكنه يدعمها لأهداف ومصالح خاصة به؟ كيف يمكن لهذه القوى ان تكون سيدة نفسها، وغير خاضعة لأي شكل من اشكال التأثير الخارجي.

كما كان النقاش يدور في المؤتمر حول تواجدنا في الداخل. والاشكال التي يتواجد فيها الحزب للعمل في ظل القبضة الأمنية الكبيرة للنظام والصعوبات المستمرة، ليس من ناحية القمع فقط، وانما محاولات التغلغل والاندساس. طبعا، كان النقاش حول هذه الموضوعة يدور بخطوطه العامة لأن المسائل التفصيلية لمثل هذه القضايا كانت سرية. قضية تنظيمية اخرى كانت مهمة في المؤتمر، وهي كيف نطور العلاقة مع تنظيمات الخارج. خصوصا وان بعضها اتسع وبرزت امامه إمكانيات جديدة. كما ان وزن الحزب الأكبر صار في الخارج، وهذه من الحالات النادرة في تاريخ الحزب. فكيف يمكن مشاركة تنظيمات وكوادر الخارج في صناعة سياسة الحزب في تلك الظروف حيث لا انترنت ولا تسهيلات في وسائل اتصال أخرى!

وفي تلك المرحلة، ومنذ المؤتمر الخامس، برزت قضية مهمة أخرى، وهي تواجد رفاق من قيادة الحزب وأعضاء من اللجنة المركزية في الخارج. والحزب تاريخيا غير ميال لهذه القضية. لكن هذا ما حدث بسبب الظروف القاهرة. وبالتالي صارت اجتماعات الجنة المركزية كل 6 أشهر او أكثر. والتواصل فيما بين هذه الاجتماعات أكثر صعوبة. وبالتالي، كيف يمكن ان تطور وتدعم وتنظم الوحدة الفكرية والسياسية والتنظيمية للحزب في ظل هذا التشتت؟ وفي ظل كل هذه المؤثرات الخارجية؟ خصوصا وان كل منطقة في الخارج، أصبح لها خصوصيتها، صارت ساحة. فكيف يمكن التعامل مع هذه الخصوصيات مع الحفاظ على الوجهة التي اختطها الحزب. باعتقادي، وعلى الرغم من كل التباينات والصراعات التي برزت، إلا ان الحزب استطاع إدارة الأمور بشكل إيجابي، وذلك لأن التوصل الى المشتركات كانت تفترضها الثوابت الراسخة.

وفي تلك المرحلة أيضا وخلال المؤتمرات الوطنية الثلاثة: الخامس والسادس والسابع برزت ظاهرة مهمة، وهي صعود بعض الرفاق من الذين شاركوا في العمل المسلح وقوات الأنصار الى سدة العمل القيادي، قسم منهم استقروا في الخارج واخرين بقوا في كردستان.

المعارضة العراقية.. مواقف متباينة!

الثقافة الجديدة: كانت فترة تسعينات القرن العشرين، منذ انتهاء انتفاضة آذار 1991 وحتى 2003، مرحلة مهمة في تاريخ الشعب العراقي والحزب وأيضا المعارضة خصوصا ومواقف الاخيرة من قضايا الحصار والتدخل الخارجي. هل يمكن ان تحدثنا عن تلك المواقف؟

رائد فهمي: صار واضحا، منذ انتفاضة 1991، ان بعض أطراف المعارضة ليس لديهم تواجد حقيقي في الداخل، وان لبعضهم الآخر ارتباطات مختلفة، ومن بين هؤلاء من كان يعول أكثر على العامل الخارجي. وقد تعززت الوجهة الاخيرة بعد مؤتمر فينا، ولاحقا مؤتمر لندن، خصوصا بعد ان جُمعت المعارضة في المؤتمر الوطني. وبدأ بعض

أطرافها ينسج ويقيم او يطور علاقته مع دول التحالف الغربي، وبشكل خاص مع الولايات المتحدة. وهذه الأخيرة وضعت ممثلا مكلفاً بالتواصل مع المعارضة العراقية. والأخير كانت علاقته وثيقة مع المؤتمر الوطني واطرافه المختلفة.

لقد كان موقفنا كحزب واضحاً تجاه هذا التعويل على العامل الخارجي. فالحزب وان كان يؤمن ان الرهان على الدعم الخارجي غير سليم، الا انه لم يتخذ موقف سلبيا من الدعم الدولي بشكل مطلق. ان وجهة نظر الحزب كانت تستند الى ضرورة ان تتفق قوى المعارضة العراقية أولا على برنامج وعلى وجهة ومشروع وطني ديمقراطي يقدم حلولا لمشاكل العراق الكبيرة والاساسية. وعلى أساس هذا البرنامج والمشروع يمكن لقوى المعارضة ان تتوجه اقليمياً ودولياً، سواء على الصعيد الرسمي او على الصعيد الشعبي مع أحزاب وقوى ديمقراطية. لكن مع الأسف هذا لم يحدث. وذهبت الكثير من أطراف المعارضة متفرقة، وبدون رؤية مشتركة، وسمح للولايات المتحدة ان تكون في موقع مركزي في العملية وان تكون هي الطرف المنسق لتوحيدهم. وبالتالي، عندما بدأت هذه الاتجاهات تتجلى في المؤتمر الوطني انسحبنا منه. لكن علاقتنا مع المعارضة استمرت على اعتبار ان ما يجمعنا هو الوقوف ضد الدكتاتورية.

ومما يسجل على بعض أطراف المعارضة أيضا، انهم أيدوا العقوبات الاقتصادية (الحصار). وهذا ما ميزنا عنهم تماما. حيث كان الحزب يقف ضد الحصار، وهو من رفع شعار "لا للحصار، لا للدكتاتورية". فالعقوبات بالشكل الذي فرضت به، لم تكن موجه للنظام، بل وقع ضحيتها كل الشعب العراقي. فالدكتاتورية تمكنت فعليا من ترحيل ضغوطات العقوبات ووضعتها على كاهل الشعب العراقي. لقد اضعفت العقوبات المجتمع العراقي ككل، كما تردى وضع غالبية مؤسسات الدولة خصوصا الصحية والتعليمية. لقد بدأت الدولة بالتصدع، وشرعت بنيتها بالتفكك بفعل الحصار. لقد ترك الحصار اثاره العميقة ليس على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فقط. وانما طالت آثاره المستوى القيّمي وساهم في خلق ممارسات جديدة وغريبة على المجتمع العراقي.

وقد اضطر النظام لاحقا الى الرضوخ، وشرع بتنفيذ برنامج النفط مقابل الغذاء. وقد تمكن النظام ان يحصل على فائدة كبيرة من هذا البرنامج. حيث انه استطاع ان يرتب اموره، وكذلك استطاع من خلال شركات وقنوات غير رسمية، وعبر التهريب ان يستفيد هو والحلقات القريبة منه التي جاءت لإنعاش وضعه الداخلي وعرف لاحقا حجم الشبكات التي استخدمها مع التجار تواطئ حتى من منظمات دولية وحتى عناصر في الأمم المتحدة كانوا متواطئين معه في تطبيق هذا البرنامج.

وفي الوقت ذاته طور النظام او استحدث قنوات واشكال عديدة لتخفيف الضغط عليه عبر ركائز اسناد سياسي واعلامي على مستوى اشخاص ودول وحركات سياسية. قسم منها محسوبة على قوى اليسار وتقدمية، اوجدت نوع من التعاطف معه، ليس حبا بنظامه ولكن من منطلق مواجهة أمريكا زعيمة الامبريالية. لذلك كان من المفترض منهم اخلاقيا وليس سياسيا ان يقفوا معه ضد الامريكان وهذا كان موقف بعض القوى

اليسارية وحتى بعض الأحزاب الشيوعية لكن بدرجة اقل لها استعداد للتعاطف معه كضحية وكطرف أضعف في المواجهة مع الامريكان. وبسبب موقف حزبنا الرافض للحصار، وللحرب لاحقا، فإنه تعامل ونسق كثيرا مع الحركات السياسية والاجتماعية التي كانت تقف بالضد من الحصار والحرب. الا ان موقفه من هذه الحركات كان متميزا أيضا. فالكثير منها، كما ذكرت قبل قليل، كانت تنظر الى القضية بصورة وحيدة الجانب. فهي لم تكن تأخذ بعين الاعتبار مسؤولية النظام الدكتاتوري عن كل الاحداث. وهم تحت ذريعة الوقوف ضد التدخل الامبريالي كانوا يعتقدون ان كل القضايا الأخرى هي ثانوية، ومن الممكن تجاوزها. وبالتالي، كانت هذه الحركات عمليا تقف الى جانب النظام. بل وبعضها يعتبره ضحية، وكان لديها تواصل معه وتذهب بوفود لزيارته.

وعندما كان صوت الحرب يرتفع، كان الخطاب السياسي للحزب واضحا. وهو يؤكد على ان الاجدى دائما من الحرب والأساليب العُنفيّة إيجاد آليات واضحة للضغط على النظام ذاته. وفسح المجال للمعارضة الداخلية ولأشكال السخط الموجودة في البلد كي تعبر عن نفسها داخليا، بدلا من ان تكون مقموعة بسبب قوة النظام البوليسي. ولذلك كانت المحاور الرئيسية لنشاطنا السياسي والتضامني من الخارج والترويج لمشروعنا هي اسقاط الدكتاتورية مع المراهنة على العامل الداخلي. ولم نكن نقصد بذلك فقط قوى المعارضة الموجودة في الخارج، والتي لديها تواجد محدود في الداخل، بل كنا نقصد ذلك السخط والتذمر عند اقسام واوساط شعبية واسعة بما فيها داخل المؤسسة العسكرية. حيث كانت ترد الى الحزب حينها اخبار الرفض الشعبي الموجودة في العراق سواء في المؤسسة العسكرية او العشائر.

كما كان الحزب أيضا يرى ضرورة ان تركز قوى المعارضة والعامل الخارجي أيضا في الضغط على النظام لتطبيق قرار الأمم المتحدة 688 الذي يدعو النظام لاحترام الحقوق وفتح مساحة للحريات. وكنا ندعو الجميع للمساهمة في هذا الضغط. فهذا سيفسح المجال لنا وللقوى المدنية والوطنية وحتى القوى الشعبية في ان تجد مساحة للعمل.

نعم، ربما كانت الحجة التي نواجه بها لا تخلو من شيء من الصحة. وهي ان السخط والتذمر الداخلي مهما كان حجمهما، خصوصا في فترة الحصار، لم يكونا كافيين لإسقاط النظام. وبالتالي سيؤدي هذا الى إطالة عمرة. الا ان إجابة الحزب كانت واضحة. ان الاستناد على العامل الخارجي والحرب والوسائل العنيفة بالإضافة الى تكلفتها البشرية الهائلة، فإنها ستخلق أوضاعاً غير مسيطر عليها. والدولة او الدول التي ستسقط او تحتل البلد لديها مصالحاها وبرامجها الخاصة. وسيكون تأثيرها على الأوضاع وفق أولوياتها ومصالحها، وهي ما قد لا يتوافق وما يتطلع له الشعب العراقي.

(المؤتمر الوطني)

الثقافة الجديدة: مع كل هذه الخلافات حول الحصار ودور العامل الخارجي، لماذا دخل الحزب في المؤتمر الوطني، ولماذا انسحب منه لاحقا؟

رائد فهمي: وقبل الحديث عن تشكل المؤتمر

الوطني، وعن أبرز التحولات والتطورات التي مرت بها المعارضة في تلك الفترة، هناك ملاحظات مهمة يجب ايرادها في البداية. ان تواجد الحزب في الخارج تاريخي، فبعض تنظيماته والتنظيمات الطلابية التي ينشط فيها، يعود تأسيسها في بعض البلدان الى خمسينات القرن العشرين. فهو موجود، تقريبا في كل بلدان أوروبا، وكذلك في الولايات المتحدة وأستراليا. ولديه تنظيمات في الكثير من هذه البلدان. وكان وجوده هذا متقدم على الأحزاب الأخرى. حتى عندما بدأت موجات الهجرة في الثمانينات ولاحقا في التسعينات وصار للإسلاميين وجود في بلدان الخارج. وبالتالي، كان للحزب ولشبكته التنظيمية هذه في الخارج، ولحضوره ووزنه السياسي، جعلت منه عنصر محوري، وطرف غير قابل للتجاوز، من قبل الجميع. وكان هذا أساس تعامل الجميع معه.

وكما ذكرت سابقا، في الفترة التي سبقت 1990، عمل الحزب، مع كل مجاميع المعارضة، بغية إيجاد صيغ عمل نضالية مشتركة. وهكذا شكلت لجنة العمل المشترك. وكانت موجودة في عدد من بلدان الخارج. ولاحقا، وبعد مؤتمر فينا بدأت المعارضة تأخذ منحاً آخر. فبدأت هذه اللجان تتوسع وتتغير تركيبتها، بدخول عناصر جديدة. وإذا كان التوسع شيء جيد، إلا انه كان توسعا باتجاه آخر مع بروز دور المؤتمر الوطني. يضاف لذلك المعطيات الجديدة التي افرزت بعد الانتفاضة، حيث أصبحت كردستان في وضع شبه مستقل.

ومع تزايد الدور والتدخلات الأميركية بشكل مباشر في عمل المعارضة، بدأت تتبلور اشكال جديدة غير مألوفة من اجل تكثيف التعاون بين اطرافها او توحيدها. ومن بين هذه الاشكال المؤتمر الوطني. حيث شرع في تعبيد أرضية لجمع المعارضة على أساس تقسيم العراق الى هويات ومكونات طائفية ودينية وقومية. ومن هنا بدأت صيغة المحاصصة التي نعيشها اليوم. وبدلا من الصيغة المعروقة التي كنت قد تحدثت عنها سابقا، تم جمع المعارضة على اساس كورد، سنة، وشيعة. وما كانوا يعترفون بالأحزاب ذات الاتجاه الديمقراطي، وفي الغالب كان هؤلاء يعاملون كمستقلين. فقط الحزب الشيوعي، كان حزبا واضح المعالم، وفرض نفسه وبقي خارج هذه المعادلة. والحزب، رغم سعيه الدؤوب دائما بجمع قوى المعارضة، لم يكن ينظر بإيجابية لهذه التحولات وهذه الاصطفافات الهوياتية. لكنها حينها كانت موجة كبيرة جدا. كما انها كانت تحظى بدعم خارجي وبنفوذ قوى كبرى وقدرات تمويلية كبيرة. ففي تلك الفترة كان الدعم الأميركي صريحا للقوى والشخصيات الليبرالية او التي تتبنى اقتصاد السوق. بينما كانت إيران تقدم مختلف اشكال الدعم القوى الإسلامية الشيعية، التي كان لها بحكم هذا الدعم وبحكم الحدود الواسعة تواجد في العراق.

ولأن الحزب كان حريصا دائما، كما ذكرت، لتجميع المعارضة ولزيادة التنسيق والتعاون فيما بينها في مواجهة النظام الدكتاتوري، فقد كان حريصا على ان تتخذ المعارضة العراقية الخطوات التي تؤكد دائما على وحدة وقوة وتماسك الطرف العراقي. وكان حريصا أيضا، على ان تتبلور عند قوى المعارضة هذه رؤى وتصورات مشتركة ناضجة، يتم على أساسها التعامل مع الآخرين، أي مع العامل الخارجي. وبالتالي، عندما تشكل

المؤتمر دخلنا فيه، على هذه الأرضية، ارضية انها قوى معارضة عراقية للنظام الدكتاتوري، نستطيع ان نساهم في صياغة رؤاها وتصوراتها في القضايا السياسية.
لكن بدأت ملاحظاتنا وتساؤلاتنا تتزايد مع ملاحظتنا للآليات التي اتبعت في التعامل والتنسيق مع العامل الخارجي، وحول قضية التمويل ايضا. وليس المقصود هنا الأمريكان فقط، بل والبريطانيين، وكذلك السعودية وغيرهم. وقد أعلنا ذلك صراحة. ودون ان يمضي وقت طويل أدرك الحزب ان هذه الصيغة لا تمثل الصيغة الصحيحة لجمع المعارضة العراقية. لذلك انسحب من المؤتمر. الا ان انسحابه هذا لم يكن يعني الانتقال الى موقف العداء. بل كان يعني ان الحزب سيبقى مستقلا ولن يدخل في أي اطر تعاون او تنسيق لا تنسجم مع مواقفه. وبالتالي حافظ الحزب على علاقته مع جميع الأطراف ضمن هذه الوجهة.
ولذلك لم يكن الحزب مؤيدا لعقد مؤتمرات المعارضة التي كان يساهم في اعداداها ويشارك فيها العامل الخارجي، الأمريكي وغير الأميركي. وبالتالي لم نكن طرفا في مثل هذه المؤتمرات ولم نحضر مؤتمر لندن لهذه الأسباب.

صراع على جبهتين

الثقافة الجديدة: قبيل الحرب والاحتلال 2003 برزت صعوبات وصراعات كبيرة، موقف الحزب تجسد في شعار "لا للحرب... لا للدكتاتورية"! الجزء الاول من الشعار لا يرضي المعارضة التي عوّلت على الحرب. والجزء الثاني يخالف الحملة الدولية ضد الحرب. كيف وفقتم بين النقيضين؟

رائد فهمي: وكما ذكرنا سابقا، فإن تطور العلاقة مع الأمريكان خصوصا بعد احتلال الكويت قد خلق توقعات، عند بعض أطراف المعارضة، بأن هناك إمكانية للاستعانة بالعامل الخارجي، وبدعم أميركي بوجه خاص، لتغيير النظام. وقد اكدت حرب تحرير الكويت هذه الامكانية. وإذا كان تحول سياسة جورج بوش الاب "المفاجئ"، عندما أوقف الحرب الى حدود سقوط النظام وسمح للقوات العراقية بمقع انتفاضة آذار 1991، قد خلق احباطات عند هذا القسم من المعارضة؛ الا ان السنوات اللاحقة، والتطورات المستمرة التي حدثت، اعادت احياء هذه التوقعات عند اقسام أوسع من المعارضة. وعلى وجه الخصوص، مع دخول قوى ليبرالية، مثل المؤتمر الوطني المدعوم من الولايات المتحدة. وفي هذه الفترة كان هناك نشاط حثيث، خصوصا من قبل المؤتمر الوطني، مع الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهم من القوى الأساسية في التحالف، من اجل سحبهم الى موقف مفاده ان العراق يتحمل مسؤولية دعم الارهاب، وأيضا اثارة الملف، الذي اتضح لاحقا ان لا مصداقية له، وهو ملف التسلح.
طبعا، نحن كحزب ندرك انه من غير المعقول ان الولايات المتحدة بمؤسساتها واستخباراتها تغير موقفها الاستراتيجي بناء على تحركات ونشاطات هذا السياسي او ذاك، او بناء على المعلومات التي تردها من هذا من أي مصدر كان. وان تكون هذه المعلومات مصدرا أساسيا لصنع القرار، ناهيك أصلا عن كون قسم من هذه المعلومات مضللة. إلا ان هذه التحركات وهذه المعلومات، وفرت لهم، بالإضافة الى

عناصر أخرى، مبررات تشرعن شن الحرب. خصوصا في تلك الفترة، التي كان يسودها قناعة عند إدارة جورج بوش الابن بضرورة شن الحرب ضد الإرهاب، ضمن حملة الانتقام لأحداث 11 سبتمبر 2001. وكان العراق بعد افغانستان من الأهداف الرئيسية لهذه الحرب. وبالتالي، ضربت الولايات المتحدة عرض الحائط بالقرار الدولي واستعدت لشن الحرب بدعم من حلفائها خصوصا بريطانيا.

اما على صعيد المعارضة العراقية في تلك المرحلة، فإن الجزء الأكبر منها كان متحمسا، الى ان يندفع هذا التحالف بقيادة الولايات المتحدة نحو اسقاط النظام بمختلف الوسائل بما فيها الحرب والتدخل العسكري. فهذه الامكانية لا يمكن ان تتحقق الا بوجود دعم كبير من أمريكا وبتدخل مباشر. والمبررات التي كانت تساق من قبلهم لاندفاعهم هذا كثيرة. فالنظام كان مستمرا في جرائمه، والشعب العراقي يرزح تحت وطأة قمع النظام طيلة سنوات طويلة، ولاحقا تحت وطأة الحصار، والمحاولات الانقلابية كلها قمعت، وكان النظام قادرا على اكتشافها مبكرا.

وهنا ظهرت امامنا في الحزب الشيوعي العراقي ضرورة، في ان يميز موقفه عن هذه الوجهة. فالحزب يؤمن ان الحرب لا تأتي بالديمقراطية. وإذا كان الامريكان قد يلتقون معنا في اهدافنا المباشرة في اسقاط النظام، وفي إيقاف مسلسل الجرائم وانتهاكات حقوق الانسان، ولكن بكل تأكيد هم وحلفاؤها لن يخوضوا الحرب إلا لأهداف استراتيجية ومصالح واغراض خاصة بهم. وربما في مقدمتها موضوع النفط، والسيطرة على منابع النفط والتحكم به وبإمداداته، وغيرها من العوامل المتعلقة بهذا العامل الذي وهو أساس الاقتصاد العالمي. بالإضافة الى القضايا الجوهرية الأخرى، ذات المنطلقات الجيوسياسية والجيواستراتيجية التي ترتبط بمصالح التحالف خصوصا الولايات المتحدة الأميركية.

وفي تلك الفترة تشكلت حركة دولية واممية كبيرة مناهضة للحرب على العراق، تعتبر من اقوى وأكبر الحركات في العقود الأخيرة. فهذه الحرب هي حرب ذات اهداف امبريالية بالأساس، تتمثل في السيطرة على العراق، وعلى ثرواته. كان هناك رفض الحرب من حيث المبدأ. فالمشاكل لا يمكن حلها عبر الحرب. فالضحية الأولى سيكون هو الشعب. خصوصا وان الشعب العراقي كان خاضعا لأشرس واشد عقوبات دولية ومعاناة العراقيين كانت واضحة للجميع

لقد كانت هذا الحركة موجودة في أوروبا وخاصة في بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وكذلك في أمريكا ولكن بدرجة اقل. وكانت تستقطب قطاعاً واسعاً ليس من اليسار فقط، وانما هناك قوى ديمقراطية محسوبة على اليمين أيضا. وهذه كانت على الأقل موجودة في فرنسا وفي بريطانيا. كما كان هناك أيضا طيف واسع من القوى السياسية والاجتماعية يقف ضد الحرب من منطلقات مختلفة. وهذه قد لا تتطابق مع منطلقات القوى اليسارية والتقدمية الاوروبية. تعامل حزبنا مع هذه الحركات وكان حاضرا فيها، بل في فرنسا كنا موجودين حتى في الدوائر القيادية للحركات الداعية للسلم والمناهضة للحرب. وكنا نشارك في الندوات الجماهيرية التي كانت تتم في عموم فرنسا. بل ان مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي سمح لنا ان نتحدث بشكل خاص ونخاطب المؤتمر بهذا الشأن. وهذا شيء نادر. كما كانت لنا

جولات متعددة للوقوف ضد الحرب، شارك فيها معنا ناشطون من اليسار ومن القوى الأخرى المناهضة للحرب.

إلا ان الخطاب السائد في هذه الأوساط، بقي كما كان سابقا، احادي الجانب. حيث كان يركز على جزئية الوقوف ضد الحرب أساسا وضد الولايات المتحدة. ولم تكن هناك إشارات الى الطبيعة الدكتاتورية للنظام، ولا الى ضرورة تسليط ضغط عليه من اجل دفعه باتجاه الانفتاح وتخفيف اجراءاته القمعية وتغييب الحريات، بل وحتى دوره في خلق الظروف المناسبة للتدخلات الخارجية. لقد كان هذا الجزء من الحملة شبه غائب. هذا الجانب هو ما كان يميزنا عنهم. نحن كنا نعمل معهم، لكن في الوقت نفسه كان لنا موقنا الواضح. كنا نخوض نقاشات مع هذه الأوساط، خصوصا الاوساط الديمقراطية واليسارية. فنظرة هذه القوى كانت تنطلق من ان التناقض الرئيسي هو مع الولايات المتحدة، وكل الأمور الأخرى ينبغي ان تخضع الى هذا التناقض الرئيسي، ولا يمكن الآن ان نضغط على النظام العراقي وهو يواجه الولايات المتحدة. ولهذا كانت علاقتنا، مع أوساط اليسار هذه، صعبة فكرياً. فهي كانت تصطدم بهذه النقطة الأيديولوجية. فالتعامل المزدوج مع مثل هذه المسائل لم يكن من الممكن ان يدخل ضمن المنظومة الأيديولوجية السائدة فيها، بينما الوضع العراقي وخصوصيته، كان يتطلب قراءة مختلفة. وهذه الأرضية الايديولوجية هي نفس الأرضية التي جعلتهم يقفون بالضد من الوضع الجديد الذي نشأ في العراق بعد عام 2003، وجعلتهم يدعمون المقاومة والحركات المسلحة التي شنت ضد الاحتلال، انطلاقا من ايمانهم المطلق بـ ”مبدأ مقاومة الاحتلال“، دون ان يتفهموا طبيعة هذه المقاومة وطبيعة تكويناتها، حيث ان قسم منها كان يتطلع لإعادة النظام الدكتاتوري. وعناصر من هذا القسم وتنظيماته كانوا يحاربون أساسا من اجل امتيازاتهم ومن اجل إعادة النظام الدكتاتوري. بينما طيف آخر يمثل حركات إسلامية منها ”القاعدة“ والتي تبلورت فيما بعد الى ”داعش“. ان هذا لا يعني عدم وجود قوى لديها بُعد وطني ضمن صفوف مقاومة الاحتلال. ولكن في وقتها وضمن طبيعة الوضع المعقد، وطبيعة وحجم موازين القوى، وحجم هذه القوى الأخيرة، وفي ظل ذلك الواقع المتحرك ذو الصيرورة المستمرة، فإن نشاطات هذا القسم الأخير كانت تصب في مصالح اهداف ومسارات أخرى في نهاية المطاف.

برأينا ان الوجهة التي ميّزت الحزب كانت واضحة. فقضية العداء للإمبريالية والوقف بوجهة أي محاولة للسيطرة والتحكم بثروات ومقدرات البلد لا يمكن عزلها عن نضالنا ضد الدكتاتورية ومن اجل الديمقراطية والحرية وإمكانية بناء نظام بديل يفسح للشعب ان يستفيد من ثرواته، وان يجمع طاقاته ويحشدها من اجل التنمية والبناء. ان هذه المعادلة (لا للحرب.... لا للدكتاتورية) كانت تدخل الحزب في موقف متميز بل وفي خلاف لا مع اليسار والديمقراطية فقط. وإنما حتى مع قوى المعارضة الأخرى، التي تدعم بشكل مطلق التدخل العسكري والتغيير الخارجي. حيث كانوا يؤشرون صراحة على ان موقف الحزب ملتبس. الا انه في الحقيقة لم يكن كذلك. لقد كان انعكاسا لواقع معقد ومركب.

ولأن الحزب كان يرى ضرورة التمسك بهاذين البعدين من النضال، من اجل سلامة

بوصلة التحرك، فإنه كان يخوض الصراع السياسي والفكري على أكثر من مستوى وأكثر من جانب. جانب منه في علاقته مع الخارج بمختلف اطيافه، وآخر مع أوساط المعارضة. فعلى الصعيد التضامني مع قوى اليسار العالمية وغيرها كان هناك عمل فكري وسياسي كبير. وكان لا يخلو من الصعوبة. خصوصا في كيفية اقناعهم بضرورة تبني هذا الموقف المركب، ضد الامبريالية وضد الحرب وكذلك ضد النظام الدكتاتوري. لقد كانت هذه إشكالية بالنسبة للكثير من الأحزاب والقوى. فهم لم يتفقوا معنا في هذا الترابط. وإذا كان البعض قد تفهم موقفنا وتضامن معنا، إلا ان الجميع كانوا يعتقدون انه من الأفضل في هذا الظرف ان يكون التركيز فقط على جانب العداء للإمبريالية والوقوف ضد الحرب. بينما في أوساط المعارضة، كان الصراع السياسي والفكري على قدر كبير من الأهمية. وخصوصا انه كانت هناك محاولات لحصر وتركيز القرار بيد أطراف معينة ومحدودة جدا، خصوصا تلك القوى الليبرالية او القومية او الطائفية ذات الصلة المباشرة مع الخارج، خصوصا مع الولايات المتحدة. وكانت هناك ايضا محاولات حقيقية لتحجيم دور الحزب، وعزله والتضييق عليه، بسبب مواقفه، بينما كان من الضروري ان يضمن الحزب مشاركته في صنع القرار داخل المعارضة.

طبعا، دون ان ننسى ان الحزب حينها وفي ظل كل هذه الأوضاع المعقدة كان متوزعاً في انحاء كثيرة، في كردستان وداخل الوطن وفي بعض البلدان العربية وفي بلدان أوروبا وغيرها. وكان رفاقنا يتأثرون بالأجواء السائدة سواء على لصعيد البلد المعني وساسته وأوضاعه او على صعيد القوى السياسية الموجودة فيه. وبالتالي، كان هناك جهد كبير مبذول أيضا لتأمين الوحدة السياسية والفكرية داخل الحزب، ولأجل تأمين قناعات راسخة بمواقف الحزب ووجهته السياسية. ان تحليلات الحزب لا تخلو من تعقيد فهي ليست بسيطة وحيدة الجانب وانما هي مركبة معقدة ومتعددة الجوانب وتعكس تعقيدات الواقع. ولذلك من الصعب فهمها إذا لم تكن هناك عقلية جدلية تحقق وتتفهم الربط بين مختلف ابعاد الوضع القائم.

وفي اجتماع للجنة المركزية للحزب، قبيل الحرب، قدمنا تحليلا كاملا، أكدنا فيه بشكل واضح بان الحرب لن تأتي بالديمقراطية كما نتطلع لها. والحرب لا يمكن ان تتحكم بأبعادها خاصة عندما تقوم بها دول مثل الولايات المتحدة ودول التحالف الدولي. فأبعاد الحرب وتداعياتها من الصعوبة التكهن بها، سواء على صعيد مستوى الخسائر المادية والبشرية او على مختلف الصعد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وكذلك أكدنا ان الخيار الأفضل والنهج الأفضل هو ان يلعب العالم سواء من خلال الأمم المتحدة او من خلال حركات التضامن العالمية وحتى الدول الجادة في الخلاص من النظام الدكتاتوري ان تمارس الضغط السياسي على النظام من اجل ان يحترم حقوق الانسان وان يطلق سراح المعتقلين وان يفتح باب الحريات. وهذا هو المنفذ الاسلم لأجل تفعيل العامل الداخلي الرافض للدكتاتورية. لكن، عمليا كنا القوة الوحيدة داخل المعارضة، مع بعض الديمقراطيين، التي تدفع بهذا الاتجاه ولا حظنا ان حتى الحركات التي كان موقفها ضد الحرب كانت متحفظة من هذا الموضوع

لأنهم يعتبرون ان هذا ضغط على النظام ولم يضعوه ضمن وجهاتهم الرئيسية.
وبالتالي، كمحصلة لكل هذه الأمور قرار الحرب كان له الصوت الأعلى وبالتالي هكذا سارت الأمور.

إعادة التنظيم

الثقافة الجديدة: وقعت الحرب، وصار الاحتلال أمراً واقعاً. ما هي الإجراءات العملية التي اتخذها الحزب للتعامل مع واقع الحال؟

رائد فهمي: لم يستطع الحزب، والحركات العالمية التي وقفت ضد الحرب، من منع وقوعها. وبالتالي كان عليه ان يتعامل مع الحالة التي ستنشأ نتيجة للحرب. لذلك جرى تحفيز منظماتنا في كردستان للاستعداد لكل التطورات اللاحقة التي من الممكن ان تنشأ ارتباطا بالحرب. وأيضا طلب من رفاقنا في الخارج، ممن ليس لديهم ارتباطات، الاستعداد للرجوع للوطن بأسرع وقت ممكن. وعندما بدأت الحرب في 19 اذار واستمرت لغاية 9 نيسان 2003، وخلال هذه الفترة، وحتى قبلها، بدأ الحزب يفكر بنزول الرفاق من كردستان الى الداخل.
وفعلا، بدأوا هذه العملية. وكانت على شكل دفعات الى المناطق المحاذية لكردستان. ولاحقا وصلت المجموعات الى بغداد والى المحافظات الأخرى. كان لهذه المجموعات عدة مهمات رئيسية. من اهمها إعادة تواجد الحزب، وتنظيم هذا الوجود، وتوفير كل الأسباب لعمله في الداخل. وجرى اتصال بالرفاق المضمونين، والمؤكدين في تنظيمات الداخل، والذين يمكن إعادة الصلة بهم. كما عمل الرفاق على إيجاد مقرات للحزب، وتمكنوا من الحصول على بعض مباني النظام السابق. ومن ضمنها مقر الاندلس، ومقرات أخرى قسم منها اخليناها لاحقا. بالوقت نفسه أعلن الحزب عن وجوده بأشكال مختلفة وفعاليات مختلفة. والجميع يذكر ان اول جريدة يجري توزيعها في بغداد هي طريق الشعب وفي حينها غطتها الكثير من وسائل الاعلام. وقام الحزب بتنظيم فعاليات حتى في ساحة التحرير.
وصار هناك تدفق كبير من الشيوعيين ومن المنقطعين ومن الديمقراطيين على هذه المقرات. وبدأ الحزب يعمل على اشكال طارئة للتنظيم تمهيدا الى ترسيخه لاحقا. حيث بدأت الاستعانة بالرفاق الذين كانوا منقطعين في الداخل. وتم تشكيل الهيئات الحزبية وتوزيعها على المناطق. ولاحقا، بالتدريج، بدأ الرفاق من الخارج يتوافدون. واغلبهم كانوا كوادر قيادية تمتلك الخبرة وهذه الكوادر قسم منها في بغداد والقسم الاخر في المحافظات وتولوا مسؤوليات كل رفيق في محافظته إضافة الى بغداد. وجرى في هذه الفترة تعطيل النظام الداخلي. لأن الحزب كان في ظروف استثنائية. وكان على الحزب ان يؤمن حماية هذه المقرات لان الوضع كان فوضوي وانفلات أمنى، ولعب رفاقنا الأنصار دورا في حماية مقرات الحزب. وكانت العناصر القيادية تتحرك بصورة مكثفة في بغداد وبين المحافظات لأجل ان تؤمن إعادة تنظيم الحزب بالمحاور والاتجاهات التي ذكرتها. كما نشط الحزب في الترويج ونشر ادبيات الحزب، ومحاولة ايصالها الى ابعد بقعة ممكنة في المحافظات وفي بغداد أيضا وفي مختلف

مناطقها. كما ان رفاقنا الذين في النقابات بدأوا يتحركون ويمارسون أدوارهم.
وبالتوازي مع ذلك، كان الحزب يسعى الى القيام بفعاليات جماهيرية خاصة التظاهرات. وربما أهمها كانت 14 تموز في 2003 وعلى ما اذكر حضر في هذه الفعالية ما يقارب 10 الاف شخص. لقد كانت مظاهرة كبيرة ومؤثرة جدا. حيث طافت من ساحة التحرير مرورا بشارع السعدون الى ساحة الفردوس والى مقر الحزب.
كان الحزب، وهو يسعى الى ان يعيد بناء تنظيماته، يدرك ان هذه العملية بحاجة الى وقت. لأننا نتحدث عن تنظيمات عمليا كانت غائبة كليا. والحزب لأجل ان يعيد بناء قواه وان يعالج كل الجراحات كان يحتاج الى ان ينصرف الى هذه المهمة في ظل أجواء تكون مؤاتية، دون ان يتعرض الى ضغط آخر، ودون ان يُزج في معركة أخرى. فهل كانت الظروف آنذاك مؤاتية؟!
من ناحية أخرى، كان الحزب وفي ذات الوقت يديم صلاته وعلاقته بأحزاب المعارضة. وكان النقاش الأبرز يدور حول ماذا ينبغي القيام به لأجل ان تتمكن القوى العراقية من ان تملأ الفراغ الناجم عن انهيار النظام وسيطرة القوات الامريكية.
في تلك الفترة كان هناك حديث، وربما ما زال يدور في بعض الأوساط، انه في ظل هذا الاحتلال، فإن وضع العراق يشبه أوضاع حركات التحرر الوطني. دعنا نناقش هذه القضية.
من جهة، الكثير من القوى التي دعت او كانت على اقل تقدير مع هذا التدخل العسكري، وهي قوى واسعة، تدخل ضمن تعريفنا للحركة الوطنية، من بينها الأحزاب الكردستانية، وأحزاب وشخصيات ديمقراطية، إضافة للأحزاب الإسلامية، رغم اختلافنا الفكرية، والحديث عن انها قوى خارجية غير دقيق. فلو كانت لها مساحة، لكانت هي التي تمثل التيارات الأساسية في المجتمع العراقي. اما كونها كانت موجودة في الخارج، فكان وجود قسري، لعدم وجود مناخات وحد أدنى من الحريات.
ان الوضع الجديد، الذي نشأ لا يمكن اسقاطه على ظروف تاريخية أخرى. ظروف ما قبل تكون وتشكل الدول والانظمة الوطنية المستقلة، التي جاءت في اعقاب التحرر والتخلص من الاستعمار. عندما كانت اغلب طبقات وفئات الشعب تقف خلف الأحزاب الوطنية وحركة التحرر الوطني للخلاص من المستعمر.
بينما المهمة الحالية، هي السير على طريق انشاء نظام ديمقراطي ضامن للحريات وفيه شروط لتحقيق تنمية اقتصادية ونهوض بالواقع الاقتصادي والاجتماعي. هذه المهمة التي فشلت العديد من الانظمة الوطنية التي نشأت بعد التحرر من ربقة الاستعمار من تحقيقها. وهذه هي مهمة ما بعد 2003. والاحتلال، العامل الخارجي هو عنصر تعقيد. هذه الوضع المزدوج، هذه الحالة المركبة، الخلاص من النظام الدكتاتوري ولكن عبر الاحتلال، بقيت سمة من سمات الوضع الداخلي العراقي. وبالتالي، هناك تشابك وتلازم بين مهمات الخلاص من المحتل، والسير في طريق البناء الديمقراطي الحقيقي.
اما بخصوص الاحتلال، فان الخلاص منه هي بالنسبة للحزب قضية مبدأ، وهي غير خاضعة للجدال. وهنا يثار التساؤل آخر، وهو ما كان موضوعا للنقاش حينها: كيفية خوض

النضال للخلاص من الاحتلال؟ ولماذا لم يتبنى الحزب المقاومة المسلحة للخلاص من الاحتلال؟

لقد ناقش الحزب كثيرا هذه القضية. لقد صار الاحتلال واقعا. الا انه مرفوض وغير مقبول شعبيا بشكل عام. والمواطن يعيش الهاجس المزدوج، الخلاص من الدكتاتورية والاحتلال. ودعني هنا أوجز بعجالة ما ذكرته سابقا. أولا اغلب القوى الوطنية كانت تدعم خيار تغيير النظام عبر الحرب وبالتالي الاحتلال. ثانيا، طبيعة ومكونات "المقاومة" لا ترتبط مع اهداف الحزب والعراقيين بالبديل الديمقراطي. وهنا يمكن تقديم أطروحة أخرى حول المقاومة. من انها لا ترتبط فقط بالشكل المسلح. فهناك إمكانية للمقاومة السلمية، عندما يكون للحزب وللقوى الأخرى، التي تقف بالضد من الاحتلال، حرية التنظيم وحرية التعبير وحرية العمل فلماذا اللجوء الى السلاح. اما في حال حجبت عنك هذه الحريات فيمكنك حينها تطوير اشكال أخرى من المقاومة. لهذا اعتمد الحزب مختلف الأساليب السلمية السياسية والاعلامية والثقافية وغيرها للخلاص من الاحتلال. وربما يكون العمل على تجميع وتوحيد عمل كل القوى الوطنية أحد اهم هذه الأساليب.

دون ان نتغافل نحن الشيوعيون، ان الحزب، وعبر بناء نفسه واستعادته لإمكانياته التنظيمية، يعد شرطا ضروريا لإيجاد البديل الديمقراطي وتوفير مقوماته وتأمين شروطه. ومن بينها الخلاص من المحتل. وبالتالي، من اجل ان يكون الحزب قادراً على ان يلعب دوره كاملا، يجب أولا ان يعيد بناء إمكانياته التنظيمية ويعيدها في ظل أوضاع مؤاتية ومناخ يسمح له بحرية العمل وان لا يتعرض الى القمع او الى التقييد.

وقد ذكرت سابقا، ان الكثير من القوى التي دعمت الخيار العسكري للتغير كانت تعمل على عزل حزبنا الشيوعي والتضييق عليه حتى قبل سقوط النظام، من اجل تركيز القرار بيد عدد معين من القوى. فالحزب في ظل هذه الظروف، وهو يعمل على إعادة بناء تنظيماته وترتيب أوضاعه، كان عليه ان يكون حذر جدا في ان لا تحقق هذه القوى المزيد من خطوات العزل تجاهه او ربما تمهد لمحاصرته، حتى وضربه - وهذا احتمال لم يكن الحزب يسقطه من حسابه - وتضعه في صف القوى المعادية للوضع الجديد. ان الحزب تاريخيا، وهو يحدد اشكال النضال الملموسة، ينطلق من موازين القوى المتعددة والمتغيرة.

ان كل هذه العناصر مجتمعة، هي التي جعلت الحزب يعبر عن مواقفه ويرسم سياسته في الخلاص من الاحتلال بالأشكال والصيغ المناسبة التي تأخذ بعين الاعتبار موازين القوى. وتأخذ بالاعتبار أيضا حاجات الحزب بأن يوفر بيئة مؤاتية لأجل ان يستمر في عملية بناء أوضاعه التنظيمية من جانب. ومن جانب اخر، من اجل خوض الصراع والتعامل مع كل القوى الأخرى الوطنية والديمقراطية لأجل ان يدفع بالسير باتجاه المهمات الأكثر الحاحا على الصعيد الوطني والديمقراطي، ومعالم البديل الديمقراطي، فضلا عن السياسات الاقتصادية وغيرها من التحديات.

ان الوضع الذي نشأ، لم يكن وضعاً مكتملا وناجزاً بشكل نهائي، بحيث نقول ان عليك ان تأخذ موقفاً اما مع او ضد. لقد كان وضعا متحركا. وكان اهتمام الحزب ينصب على كيفية ملأ الفراغ الذي نشأ بعد انهيار الدكتاتورية، وان تجتمع القوى الوطنية

العراقية لأجل إيجاد تشكيلات معينة تؤمن إدارة الأوضاع.

ومعنى هذا أولا ان يُعقد مؤتمر وطني ليلتقي الجميع، ويناقشون كيفية توحيد الجهود من اجل بلورة شكل إدارة الوضع. وما كان مطروحاً هو حكومة عراقية مؤقتة هي التي تدير الأوضاع وتسبق المحتل وهو في ذلك الوقت لم يكن أعلن احتلاله. ولو كانت القوى العراقية قد طرحت فكرة الحكومة المؤقتة وشكلت اطر معينة ربما لكانت الأمور اخذت اتجاهات أخرى.

المشاركةً في (مجلس الحكم)

الثقافة الجديدة: وصلنا الآن الى "مجلس الحكم" ومشاركة الحزب الشيوعي فيه، هذه المشاركة التي اثارت لغطا كبيراً. كيف دخلنا لهذه القضية الشائكة؟

رائد فهمي: بعد ان أعلنت أمريكا الاحتلال رسميا، تطور الصراع واخذ شكل آخر. وبدل من فكرة حكومة عراقية مؤقتة، بدأت تطرح فكرة إيجاد مجلس سياسي لإدارة الأوضاع. وهذا المجلس السياسي هو عبارة عن صيغة استشارية ليس لديها أي صلاحيات. لاحقا، طرحت فكرة التعشيق بين المجلس السياسي وهو الموقف الأمريكي، والموقف العراقي وهو شيء أقرب الى الحكومة العراقية المؤقتة التي تمتلك صلاحيات. وهذا المسار الذي تبلور بمجلس الحكم اخذ وقتا، ومحطات انتقالية، لكن بالنتيجة جاء مجلس الحكم.

ومجلس الحكم كان عليه أيضا تجاذبات بمسألة ما هي الصلاحيات. الامريكان ينطلقون من فكرتهم حول مجلس سياسي واستشاري. وبالتالي كانوا يريدون تقييد الصلاحيات أكثر ما يمكن. والقوى العراقية بشكل عام تريد ان تعطيه صلاحيات. بالنتيجة انبثق مجلس الحكم، بصلاحيات محدودة. ومن دخل في مجلس الحكم جميعهم من القوى التي تعامل الحزب معها تاريخيا، ويمكن ان يتعامل معها لاحقا، في تلك الظروف. وان يشكل الحزب معها أي صيغة من صيغ العمل المشترك.

في المقابل، لم يكن هناك في المشهد السياسي تبلور لقوى سياسية أخرى، قوى من الممكن ان يتوجه لها الحزب. كان هناك مخلفات للبعث، وأحزاب ومجاميع متطرفة إسلامية وغير إسلامية. وكل هذه لم يكن يجمعها بالحزب أي مشتركات. وهناك قوى إسلامية سنية لديها موقف طائفي وموقف سلبي قسم منه تحت تأثير البعث.

وبالتالي، امام هذا المشهد كان امام الحزب مسارين. الدخول في مجلس الحكم او عدم دخوله. عدم دخول مجلس الحكم كان سيترتب عليه العديد من القضايا والمواقف. منها ان الحزب سيعزل نفسه. وموقفه سيترجم على انه موقف مناهض للوضع وللعملية السياسية. وفي تلك الفترة لم يكن هناك دستور او ضوابط. وكل شيء مرتبط بالمحتل والأطراف المسيطرة. وبالتالي، قد يعرض الحزب نفسه الى المواجهة، في ظل تلك الظروف التي كان يسعى فيها الى إعادة بناء نفسه.

من جانب آخر، لقد كان الشعب العراقي، المنهك بسبب الحصار والحرب، في حالة ترقب. وسواده الأعظم كان يريد الاستقرار وتأمين الأوضاع. ووقتها فقط أنصار النظام السابق والجهات المحسوبة عليه هم من دخلوا في عمليات مسلحة ضد الاحتلال. ولم يكن لدى الغالبية العظمى أي رغبة في

الدخول في صراعات جديدة. تلك الامكانية لم تكن موجودة. نعم ربما هناك استثناءات عن نخب ومجاميع معينة. لكنها شبه معدومة عند الحديث عن البعد الشعبي. الحزب أيضا كان لايزال في بداياته محدود وتنظيماته قيد التشكل ولم تكن لديه القدرة آنذاك الذاتية من اجل ان ينظم حركة جماهيرية. هذا الجانب مهم، وهو وان لم يكن وحيدا، من بين عوامل وعناصر أخرى تدخل في التحليل، إلا انه يجب ان يوضع في الحسبان. ولهذه الأسباب وغيرها شارك الحزب في مجلس الحكم.

لقد اعتبر الحزب ان مجلس الحكم، بصلاحياته المحدودة، يمكن ان يوفر إطارا يوحد الأطراف العراقية على مواقف معينة. وخاصة إذا كانت هذه المواقف تخص الشأن الوطني. المهم ان تكون قادرة على ممارسة هذه الصلاحيات بقوة وتحقق شيء، لا بل ويمكن، في لحظات معينة، ان تتعدى هذه الصلاحيات، وتفرض ارادتها. وهذه الامكانية لم تتحقق وقتها، وهذا لا يعني فقط ان الامريكان وقفوا ضد تحققها فقط، وانما يعني ان القوى العراقية لم تمارس الدور المطلوب منها. اما لعدم الكفاءة او بسبب الركض خلف مصالح فئوية خاصة، ابعدتهم عن العمل من اجل بلورة مواقف موحدة ورؤية لإيجاد الأطر الوطنية الحقيقية القادرة على ان تدير أوضاع البلاد، وتقف بوجه المحتل بصورة جماعية.

وفعلا، تمكن مجلس الحكم في بعض القضايا من منع الأميركيان من تمرير ارادتهم كاملة. من ضمنها سياسة الخصخصة والتغيير بالصدمة. فمشروعهم لا يتضمن فقط فتح الأسواق وإزالة القيود، وانما التحول الكلي للقطاع الخاص. في هذه الفترة أيضا، كان تجري نقاشات محتدمة حول شكل الحكم والديمقراطية، ولاحقا اعداد الدستور. وبالتالي كان وجود الحزب بين هذه القوى والاوساط ضروري. كي يكون قادرا على لعب دور في كل مراحل العملية السياسية. فالأخيرة لا تعني بالنسبة الى الحزب التواجد في السلطة او ان يكون للحزب حصة فيها. العملية السياسية بالنسبة للحزب تعني، بإيجاز، تلك الصيغة التي تهدف الى الانتقال بالعراق نحو الاستقلال الكامل والخلاص من المحتل، والى إرساء أسس البديل الديمقراطي والدولة المدنية الديمقراطية التي تحقق العدالة الاجتماعية، وان يحقق شروط السيادة، الاستقرار وغيرها من الأهداف. وهذه العملية ستأخذ مداها الزمني. وهي تشتمل في داخلها على صراع. ذلك لأن القوى المُشكلة لبنيتها متباينة في سياساتها ومواقفها، وفي درجة تعقُلها او فهمها لماهية المشروع الوطني. فقسم منها منكفئ على اولوياته المذهبية والطائفية او القومية، وقسم آخر على مصالحه الاقتصادية. وبالتالي، كانت لديها رؤى مختلفة ومتباينة حول العديد من القضايا، التي انعكست على الوجهة التي اخذتها العملية السياسية.

وبالتالي كان مشاركتنا في مجلس الحكم هي للوجود بين هذه القوى، كي نخوض الصراع معها، وكي نعمل على ان تسير العملية السياسية في وجهتها السليمة. ولكن بالوقت ذاته كان الحزب يدرك ان العملية السياسية لا تعني مجلس الحكم فقط. وبالتالي، ليس المجلس الميدان الوحيد الذي يمكن ان يخاض من خلاله الصراع. كان الحزب يسعى ولديه توجهات ومبادرات نحو اي نشاط آخر جماهيري ضاغط يدفع من جهة باتجاه انهاء الاحتلال من جهة، ومن جهة ثانية من اجل إقامة البديل

الديمقراطي والسير على نهج الطريق الديمقراطي. وربما انحسرت النشاطات الجماهيرية في فترة الصراع الطائفي، الا ان الوجهة كانت واضحة.

الثقافة الجديدة: البعض اعتبر هذه المشاركة تواطؤاً مع الاحتلال...؟

رائد فهمي: هذا غير صحيح على الإطلاق. لقد كانت هناك موازين قوى على الأرض، لم تكن تسمح لك بمدى حركة أوسع. واللجوء الى طريق آخر غير المشاركة في العملية السياسة قد يؤدي او يتسبب في مصاعب إضافية. فبعض القوى التي لم تشارك، اما عادت وشاركت بعد مدة او همشت. انا لا أقول ان الخيارات التي اتخذناها هي الخيارات المثلى او هي التي كنا نتمناها. لا بالعكس. ولكن في ظل الظروف الملوسة وفي ظل التقييم لموازين القوى، فإن هذا ما كان متاحاً للحزب. فان تكون داخل العملية السياسية ليس معنى ذلك ان يكون للحزب منصب في وزارة او في البرلمان. العملية السياسة بالنسبة للحزب هي انهاء الاحتلال وتحقيق السيادة الحقة الوطنية، وبناء المؤسسات الديمقراطية والسير على طريق التنمية الاقتصادية. وإذا كان الحزب قد دخل الى هذه العملية السياسية، فإن الكيفية التي يُشكل ويدير فيها الحزب وجوده داخلها، امامها طيف واسع من إمكانيات التعامل السياسي. وإذا كان الحزب معارضا لبعض أسس وانحرافات العملية السياسية فهذا لا يعني انه ليس مع العملية السياسية بالمطلق، كما لا يعني انتقاله الى استراتيجيات أخرى. البناء الحالي، وبغض النظر عن ملاحظاتنا الكبيرة عليه، الا انه لا يزال يفسح مجال حرية ممارسة العمل السياسي، والتبشير بأفكار وللتحرك بحرية في انشاء تنظيمات. كما يوفر مرتكزات للنضال من اجل اهدافك دون الاضطرار الى اللجوء الى اشكال أخرى من الكفاح. الان هناك اشكال متنوعة من العمل الجماهيري السلمية وهي متاحة امام الحزب.

والحزب عندما يتحدث عن التغيير، فهو يعني ان العملية السياسية اتخذت مسارا نشأت خلاله منظومة مصالح وترسخت مجموعة قيم تخدم مصالح بعض الفئات الاجتماعية والقوى السياسية. وإذا كانت هذا المسار في البداية وفي أعوام 2004 و2005 مجرد إمكانية فهو الآن صار واقعا. وبالتالي فالتغيير المقصود هو الذي يحقق شروط الدولة المدنية الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وذلك عبر مراجعة الأسس والمرتكزات الرئيسية التي قامت عليها العملية السياسية.

أدب وفن

عن شغيلة الفكر والإبداع

حسب الله يحيى

في الوقت الذي يحتفل فيه العالم، بيوم العمال العالمي في مطلع ايّار، يغيب عن هذا العيد جملة من الأمور. مثلما تغيب عن كل الاعياد الشعبية التي تقع خارج السلطة ورقابتها وهيمنتها، بوصفها أعياداً تعني الشعب، لا السلطات.

الا ان هذه السلطات، يمكنها ان تتخذ من العيد الاممي للعمال، نموذجا حيّاً لإحياء الاعياد واحترام خصوصياتها، وذلك عن طريق خلق حوافز وسن قوانين ترعى ارادة الطبقة العاملة، بوصفها الطبقة التي تبني وتعمر وتسهم مساهمة فعالة في رسم الآفاق المستقبلية للبلاد.

غير أننا على العكس من ذلك، نجد البطالة منتشرة، ومن كان يعمل لا يجد ما يقابل هذا العمل الاستحقاق الذي يعادله، بل هناك استغلال لطاقة العمل مثلما هناك استغناء عن بعض القطاعات بدعوى انها فائضة.

وفي حقيقة الأمر، ان الجميع فائضون، عندما يتم ايقاف المعامل والمصانع عن العمل ويستبدل المعمل، بالاستيراد ومن ثم الاستهلاك.. ليكون العامل بلا عمل، والعمل متوقف، والاستهلاك الاسري مطلوب، من دون مقابل يسد ثمنه!

هذا حال الطبقة العاملة العراقية اليوم.. حيث تواجه ثقل البطالة وارتفاع اسعار كل ما هو ضروري لسد الحاجات اليومية، ولا يكون زهيداً سوى الانسان نفسه!

وكذا الحال في حياة شغيلة الفكر والثقافة والمعرفة والابداع، حيث تكون الآمال منطفئة بعد التخرج من الجامعات والمعاهد والمدارس ـ حتى المهنية فيها ـ وذلك عندما تجد هذه الشغيلة نفسها في حالة معاناة من ثقل البطالة.. حتى لتصبح الشهادات عبئاً جديداً على أصحابها وهم لا يتقنون سوى معارفهم والعلوم والخبرات التي اكتسبوها عن طريق الدراسة.

الدراسة والعلم.. لا يسعفانهم، ولا يحققان لهم المستقبل المنشود الذي كانوا يبنون عليه آمالهم.

الجامعات والمعاهد والمدارس، لا تستقبل للتعيين حتى الاوائل، مع ان هناك حاجة ملحة لسد النقص في الملاكات التدريسية، واذا تم التعيين، فيكون حصرا لذوي النفوذ السياسي، وبدرجة أقل لذوي الشهداء.. شهداء بعينهم، يتم تمييزهم عن سواهم، من دون النظر الى كفاءاتهم.

من هنا نجد، ان شغيلة الثقافة، شغيلة باتت الاسوأ حالا، اذ هي لا تتقن حرفة بعينها، وانما تكمن خبرتها في خزين ما اكتسبته من معارف.. وهذه لم تعد تجد قبولاً، أما الجهل فبات يتمدد ويأخذ مساحة كبرى من الهيمنة والاستحواذ والاستقواء مالاً وسلطة ووجاهة وسعادة.. فيما شغيلة الثقافة لا تجد أمامها سوى بطالة، يتسع مداها يوماً بعد آخر.. من دون أن تجد حلولاً موضوعية وافقاً مستقبلياً ..!!

الكوكب حمزة.. سلاما

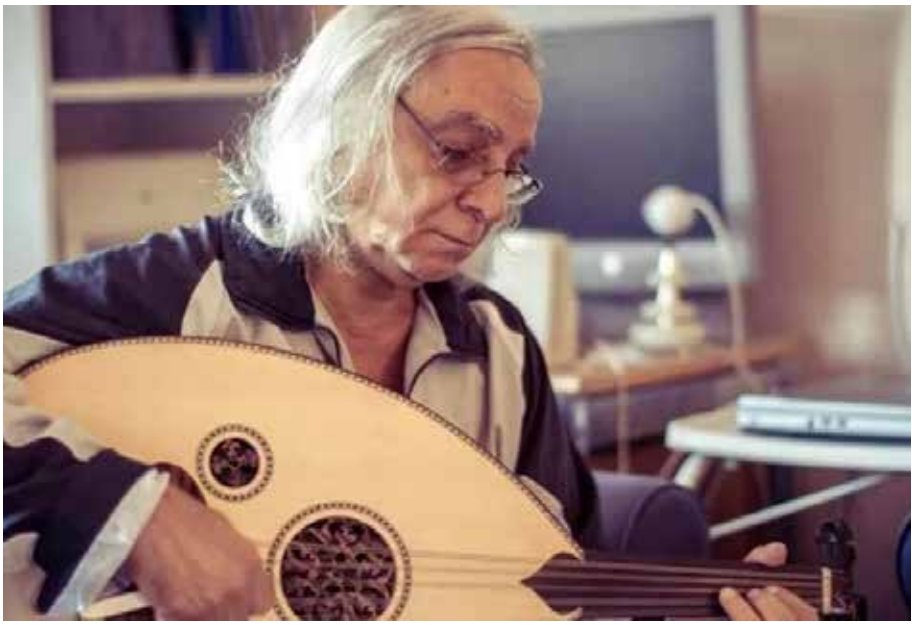

كل الكواكب، حية لا تنطفئ، وكوكب حمزة الفنان العراقي الأصيل، بقي يملأ الزمان والمكان على مدى 80 عاما مشعاً، شاسع الضوء، بدءا من مولده في بابل عام 1944 وحتى رحيله في الدنمارك / 2024، مرورا بمدن العالم بحثا عن الامن والسلام الذي افتقده في وطن ظل يحاربه ويضيق عليه.

طيور ألحانه كانت تحلق أينما حل .. كان قلبه ينبض وعقله وانتماؤه للحزب الشيوعي العراقي؛ يختزن المعرفة والابداع متجاوزا كل الصعاب والتجارب المرة .. مقاتلا مع رفاقه الأنصار في كردستان، مهندسا للروح وهو يلحن الأغاني الخالدة: يا طيور الطايرة، ياصاحبي، تانيني، ابنادم، نجمة، يلمحبوب ، وسواها.

الكوكب حمزة الحاضر في القلب والعقل والذاكرة سيبقى اسما خالدا في مسيرة شعبنا والأكثر عطاء في حياتنا الثقافية والفنية.

لروحه السلام والطمأنينة ولأهله وأصدقائه ومحبيه الصبر الجميل.

مجلة (الثقافة الجديدة)

من بغداد الى غزة: منشور جديد للأرض*

معين بسيسو

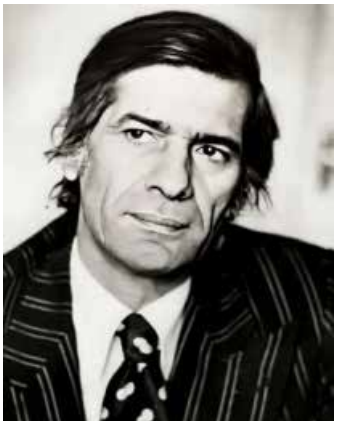

في ايلول او تشرين اول عام 1977 وصل الى بغداد عدد جديد من مجلة شؤون فلسطينية، وكان الشاعر محمود درويش يرأس تحريرها، وفيه الدفتر الاول من دفاتر معين بسيسو الفلسطينية.

بعد ايام قليلة من وصول المجلة، وفي يوم واحد فقط قامت جريدة حزبنا المركزية (طريق الشعب) بـ (تعميم) هذا الدفتر في خمسين ألف نسخة، هي النسخ التي كانت تطبعها في كل عدد.

ووصلت الجريدة الى معين واسعدته هذه التحية... بل اراد ان يشير اليها في مقدمة (دفاتر فلسطينية) حين نشرتها دار الفارابي عام 1978.

كتب معين بسيسو في مقدمته:

"لقد تصدى الحزب الشيوعي العراقي - حزب يوسف سلمان، رغم كل اعبائه في مرحلة 1959 للمؤامرة التي كانت تستهدف تصفيتنا الجسدية في زنازين السجن الحربي (في القاهرة - المحرر) بعد ان غسلت أيديها تماما من اسمائنا - أجهزة الاعلام المصرية - اذاعة صوت العرب".

لقد قام هذا الحزب العزيز بنشر اسمائنا والجرائم التي سبق ورافقت عملية اختطافنا، وجعل من قضية الحزب الشيوعي في قطاع غزة وقضية الجبهة الوطنية من قضاياه.

(الثقافة الجديدة) تنشر مجددا مقاطع من (الدفتر الاول) يتحدث فيها معين عن تجربته النضالية في العراق. تحية من معين ليوبيل الحزب الذهبي. وتحية لمعين بسيسو الحاضر ابدا.

وفي ما يأتي نص هذه المقاطع:

سافرتُ الى بغداد وكان في جيبي عقد مدرس. اول ليلة سهرت فيها في بغداد كانت مع ناظم حكمت. وبالدينار الوحيد الذي كان معي اشتريت زجاجة نبيذ وتفاحاً وديوان شعر ناظم حكمت. في الصباح سافر معي ناظم حكمت الى الديوانية ومنها الى قرية الشامية، ولقد ظل يسافر معي.

أكثر من يحترم المدرسين هم الفلاحون. كانت المشكلة اين اقيم، وناظر المدرسة لم يكن يعرف ماذا سوف يفعل بي.

تطوع أحد العراقيين واستضافني تلك الليلة. وحمل البواب حقيبتي الوحيدة.

دعاني ناظر المدرسة لتناول العشاء معه،

وبعد العشاء الى البيت الذي قبلني كضيف فيه.
حين فتحت الحقيبة وجدت ان شيئا ما قد حدث ونظرتُ الى المدرسين الثلاثة فكانوا يبتسمون.
لقد تم تفتيش الحقيبة. عباس العادلي يتقدم مني فاتحا ذراعيه وهو يلوح بديوان المعركة:
-اهلا بك في العراق:
كان ديوان المعركة الذي حملته معي من غزة الى بغداد هو اوراق اعتمادي كفلسطيني الى الشيوعيين العراقيين. لم يرتبط حزب شيوعي بالشعر مثلما ارتبط الحزب الشيوعي العراقي. لقد كان الحزب رئة من الشعر.
في مدرسة الشامية كنت ادرّس اللغة الانكليزية. يطحنون سعف النخيل ويعجنونه ويصنعون منه اقراصا يجففونها تحت الشمس ويأكلونها. هؤلاء كانوا تلاميذي.
لبعضهم كنت اعطي دروسا مجانية خاصة، وحينما أرسل أحد الاقطاعيين، الشيخ ر.ع□أحد رجاله ليضربني، كان اباً لتلميذ كنت اعلمه بالمجان.
وسقطت الهراوة من يد الاب. كان عامل مضخة للمياه، وكان اول من قدمت للحزب الشيوعي العراقي. في ذلك الوقت من بداية عام 1953 كان الحزب يقاتل ضد الانقسام وضد نوري السعيد، من اجل وطن حر وشعب سعيد.
واتصل بي الحزب بعد ثلاثة أشهر من وجودي في الشامية، وقد تعلمت الكثير من اليد السرية لذلك الحزب.
كنا نحن المدرسين الاربعة كل مدرسة الشامية الثانوية للبنين والبنات. وكانت مدرسة مختلطة وفي قرية في العراق عام 1935. كنت ادرس اللغة الانكليزية وعباس العادلي يدرس الرياضيات وكاظم الشمرتي يدرس اللغة العربية، ومدرس رابع نسيت اسمه كان يدرّس الجغرافيا والتاريخ.
وبدأت الايام تمشي في قرية الشامية، كنا نقدم الدروس المجانية للطلاب وفي المساء كنا نقوم بتصحيح الدفاتر وتحضير الدروس لليوم القادم، ثم تمتد المناقشة حول ما حدث في فلسطين وحول ما يحدث الآن في العراق. حادث لن انساه في حياتي فحينما بدأت مؤامرة نوري السعيد بطرد اليهود من العراق، كان من بين اليهود المطرودين شيوعية يهودية عراقية رفضت ركوب الطائرة فضربها عسكر نوري السعيد حتى سقطت فوق سلم الطائرة وجروها فوق وجهها الى داخل الطائرة وهي تصرخ:
-هذا وطني.
ومثلما الطائر تمتلئ حوصلته بالقمح، يمتلئ صدرك بنسيم الاساطير القادمة من يد الحزب.
***
في ذلك البيت في الشامية كان كل واحد منا يتولى مالية البيت لمدة شهر. في الشهر الذي اصبحت فيه مسؤولا عن البيت كنت اعود ومعي سبعة او عشرة طلاب، وهكذا افلسنا في منتصف الشهر. ولم نكن نعرف في ذلك الوقت لا بقالا ولا بائع طيور.
وهكذا جلسنا بعد الظهر ننظر لبعضنا البعض، وفجأة التمعت عينا عباس العادلي. كان ينظر الى الحمام في ساحة البيت. وبدأنا العمل فورا كأننا كنا نفكر في موضوع واحد. كل منا انقض على حمامة ولقد فوجئ الحمام، فقد كان طوال الوقت

يمشي بيننا. منذ ذلك الوقت عشنا على اكل الحمام. وربما كنا اول من اكل الحمام في قرية الشامية. بعد ذلك اصبحت عملية اصطياد الحمام عملية صعبة جدا فلم يعد يهبط من اعشاشه على سطح بيتنا وينزل الى صحن الدار. كان علينا ان نستخدم السلم لاصطياده في اعشاشه، ووضعنا السلم فوق الجدار وكان مخلعا، صعد عليه عباس بعد حوار طويل، مدّ عباس يده الى عش حمامة ولكنها زاغت من يده وطارت وهي تخبط وجهه بجناحيها وتبعها الحمام واختل توازن عباس فوق السلم فسقط. وفي الصباح راه الطلاب وهو يعرج ورأوا الكدمات على وجهه، ولم يكن أي من الطلاب يعرف ان مدرس الرياضيات سقط من علو ثلاثة أمتار وهو يصطاد حمامة.

***

بدأت منشورات الحزب وكراساته تظهر في قرية الشامية. كل شهر كانت تأتي البوسطة وكنت قد اقمت سقفا سرياً ثانياً تحت سقف حجرتي لأخفي المطبوعات. ومع ظهور مطبوعات الحزب بدأ البوليس السري في الظهور، ولكننا كنا بالنسبة لأهل القرية أربعة من المدرسين المحترمين الذين يقدمون الدروس المجانية ويسهرون ويصححون الدفاتر.

***

فريد ناجي، حتى النار لا يمكن ان تمحو اسمه من يدي - كان اعز طلابي وكان مصاباً بروماتيزم في القلب. استعار مني رواية ''الام'' لجوركي ومات ولم تتم قراءة الرواية. وضع سعفة نخل في منتصف رواية الام وبعدها توقف قلبه عن الخفقان. وحملناه فوق سيارة وذهبنا لدفنه في مقبرة النجف. لقد رأيتهم وهم يغسلونه ولكنهم لم يستطيعوا ان يغسلوا اسم جوركي فوق جلده. اردت ان ادفن معه كتاب الام ولكنهم رفضوا. ربما خافوا ان يقوم كتاب بعمل انقلاب وهو تحت التراب.

الخلية الاولى اعطت الخلية الثانية ولكن الامتحانات النهائية قد جاءت وكانت اهم الاحداث في المدرسة.

بدأ حبر المناشير يفوح في شوارع الشامية وبدأت الرقابة البوليسية تشتد. كان عليَّ ان افعل شيئا ما كي أفلت من المقصلة. وجاء مندوب من الحزب وطلب مني السفر معه فورا الى بغداد. وسافرنا في الليل الى النجف ومنها الى بغداد.

في بغداد كان قرار الحزب ان اغادر العراق، لقد انتهت السنة الدراسية ووزارة المعارف لن تجدد عقدي، ثم عليَّ ان احمل رسالة معي الى الخارج.

وكانت رسالة الحزب حقيبة من الخشب امتلأ بطنها بمطبوعات الحزب.

ولا أزال اذكر انني اصررت على حمل الحقيبة الخشبية:

-إذا قبضوا عليَّ فلا يهم، اما أنت فهم يحتاجون إليك كثيرا.

وسلمني الرفيق الحقيبة ومضيت بها الى فندق الرشيد.

كانت هدية الحزب الشيوعي العراقي الى الشيوعيين المصريين والشيوعيين الفلسطينيين في قطاع غزة، وكانت من أجمل الهدايا التي حملتها في حياتي، وانا مدين بوصول هذه الهدية الى مصر وقطاع غزة الى مدرس فلسطيني من قطاع غزة كان يعمل في العراق اسمه كمال الطويل.

حينما وصلتُ الى مطار القاهرة عرفت

انني في القائمة السوداء وانطلق ذلك المدرس الى حقيبة الخشب ولقد اخبرته بمحتواها حتى يتخذ قراره. ولم يتردد. ضم الحقيبة الخشبية الى حقائبه وانطلق بها خارج المطار. وقد قام بالفعل بتسليمها الى الرفيق (خ.ش) الذي طلبتُ منه تقديم الحقيبة إليه. وهكذا نمت تلك الليلة في فندق مطار القاهرة الدولي وفي الصباح تم ترحيلي بالقطار الى غزة.

حينما بلغ القطار محطة رفح الفلسطينية، كنت أحس بعجلات القطار وهي تكتب فوق القضبان منشورا جديدة للأرض.

---

* (الثقافة الجديدة)، العدد 152، آذار 1984

بضع كلمات عن معين بسيسو

لسنا نغالي حين نقول ان معين كان رفيقا لنا وابنا لحزبنا كما هو ابن الشيوعيين الفلسطينيين والثورة الفلسطينية.

معين نفسه قال ذلك مرات ومرات.

معين نفسه خاطبنا بأسمائنا السرية، وذكّرنا بخلايانا وخليته.

عمل في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، وهو في السابعة والعشرين من عمره (1953).

ونقل هدايا الحزب الى شيوعيي غزة كما يقول.

وطيلة ثلاثين عاما ظل معين مخلصا لذلك (المران) الاممي الذي اكتسبه في حزب فهد بسرعة وجدارة، وواصله امينا صلبا.

كأن نخلة عراقية غادرت... نخلة باسقة كما هو النخيل في العراق اخضر فارع وجميل وقريب من السماء.

لقد غادرتنا يامعين قبل ان يكمل الحزب عامه الخمسين (وها هو الآن يكمل عامه التسعين) لقد غادرتنا قبل ان تشارك في يوبيله. سنبلغ الحزب تحياتك.

وسنقرأ قصائدك.

وسنهتف نحن رفاقك: سلاما.

سلاما ايها الفلسطيني الشاعر.

ايها المقاتل الشيوعي.

وداعا يامعين بسيسو

وكل عام سنقول لك وداعا من خلية شيوعية نسميها باسمك في العراق او فلسطين.

(م.خ)

بـرتقالة المكّي ورحيق الدهشة

قراءة في قصيدة الشاعر السوداني محمد المكّي إبراهيم*: (بعض الرحيق أنا والبرتقالةُ أنتِ)

د. علي ناصر كنانة**

في عام 1980 تعرّفتُ في الكويت على شاعر وقاص سوداني (يعمل مدرساً) اسمه خالد محمد عثمان، توطدت علاقتنا ثقافياً وشخصياً. ولعل أكثر الصفحات إشراقاً في علاقتنا أنْ تعرّفتُ عن طريقه على تجربة رمز كبير من رموز الشعر السوداني، ألا وهو الشاعر الكبير محمد المكي إبراهيم، وتحديداً عبر ديوانه (بعض الرحيق أنا.. والبرتقالةُ أنتِ). ومنذ ذلك الحين لا أكفُّ عن الاندهاش المتجدد بالقصيدة التي حملَ الديوان عنوانها، وكلما ذهبتْ بيَ المنافي إلى جغرافيا أخرى، أتذكر هذه القصيدة فأبحث عن نصها الكامل لأستعيد الدهشة. ويدرك دارسو الأدب حقيقةَ أن الاندهاش المتجدّد بنص شعري ما لمدة طويلة ينبع من عظمة هذا النص. وقد وجدتُ في قصيدة محمد المكي إبراهيم (بعض الرحيق أنا والبرتقالة أنت) في هذا السياق ما يدفعني للقول بأنها واحدة من كلاسيكيات الأدب العربي الحديث الخالدة مثل: (أنشودة المطر) للسياب و(لا تصالح) لأمل دنقل وسواهما.

تتفرّد هذه القصيدة بتكامل المعنى والمبنى تكاملاً جمالياً مدهشاً لا ترتقي إليه إلا النصوص العظيمة، وقد سكبَ فيها الشاعر حفنةً من كلِّ ماءٍ عذبٍ وصلتْ إليه يدُهُ ليخلقَ لنا بحيرةً صغيرة تعوم فيها أشكال كثيرة: السودان، أفريقيا، الحرية، اليسار، الهوية، التاريخ، الهموم والأحزان. وقد صاغَ كل ذلك بلغة ايروتيكية تجعل من علاقة الإنسان بالأرض علاقة الجسد بالجسد في لحظة احتدام الأشواق والشهوات. وقد برعَ الشاعر في التحكّم الرائع بالانتقالات المنسابة من الجسد إلى الأرض (الوطن) ومن الأرض إلى الجسد بأسلوب أراد فيه الشاعر أن يقول: سأفعلها وأغلق الباب من ورائي:

الله يا خلاسيةْ
يا حانةً مفروشةً بالرمل
يا مكحولةَ العينين
يا مجدولةً من شعرٍ أغنيّةْ
يا وردةً باللونِ مسقيّةْ
بعضُ الرحيقِ أنا والبرتقالةُ أنتِ.

يقف الشاعر محتفلاً ومفتوناً بالجمال الخلاسي (العربي الأفريقي) وقد اتخذّهُ رمزاً يتسلّل منه إلى الوطن السوداني، وكأنه استهل القصيدة استهلالاً تراثياً بلغة وأسلوب حديثين، حيث يتغنى الشاعر بهذه الفتاة - الرمز التي جمع لها شعرياً ما فيها واقعياً من مفردات جمال وبنداءاتٍ بدا معها وكأنه يمارس الاعتراف: (يا حانةً مفروشةً بالرمل). لماذا فرشَ الحانةَ بالرمل؟ هل أرادَ أن ينأى برواد الحانة عن ضرر التعثّر وقد فرشَ لهم الحانةَ بالرمل لكي يكون سقوطهم رحيماً؟

ثم ينزاح الشاعر باللغة في (يا مكحولة العينين / يا مجدولةً من شِعر أغنيّة) إلى الدلالات التي يريد للقصيدة أن تذهب إليها من جهة، وترتقي بالوصف إلى مقام الموصوف من جهة أخرى، عندما جدّلَها بشعر أغنية. وقالَ الأغنية وليست القصيدة، لأن الأغنية ترنُّمها الأصوات والأنفس بحنجرة التراث وبانفتاح الصوت في فضاء التصادي.

ويراكمُ الأوصاف: (يا وردةً باللون مسقية). فهي وردةٌ لا يسقيها الماء بل اللون (وهنا الألوان) ليختم النشيد الأول من التوصيف بضربة الأستاذ: (بعض الرحيق أنا والبرتقالةُ أنتِ). أي أن الشاعر وبعد كل هذا التكبير أو التبجيل يعود إلى الثنائية الواجبة: (هو - هي)، ليقول إنما هي البرتقالة وما هو إلا بعض من رحيقها.

يسحب الشاعر نفَساً عميقاً ثم يعدل قامته، وفي حركة تتوازى فيها اليد ووجهة الرأس مع علو الصوت يعمّق نداءاته:

يا مملوءةَ الساقينِ أطفالاً خلاسيين
يا بعضَ زنجيّةْ
وبعضَ عربيّةْ
وبعضَ أقوالي أمام الله.

هنا.. يسترسل الشاعر في الإجلال ليصل به إلى أقصاه، فهي (تلك المرأة الخلاسية: الرمز) عشتاره: سيّدة الخصب التي تزدحم سيقانها بأطفال الهوية الموسومين بالبعض الزنجي والبعض العربي. أمّا لماذا الساق، فربما أراد الشاعر أن يحيلنا - لاستحضار القداسة - إلى الأسطورة الشعبية التي تقول أن مريم ولدت عيسى من ساقها. ويختم الشاعر ترتيله الاستهلالي بما يشبه القسَم: (وبعض أقوالي أمام الله). إنها مواءمة بين الوطن والدين، سيعود إلى تصعيدها بعد حين.

من اشتَرَاكِ اشترى فوحَ القرنفلِ
من أنفاسِ أمسيةْ
أو السواحلَ من خصر الجزيرةِ
أو خصرَ الجزيرةِ
من موج المحيطِ
وأحضانِ الصباحيّةْ
مَن اشتراكِ اشترى
للجرحِ غمداً
وللأحزان مرثيةْ
مَن اشتراكِ اشترى
مني ومنكِ
تواريخَ البكاءِ
وأجيالَ العبوديةْ
من اشتراكِ اشتراني يا خلاسيةْ

فهل أنا بائعٌ وجهي
وأقوالي أمام الله.
بعد المواءمة بين الوطن (عبر رمزه المرأة الخلاسية) والدين (يوم يقف المرء أمام ربه) يهيّئ الشاعر لقول فصلٍ آخر: في أنَّ من اشتراك اشترى كل شيء: طبيعة وجغرافيا وتاريخاً و(مَن اشتراكِ اشتراني يا خلاسية)، وهذه هي المعادلة الأساسية في القصيدة (أنا: أنت) التي يرتقي الشاعر مع شروطها: (فهل أنا بائعٌ وجهي وأقوالي أمام الله).
هنا يختزل محمد المكي إبراهيم كل ما يمكن أن يقوله الإنسان في حضرة رمز يحاصره المشترون، ومَن يبيع فإنما يبيع وجهه وأقواله أمام الله (يومَ تصفرُّ وجوهٌ وتبيضُّ وجوه). إنه يحيل إلى توحّدٍ مسنود بالعمق الديني، في مجازٍ لم أطّلع على ما هو أجمل من توظيفه وسياقه في الشعر العربي الحديث. والشاعر يفعل ذلك وهو يقف على تخوم الصفاء لأن رمزه الخلاسي جديرٌ بكل ما يقول:

فليسألوا عنك أفوافَ النخيلِ رأتْ
رملاً كرملِكِ
مغسولاً ومسقيّا
وليسألوا عنكِ أحضانَ الخليجِ متى
ببعضِ حسنكِ
أغرى الحلمَ حوريّةْ
وليسألوا عنكِ أفواجَ الغزاةِ رأتْ
نطحاً كنطحكِ والأيامِ مهديّةْ

فليس رملها مغسولاً ومسقياً فحسب كما لم يروا وكما تشهد أفواف النخيل، وليس ببعضٍ من حسنها أغرى الحلمُ حوريةً فحسب كما تشهد لها أحضان الخليج، وإنما لها نطحٌ لم يرَ الغزاة مثله نطحاً. وبعد أن

محمد المكّي إبراهيم

انتهى الشاعر من الصياغة النهائية لشكل الرمز ومفردات التوحّد، ومن هذه النقطة بالتحديد يحلّق بالقصيدة في استخدام مذهل للرمز، حين يجعل من مفردات الجسد وحاجاته الحسية والحاجات المقابلة عالماً شعرياً يعبّر عن أرقى أشكال الالتزام الجمالي في الشعر العربي الحديث.
برعَ الشاعر في استخدام المرأة كرمز حي حمّلَهُ دلالات عميقة، ووظّفَهُ بحضورٍ رائع للشكل وملامسة المعنى برمزية شفيفة تجعل من التلقّي حواراً ساخناً بين الحواس والإحالات، موّشىً بغنائية مؤثرة تنضح من طياتها الأبعاد المعرفية والوجدانية والتاريخية والنفسية والاجتماعية والجمالية للنص:

يا برتقالةُ
قالوا يشربونكَ
حتى لا يعودُ بأحشاءِ الدنانِ رحيقْ
ويهتكون الحمى
حتى تقومَ لأنواع الفواحشِ سوقْ
والآن راجوا
فظلّ الدنُّ والإبريقْ
ظللتْ دواليكِ تعطي
والكؤوسُ تُدارْ.

يبني الشاعر مستوى الرمزية - في قصيدته- بأسلوبٍ لا يتورّط في الإبهام المجاني وإنما لتَحصين النص ضد مزالق الخطاب المباشر، لاسيما وأن الشاعر يتناول موضوعاً يقع في صلب المباشرة، ولذلك فهو يذهب إلى ترميز الرمز: فالبرتقالة رمز للمرأة الخلاسية (العربية الأفريقية) التي تمثّل بدورها رمزاً للسودان وما هو أبعد. ورغم المباشرة الحادة في (هتك الحمى) و (سوق الفواحش) إلا أن سياقها جعلها مقبولة، بل وبدتْ كضرورة تستجيب لحرارات التصاعد الشعري في ملامسة مواضيع من هذا النوع.

وبالرغم من كل ما قالوا في أنهم سيشربونَ الرحيق حتى الجفاف، إلا أن أمراةً برتقالةً لها نطحٌ لم ير الحالبون دواليها مثلَهُ نطحاً، يهرع إليها صوت الشاعر لتغتسل من أدرانِ (تواريخ البكاء وأجيال العبودية):

هزّي إليكِ بجذعِ النبعِ
واغتسلي
من حزنِ ماضيكِ
في الرؤيا وفي الإصرارْ
هزّي إليكِ
فأبراجُ القلاعِ تفيقْ
النحلُ طافَ المراعي
وأهداكِ السلام الرحيقْ
الشرقُ أحمرُ
والنعمى عليكِ إزارْ
نجري ويمشونَ للخلفِ
حتى نكملَ المشوارْ.

يخرج الشاعر في هذا المقطع من الرمز المركّب (البرتقالة) إلى الرمز الأصلي (المرأة الخلاسية) ويعود في (هزّي إليك بجذع النبع....) إلى الإحالة الدينية في سورة مريم (هزّي إليكِ بجذعِ النخلةِ، يسّاقطُ عليكِ رطباً جنيا)، ولكنه بالانزياح اللغوي يختار (جذع النبع) وليس جذع النخلة (نخلة مريم).. ويبدو أن الشاعر بعودته إلى هذا الرمز الداخلي لأكثر من مرة (أي مريم، دون أن يسميها) يقصد إضفاءَ قدرٍ عالٍ من القدسية نلمحُ عن طريقه أنّ مريمَ هي المرأة الخلاسية، وما أبناؤها إلاّ أبناء الله.

ثمّ يحدّثها الشاعر عن أوانٍ هو أوانها: (السلام والرحيق والشرق الأحمر وإزار النعمى). ولا ريب أن هكذا مفردات تذهب بالذاكرة إلى زمنٍ افتقدناه حيث كان حاضراً بقوة، يومَ كنا (نجري ويمشونَ للخلفِ حتى نكملَ المشوارْ). ومن لوحة الإشراق واليقظة ينتقل الشاعر إلى لوحة الانطفاء والسبات، بينما تتشبّث الأنا بعنادها الجليل في بناء حيوي يعكس بيئة القصيدة، الخارجية والداخلية، في وصفية انتقالية بمثابة ضرورة بنيوية:

طافَ الكرى بعيون العاشقيكِ
فعادوا منكِ بالأحلامْ
ما للعراجينِ تطْواحٌ
وليس لأطيار الخليج بغامْ
النبعُ أغفى وكلّ الكائنات نيامْ
إلاّ أنا
والشّذى
ورماح الحارسيكِ قيامْ

كل شيء غافٍ.. وليس سوى الأحلام تطوف تحت أحداق العاشقين. لا عراجين تتدلّى ثمارُها ولا لأطيار الخليج صوت. وفي نهاية المقطع تتقلّص الجماعية إلى معادلة أصغر: (أنا والشذى والحارسيك).. أولئك الذين لا يسمحون بالتقاء الشذى بالشذى. ومن الشذى يعبر الشاعر إلى شبقٍ

مكشوف في توظيف ساحر يلعب بالرموز والتفعيلات لعباً لا يجيده إلا كبار الشعراء:

متى تجاوزتُهمْ
وثباً إليك أجئْ
شَعري بليلٌ
وحُضني بالورود مليءْ
فلتتركي البابَ مفتوحاً
وحظّي في الفراشِ دفيءْ
ولتلبسي لي غلالات الشذى
وغناء النبع والأشجارْ
فلي حديثٌ طويلٌ
مع نهديكِ في الأسحارْ
يا برتقالةُ
ساعات اللقاء قصارْ
تأمليني في الصباح أطلْ
البحرٌ ساج
وتحفافُ النخيلِ غزلْ
وبركةُ القصر بالنيلوفر ازدحمتْ
والنحلُ أشبعَ كاساتِ الزهور قُبلْ
وإنني الآن أزهى ما أكون
وأصبى من صباي
ومكسيّاً من النورِ الجديدِ إزارْ.

يندفع هذا المقطع بعنفوان الأمنية إلى التعبير عن اللقاء المرتجى بين (الأنا) و (الأنا الأكبر: الأرض: الوطن) وبحرارة لا ترقى إليها إلا لغة لقاء الجسد بالجسد في التحام روحي يجعل الذات أكثرَ زهواً والصبى أصبى والنورَ إزاراً، وفي ذلك عِدّةٌ لمن يستعد لمغامرة أخرى في مواجهة أفول آخر:

تأمليني فإن الجَزْرَ أوشكَ
إني ذاهبٌ
ومع المدّ الجديد سآتي
هل عرفتيني؟
في الريح والموجِ
في النوءِ القويِّ
وفي موتى وبعثي سآتي
فقولي قد عرفتيني
وقد نقشتِ تقاطيعي وتكويني
في الصخر والرمل ما بين النراجينِ
وإني صرتُ في لوح الهوى تذكارْ.

يواصل الشاعر انتقالاته - كما فعلَ في مساحة القصيدة كلها - ويخرج من الرمزية الكليّة إلى خطاب أكثر سهولة، وكأنه يقصد تفادي الالتباس في خطابه، ومخاطبته لها: (المرأة: البرتقالة) التي تقترب كثيراً من مطابقة الأصل (الخروج من الرمز إلى حافات الأصل) ليذكّر بأفكار الحياة الفلسفية عبر معادلاتها الجدلية المعروفة: (مد - جَزر)، (موت - حياة)، (ذاكرة - انبعاث).

وفي ختام القصيدة، يتذكر الشاعر ما بدأ بهِ ولكن من دون ياءات النداء، ليصعّد الفعل الدرامي من مستوى الشبق إلى مستوى الفناء في مسعى إلى تصعيد مستوى الانتماء، سابقاً ولاحقاً، إلى تلك العارية الزنجية التي تعادل في بعضها أقوالَه أمام الله:

والآن
لا شابعاً من طيبِ لحمكِ
أو ريّان من سكب□نهديك أمضي
فأوعديني أن ستدعوني
إلى فراشكِ ليلاً آخرَ
وتطيليهِ عليَّ بشَعركِ
في زندي
ولونك في لوني وتكويني
فنيتُ فيك فضمّيني
إلى قبور الزهور الاستوائيةْ
إلى البكاء وأجيال العبوديةْ

ضُمّي رفاتي
ولفّيني بزندكِ
ما أحلى عبيركِ
ما أقواكِ
عاريةً وزنجيةْ
وبعض أقوالي أمام الله
***

وبعد أن استفضتُ في قراءة قصيدة هذا الشاعر، شرحتُ الأسباب الذاتية (انفعالي الشخصي بالقصيدة) والجمالية (جمالية القصيدة) التي دعتني للاهتمام بها منذ خمسة وعشرين عاماً لأباشرَ في قراءةٍ عامتْ في زمن التأجيلات حتى آنَ لها أن تحط في مايو 2005، لا بدَّ من القول أن النقد العربي لم يول (للأسف) شاعراً كبيراً مثل محمد المكي إبراهيم وسواه من الشعراء السودانيين الاهتمام الذي يليق بهم وبهذه القصيدة تحديداً. ومن أكبر المآخذ على النقد العربي أنه كان لفترة طويلة من الزمن (وما زال في أغلبه) نقداً "إقليمياً".. إن صح التعبير.. كرّسَ كثيراً من الجهد لأدب بلدان عربية معينة وتجاهل طويلاً إبداعات بلدان عربية أخرى، وتورّطَ هذا النقد (الإعلامي) في التهليل لتجارب شعرية عربية (تعود إلى عواصم ثقافية مشرقية) ومحضَها مقاماً يفوق حجمها الحقيقي، فيما تم تهميش تجارب أخرى جديرة بالاهتمام مثل تجربة محمد المكي إبراهيم.
***

منذ خصصتُ أطروحة الماجستير لرؤية جديدة للالتزام في الأدب عملتُ على رصد الالتزام الجمالي في الكتابة من حيث كونه ارتقاءً إبداعياً عن الخطاب الأدبي للالتزام الواقعي بما ينتج عنه من أدب سياسي ذي نبرة حادة ومباشرة.

وبدءاً من مسلمّات الكتابة الأدبية في أن الشعر هو التمايز عن الكلام العادي، وإذا ما استلزمت صناعة النص الشعري قدراً من المباشرة فيجب أن تأتي في سياقات جمالية ترتقي بإبداعية النص ولا تحط به إلى مستويات السطحية.

بعد منتصف السبعينيات من القرن العشرين حدثَ ميلٌ قوي في الشعر العربي الحديث نحو الاهتمام بشكل القصيدة (أي بجمالياتها) بعيداً عن الإلحاحات الحماسية للمضمون. ومنذ ذلك الحين شرعَ الشعراء الستينيون بتجارب جديدة بموازاة التجارب الشابة الجريئة لشعراء مرحلة السبعينيات. وكانت جميع هذه التجارب تهدف إلى الارتقاء بالتجربة الشعرية من الالتزام الواقعي إلى الالتزام الجمالي بوعي ينطلق من قيمة أن (الالتزام هو أن تكتب جيداً) كما يقول غارسيا ماركيز، والجودة هنا لا تعني المضمون بقدر ما تقصد الشكل. وفي ذلك التحاقٌ متأخرٌ بسؤال الحداثة الكبير في أن الكتابة لم تعد (ماذا) وإنما (كيف). في هذا السياق صدرت دواوين شعرية كثيرة في عدة بلدان عربية من بينها السودان. والانتقالة ذاتها: من الالتزام الواقعي إلى الالتزام الجمالي حدثتْ مع هذا الشاعر: من ديوانه (أمتي) الصادر عام 1969 إلى ديوانه (بعض الرحيق أنا والبرتقالة أنت) الصادر عام 1976. والتحوّل لاشكّ بائنٌ في عنواني الديوانين. في الديوان الستيني (أمتي) يصرخ عنوان الكتاب بالالتزام الواقعي من حيث اختيار مفردة واقعية مباشرة تعبّر عن روح الديوان، خاصةً من حيث نسبة الأمة إلى الذات: (أمتي)،

أي أننا سنقرأ الديوان بانطباع مسبق عن طبيعة هذا الشعر في أنه شعر موقف يقول فيه الشاعر بانتمائه إلى هذه الأمة، وهذا الشعر هو شعرها دون مجازات. وعندما نصف هذا الالتزام بالواقعية، لأن هكذا عنوان يصلح أن يكون أيضاً عنواناً لمقال سياسي يعبّر فيه الكاتب عن المضمون ذاته. أما في الديوان السبعيني (بعض الرحيق أنا والبرتقالة أنت) فإن الالتزام الجمالي يتجلى في أبهى صورهِ في العنوان، بل أن العنوان وحده يكفي لئن يكون قصيدةً قصيرة متكاملة المبنى والمعنى. وفي القصيدة المذكورة (التي طابق الشاعر بين عنوانها وعنوان الديوان لعلمه بأنها لغزه السحري) والتي أرى فيها كما ذكرتُ سابقاً نموذجاً رائعاً للالتزام الجمالي في الأدب العربي الحديث، أخذ الشاعر من الالتزام الواقعي جوهره في الالتزام بقضايا الأمة والمجتمع ولكنه صاغَهُ بحلّة جمالية سخّرَ في صناعتها جميع أدواته الشعرية للخروج بنص شعري منقّى من شوائب الخطاب السياسي. لأن الشعر هو أن يذهب الشاعر إلى أعماق الواقع ليعبّرَ عن رحلته بلآلئ اللغة المدلاّة على جيد القصيدة. وهو ما فعله محمد المكي إبراهيم في قصيدته (بعض الرحيق أنا والبرتقالة أنت). ولم تستبد قصيدةٌ بنفسي، في ما قرأتُ من شعر، كما فعلتْ هذه القصيدة:

فنيتُ فيك فضمّيني
إلى قبور الزهور الاستوائيةْ
إلى البكاءِ
وأجيال العبوديةْ
ضُمّي رفاتي
ولفّيني بزندكِ
ما أحلى عبيركِ
ما أقواكِ
عاريةً وزنجيةْ
وبعضَ عربيةْ
وبعض أقوالي أمام الله

---

* ولد محمد المكي إبراهيم عام 1939 في مدينة الأبيض. تخرج من كلية الحقوق بجامعة الخرطوم، ودرس الدبلوماسية واللغة الفرنسية بالسوربون. التحق بوزارة الخارجية السودانية 1966، وعمل دبلوماسياً في عواصم عديدة.

صدر له من الشعر: أمتي -1969 بعض الرحيق أنا والبرتقالة أنت -1976 في خباء العامرية -1986 يختبئ البستان في الوردة -1989 وله مسرحية شعرية بعنوان: مزرعة اليمام.

مؤلفاته أيضاً: الفكر السوداني، أصوله وتطوره- بين نار الشعر ونار المجاذيب.

نال وسام الآداب والفنون 1977، وقد ترجمت بعض قصائده إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية.

** شاعر وكاتب عراقي يقيم حالياً في قطر.

الأصابع وإضاءة الخلفية الأيديولوجية

في قصص (أصابع الأوجاع العراقية) لحسب اللّه يحيى*

ايمان عبد الحسين

قبل أن نعرج على قراءة الثيمة الاساسية للمجموعة القصصية المعنونة (اصابع الاوجاع العراقية) لحسب الله يحيى، تحتم علينا التطرق الى البدايات التي كونا فيها نظرتنا الاولى الى المجموعة والتي تمثل مرجعية لا بد ان نبحث فيها ذلك لما لها من تعالق واضح مع النصوص القصصية ككل، وهي المتمثلة بالعتبات النصية ولا سيما عتبة العنوان فهي اضافة الى ما يحتله من مساحة وبما يضفي عليه اللون من دلالات جمالية ويمنحه وصفة البروز على اللوحة الموضوع فوقها، فانه يحمل معناً دلالياً يحاول الكاتب والمصمم الذي يعد المتلقي الاول في البدء إيصال فكرة القصص عن طريقه ،وذلك بدءا من اختيار اللون الاحمرعن قصدية فهو اللون المثير الذي يشير ويحيل الى لون الدم والذي يهدف إلى لفت انتباه القارئ لهذه العتبة المهمة في قراءة النص القصصي ،كما نلحظ السبب القصدي والمتعمد في اختيار اللوحة ايضا بكل بما تحتويها من العلامات التي تضيء للقارئ ما سوف يرد في القصص لاحقاً، فهي تتكون من تراكم صوري جمع فيها المصمم بطريقة الفوتوشوب صورا عديدة لكي يوصل الفكرة..

جاعلا من مفردة اليد وهي ممسكة بالوجه وخلفها اشجار ومستند عليها هيكلا عظمياً علامات تحيل الى الدلالة التي تحملها القصص ككل والذي ادركها مصمم الغلاف حتما وهو يوزع المفردات التي تحيل على اكثر الفترات التي شهدت مظاهر العنف وأشدها تدميرا وشراسة، الفترة التي فتكت بالأبرياء على جميع المستويات في ظل دخول الارهاب الى الموصل ، وهذا ما عبر عنه الكاتب في الغلاف الاخير للمجموعة القصصية بقوله مضاف اليها أوجاع قديمة قد عاشها (انه خلاصة 73 عاما من الاوجاع العراقية التي عشت نبض كل لحظة منها اجدني امتحن تلك الاعوام بتجارب جريحة ومغرقة بالاحزان وثقل الزمن الذي عشته سواء على صعيد الواقع او المتخيل والتماس المباشر والتفاعل مع شخصيات ادرك طبيعة هواجسها ومرارتها الثقيلة) ، اما فيما يخص عناوين القصص فأول ما يستوقفنا فيها انها عناوين تجمعها مفردة الاصابع التي تمثل جوهر القصص وتحتل مكان الصدارة فيها، وهذا وان ما نلحظه من التأكيد على مبدأ الانتقائية والترابط الدلالي مع العنوان الرئيس واللوحة فهما معا يشكلان المفتاح الإجرائي الأول الذي يمكن الدخول عبره إلى عالم النص وفضح كل ما فيه من اسرار.

وهكذا فإذا كان هذا الحدث التاريخي الذي يستثمره القاص بدافع تشيد صورة لفترة من اكثر الفترات ظلما وتدميرا، فانه يكشف التتابع المأساوي للأحداث والأوليات المحتكمة في صيرورته فان تكرار مفردة (الاصابع) على كامل القصص بما يملكه من الثراء الدلالي والقدرة في تكوين الفضاء الايحائي يمنح القصص دلالة واضحة، فالقاص على امتداد القصص يستثمر مفردة (الاصابع) كعلامة سيميائية واصفاً اياها وصفاً دقيقاً، جاعلاً منها شاهدا يطرح عبره هموم تلك الفترة ومعاناتها بوصفها بديلاً رمزياً له مَحمولات لما حدث من اذى والم والذي من شأنه ان يجعل المتلقي يرد بان كل ما يحدث داخل القصص يعود الى القاص ذاته ، وذلك ربما للاجواء غير الطبيعية التي عاصرها في ظل الحروب والارهاب والتي اثرت بشكل مباشر على هذا الاختيار، ما راح يشتغل على هذه العلامة بقوة، متخذا اياها كدال متكامل مكتف بذاته وقادر على توليد سلسلة عديدة ومستمرة من الدلالات.

ان (الاصابع) هنا تعد وسيلة بيولوجية اولية تشترك فيها مع الكائنات الحية، و حين تنحاز عن هذا المعطى البيولوجي المشترك سوف تنتج في الأذهان معنى جديدا، أي انها تخرج من الوظيفة الطبيعة إلى وظيفة إنتاجها لمعنى مغاير ومختلف، وهي بهذا تمثل فعلا دلالياً جديداً متحررة فيه من وظائفها الفعلية، باسطة فيه فاعليتها في جميع الاتجاهات ما يضفي تنويعا دلاليا إلى اللغة لتنفذ فيه الى مسارب النص ولتوظفه في خدمة الفكرة الأساسية الحاملة هنا إيديولوجياً يريد القاص توصيلها (لا تتحدد إلا بوصفه، بنية عفوية بيولوجية كذلك بينة ثقافية و اجتماعية يتواصل فيها البدني بالتصوري، ويتعلق فيه البدن الجسد ببدن العالم)، وان هذه المفردة لا تقصر على قصة واحدة، بل تستحوذ على قصص المجموعة كلها ،فهي بما تمتلكه من غنى في مضمونها وشكلها تأتي محملة بمعاني عديدة فهي تحتل مكانة مركزية في قصة (اصابعي التي لم تعد اصابع) حيث تتكرر مفردة (الاصابع) في القصة حوالي (50 مرة) تمثل وتحيل الى الموت والتشظي (انا لا املك اصابع اصابعي ليست لي اصابعي لم تعد اصابع انها كماشات مشوهة مقرفة نتنة لا تلمس شيئا الا وبعث فيه العفن) ص10، ونموذج آخر للاصابع يظهر في قصة (اصابع القتل والدفء) التي(تتكرر فيها مفردة الاصابع 8 مرات)، والتي تبدو هنا كمقارنات وتناقضات بما يطرحه الدفء فمرة يأتي كعلامة ينبه فيها ويشير الى الارهاب وقتل الحياة (فيما اصبعه يضغط

على حزام عريض مملوء بالحشوات وقد بدا ممزقا وقد تحول الى اشلاء) ص19، ومرة اخرى يشير فيه الى الامومة والحنان (يا ناس كانت اصابعه تحضنني كانت اصابعي ممسكة به كنت اشده الى صدري - نسيت دفا وحركات اصابعه)ص21.

واستمرارا لما يتعلق بمفردة الاصابع التي تتمتع بوضع اعتباري و على درجة كبيرة من الحضور والتنوع والتي تلعب دائما دورا أساسيا في جميع القصص بهدف تقديم الصورة المتوخاة التي يريد طرحها عبرها تتحول في قصة (اصابع الشهداء في كل مكان) الى رمز للشهادة (ترد مفردة الاصابع 10 مرات) (مقاتلا شجاعا لم تتخلى اصابعه عن حمل السلاح لمقاتلة العدو) ص28، و تتحول ايضا فيما بعد الى رمز الاشجار (ستتحول اصابع كل واحد منهم الى اشجار ترتوي بالمطر ثم تنمو وتملا المكان الذي سيتحول الى غابات نخيل) ص29.

وكلما تمعنا في القراءة نصل الى ادراك راسخ ،هو ان كل القصص ما هي الا ادانة صريحة للارهاب ولا شيء أدل على هذا بما اقترفوه من جرائم بشعة كما في قصة اصابع سبياكر، وان القاص بأسلوبه المباشر الذي يعبر فيه عن أفكاره وآرائه وقناعاته من دون موارية يكرر مفردة الاصابع في القصة (14مرة) فتاتي تارة للفقد (بكى رابع وراح يقبل تلك الاشياء الجافة التي لم يعد اي واحد يدرك منا انها اصابع اولادنا الذين فقدناهم في ذلك المكان المشؤوم الذي يطلق عليه معسكر سبايكر)ص35، وتارة تأتي متوجه صوب القلق والحيرة (واندفعنا نحفر باصابع اللهفة والحيرة والتيه)ص35،وبتكرارها (9 مرات) في قصة (رغيف بدفء الاصابع) تأتي محملة بمعنين متناقضين يعزز التوجه الاول فيها ازاء معنى الحياة (كانت اصابعي وهي تعجن وتخبز اشبه باصابع عازف سعيد باداء اجمل الالحان) ص،42 والمعنى يحمل ويحيل الى معنى النهب والابتزاز والقتل ، (يأخذون باصابع صدئة ما توفر لدي من خبز) ص43،وحين يكون الجميع تحت مرمى الدمار والخراب والنار والتراب والدخان والرماد حتى التاريخ لم يسلم منهم فنجد علامة الاصابع في قصة اصابع حارس المتحف التي تتكرر حوالي 11مرة تجسد بامتيازمعنى الشهادة على هذا الخراب وطمس التاريخ (كانت اعصابي شاهدة على ما كان وما حدث وانا بكامل قواي العقلية والجسدية ممتلكا اعصابي وارادتي التي لا تقوى على شيء امام هذه الايادي الخشنة الصدئة)ص 49 (كانت المطارق الحديدية الثقيلة تنتقل بين اصابعهم كما لو انها ادوات منزلية اعتاد اصحابها على استخدامها في حياتهم اليومية كنت احدق في تلك الاصابع البشعة) ص50 .

كما وان القاص الذي اقتضى ان ندرك طبيعة قصصه في بعديها الشكلي والمضموني عن طريق (الاصابع) بكونها رمزاً وعلامة نحو فهم ما يروم توصيله ليجعل من (الاصابع) في قصة (اصابعي في سور نينوى) التي ترد المفردة فيها(26 مرة) منطلقاً تجاه الموت والتشظي وذلك حين تسقط الصخرة على الاصابع وتهشمها (كنت الكائن الوحيد الذي يزور قبره قبر اصابعي اصابعي التي ترقد بسلام غير معنية بما تبقى من اصابع في يدي)ص58.

ان الحقيقة التي تصرخ في كل قصة من المجموعة ما هي الا للكشف واستحضار صور ومشاعر متنوعة تدين الإرهاب وتضيء العلاقة بين جانبين متضادين جانب يحمل معنى الإنسانية وجانب يشير الى الموت والدمار هذا التصور المزدوج لمفهوم الإيصال عبر التضاد هو ما يحاول الكاتب التطرق إليه في اكثر من قصة وفي قصة (اصابع بهنام ابو الصوف) (تتكرر22 مرة) تأتي تارة لتفيد معنى الحب والتفاني (اعرف اصابعه جيدا اعرفها واجزم ان بمقدوري تمييزها عن جميع الاصابع التي اعرفها ولا اعرفها. نعم، اؤكد انني اعرف اصابع بهنام ابو الصوف الذهبية وامتياز الذهب في اصابعه يقترن بكل ذرة تراب حفر ونقب فيها طويلا)ص 65. وتارة تأتي معبراً عن (البلاء لم يعد عصيا على كائنات وحشية تحمل بين اصابعها وادراكها كل هذا الحقد الاعمى على ما انجزته البشرية بصمات اثارية)ص70، وان الكاتب باعتماده الاشتغال على ادوات مستمدة من حقل الجسد نجده في قصة اصابع الست باسمة (يتكرر31 مرة) يستمر في السعي وراء فكره تحمل الافتراق الرؤيوي بين جانبين جانب يمثل الشعور الطاغي بالقوة والجمال الذي تتفجر به (اصابع الست باسمة)، ازاء شعور يحمل مرارة الهزيمة والتخاذل تمثلها اصابع الحارس (الست باسمة لها اصابع درية قوية باسلة تفوق اصابعي الجبانة المتخاذلة الحمقاء) ص 75.

كما وان القاص في سعيه التركيز على جميع إحداثيات ابنية النص القصصي المتصالبة على نقطة تجمع بين مصير الانسان كفرد في مواجهته للظلم والقتل من قبل الجماعة هو حتما تاكيد مقصود عائد الى رسم صورة للتشاؤم المطلق الذي يمكن أن يمنحنا إياه الواقع في تلك الفترة والتي تكون قيمته في الاشتغال عليه من اجل تحفيز القارئ على التواصل بيسر وسهولة مع النص القصصي كما في قصة (اصابع خوبي الستة) يكرر الاصابع (15 مرة) (عندما وجدوا خوبي تقف بوجوههم قابلوها بضربات على راسها وعندما شاهدو قدميها بستة اصابع راحوا يضغطون عليها باحذيتهم الثقيلة وقد نجا احد قدميها فيما تهشمت اصابع الثانية) ص87.

ان ما يوطد المسار الذي ابتغاه القاص هو الوجود المهيمن والواضح في ادراج مفردة الاصابع في اغلب القصص حيث تاتي في قصة (اصابعي الخشنة) التي لا تتجاوز الخمس صفحات متكررة حوالي (مكررة كلمة الاصابع 49 مرة) وهي التي يريد القاص عن طريقها التضاد ما بين الخشونة التي وراءها العديد من المآسي والشؤون والشجون (كانت اصابعي الخشنة الجافة تمسك باصابع قدت من حرير) ص94، بالمقارنة مع الاصابع الناعمة (كانت اصابعه منحوتة طويلة ناعمة) ص98، ويومئ القاص على نحوٍ مباشر في قصة (انفاس اصبع) مستعيناً الترميز كبقية القصص عبر مفردة الاصبع التي تتكرر (11 مرة) إلى دور الارهاب في التشظي والضياع (كتموا انفاسي وحالو بيني وبين الحركة رايت اصبعي مرميا ينزف دما ورمز عرسي داميا يبرق) ص107.

وعن طريق تمظهر الاشتغال الواضح لهذه المفردة ومن تأسيسها لارضية مشتركة

على امتداد المجموعة متجلية دلالتها في اشكال متنوعة نجدها في القصة التي تحمل عنوان (كفن لها ولاصابعي) (تتكرر22 مرة)، جامعة بين الشباب والشيخوخة (ويخجلني ان اشيخ وانا امسك باصابع شابة مزهرة في ربيع بهيج مثلما يخجلني ان ترى طفولتها وهي تضيع في اصابع عبثت بها سنوات العمر المريرة) ص112.

ولا تتجلى الوظيفة التي تدين الظلم والقتل في القصص السابقة وحدها انما تتجلى ايضا وبشكل واضح في قصة (فجر اصابعها) التي تتكرر فيها مفردة الاصابع (11 مرة) (اعتدت ان اتخيل اصابعها تتحرك في كل مكان فجرا حال يقظتي من نومي قبل ان اراها) ص119 .

ان حسب الله يحيى الذي تفرد بتناول عدد من القصص واسند لها مهمة تبيان التناقض مستخدما الاصبع كعلامة دالة عليه نجده هنا في قصة (اصابع بلون الامنيات) (31مرة اصابع) يبدو التناقض واضحا ما بين الطفولة والهرم (كنت ارى رقة وجداني وشيخوختي وانا اراقب اصابع منى وهي تؤثث لحمها مثلما ارى شجرة الروز وهي تغازل الطبيعة) ص131 ، وما بين الفقر/ الغنى (ربما لانني كنت افتقد تلك الاصابع الحرة البهية كانت اصابعي مختلفة عن تلك الاصابع. كانت اصابعي جافة خشنة سمراء شاحبة) ص 132 .

والملاحظ في قصة (اصابع النساء) التي يعود زمن احداثها الى زمن نشوب الارهاب ودخول داعش الى سنجار، تشتغل الاصابع دلاليا على الشهادة في قصة (مهداة الى النساء الايزيديات (اصابع النساء الايزيديات) (35 مرة) لتوحي على ما ارتكب من البطش والقتل حين (اجتاحوا قضاء سنجار وشردوا سكانه وصاروا شتاتا بلا ماوى) ص151 (اشرق وجه نور وراحت اصابعها تتحرك في ارتباك وتستقر في حضنها امنة، وجدت فيها اصبع امي وهي تحنو علي)ص155.

هناك نقد يتطلب فيه من الكاتب ايراد صور جديدة في الرؤية، وهذا يأتي في قصة (اصابع القط) (تتكرر المفردة 5مرات) عبر الحيوان الذي يبدو حتى هو الآخر لم ينجُ منهم، وان القاص الذي يملك روحاً إنسانية والذي ضاق ذرعاً بالظلم والقهر والقمع، والذي حدد منطلقه المنهجي تجاه فضح الارهاب على كامل القصص اراد التنوع في ادانة الظلم والقتل هنا (اصابع تحمل مخالب حادة تمزق جسدي كما لو انها سكاكين تقطع لحمي) ص159.

ان الاشتغال على مفردة (الاصابع) والتي تقدم صورة واضحة على قدرة الكاتب وتمكنه على النفاذ على مناطق متنوعة.. تاتي ايضا في قصة (اصابع الحبر السماوي) (تتكرر13 مرة) برهاناً على الصداقة (امسك باصابعي اشدها الى اصابعه كانما كان يخشى انفلاتي من بين اصابعه مع انني كنت مسحورا بتلك الاصابع) ص165.

وفي القصة المعنونة (اصابع اللذة) تتكرر المفردة (44مرة) والتي يبدو أن نمط الإيصال المهيمن للمضمون ياتي كبقية القصص عبر (الاصابع) التي استحوذت في هذه القصة على حيز نصي واسع تموضعت في الصفحات القليلة التي يتحدث فيها القاص عن الموضوع الذي يريد طرحه محاولا رسم صورة تحيل على اللذة (لم تعد اصابعي أصابعي التي اعرفها ولم تكن

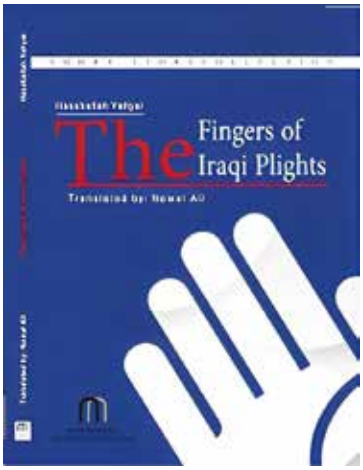

اصابعها تلك الاصابع التي تعرفها اصبعنا كانت تمضي في عوالم اخرى) ص179.
وهكذا نرى ان مفردة الاصابع لم تقحم بشكل اعتباطي في القصص، بل تنهض على اساس من العلاقات السببية من بين الموجودات، فنجد استغراق القاص بمتعة الاتجاه النفسي في قصة (اصابعي واصابع الديك) تتكرر (17 مرة) والتي يبدأ الحديث فيها عن الاضطهاد ثم يستتبعه بالمقارنة ما بين الشيخوخة والشباب (هل تريد لاصابع شيخوختك ان تماثل اصابع شباب الديك؟) ص189.
ولا بد ان نقول اخيرا من أن الحافز الأساسي لكتابة هذه القصص التي كانت تتمركز كلها على الموضوع نفسه، حتما كانت نابعة من احساس القاص بالولاء للوطن الذي هده القتل والارهاب، وفي سبيل ان يتخلص من المعاناة الضاغطة على نفسه وعقله، وان علامة (الاصبع) بما تحققه من اعلى مستوى من البروز تجاه ادانة الارهاب في اغلب القصص، الا انه مع ذلك يمكن استثناء القليل منها لما تحتويه من مضامين مختلفة متموضعة في اتجاه اخر للتخيل الا انها مع ذلك تؤول في نهاية المطاف الى ادانة غير مباشرة للارهاب، وايضا من المفيد القول من ان زخم الوجدان المقهور بهذه الخيبات للقاص ومن وقوعه تحت طائلة يأس عميق في تلك الفترة يفسر اعترافه في الغلاف الخارجي بانها ستكون اخر مجموعة في خاتمة حياته ولا يعتقد انه سيكتب سواها.
كما لا بد من القول اخيرا بان هذه المجموعة تضم عددا من القصص مضافة الى المجموعة في النهاية تحت مسمى (الملحق) ولكني لم اتناولها لضيق المساحة وكذلك لاختلافها عن الموضوع المطروحة قراءته هنا.

• اصابع الاوجاع العراقية، قصص حسب الله يحيى، دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 2017. وقد قامت بترجمتها الى الانكليزية / نوال علي، وصدرت عن دار المأمون بغداد 2023

بين أبستمولوجيا الكلمة وأبستمولوجيا الصورة

د. نجم حيدر

(1)

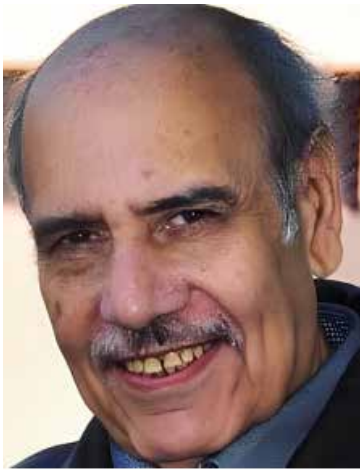

انتجت نظرية المعرفة بتطورها وتراكم بناها جدل اختلافي واسع، ولاسيما مع ضاغط المرجعيات الفلسفية المنتمية اليها. انطلاقاً من فكرة ان الانتماء الفلسفي امر لا مناص منه بوصفه ظاهرة طبيعية رافقت الفكر البشري مع نموه. فضلا عن عد الفلسفة امرا اعتمده الانسان بمجرد احالة افكاره الى محركات التأويل والترميز، بتنامي البنى المعرفية والموقف في تنامي وانشطار.

ان نظرية المعرفة (الأبستمولوجيا) لا يمكن الا ان تكون نظريات متعددة. وذلك بفعل التنوع في مرجعياتها الفلسفية. وعلى وفق منطق البحث العلمي، يتبين ان المتراكم الهائل في مستويات البناء المعرفي لا بد ان يقدم لطاقة الاختلاف فاعلية الانتاج المتجدد والمنتج الدائم. بل ان الجدل (الديالكتك) الذي اسس له هيرقراط وعظمه افلاطون وبنى نظمه هيجل يمثل صورة من حتمية الاختلاف في بنية المعرفة ذاتها.

عندما نعتمد منطق المعرفة العلمية، بافتراضها لبدايات الوعي عند الانسان الاول مع التطور البنى الفسلجية ولاسيما الدماغية، قدمت اسبقية الادراك وبناء الوعي للصورة المرئية بوصفها تسبق الكلمة المنطوقة المحملة للمعنى وتحقيق الوعي الابتدائي. بهذه المعادلة التي تقترب بطاقة الكشف العلمي الى البديهيات تتأكد ان الصورة المستلمة بشقيها المدركة كوجود قبلي في الطبيعة يسبق فعل الادراك او المنتجة بوسائط الوعي ونظم المعرفة كما في الرسوم البدائية الطوطمية الاولى، هي اساس تشكل بنى المعرفة الاولى، وهي نتاج وعي احالها الى مفاهيم تتعالى لتكون في مؤلات فلسفية بحتة. وهذا ما انتجه الفن وتطور به الى زمن الحداثة وما بعدها. بعض من هذه الصور ذات تركيب عالي في نسقية الفكر المصدر منها لتكون صورة متفلسفة، او تحوي عناصر التفلسف. التي تخطت الكلمة والمعنى في زمن الحداثة وما بعدها، وكأن الفلسفة استشرفت ذلك في بحث عنما قدمته في سردياتها الفكرية الاولى فيما تصفه ب (التجريد العقلي).

لا جدل في عدّ الصورة المرئية لغة تواصلية في مباشرتها الوعي كمفردة بناء لا تلبث الا ان تحقق تركيبيتها باندماج مع معطيات الذاكرة التي تؤسس التفسير للصورة ذاتها. ومن ثم تولد الجديد في منطق التأويل لتحال الى منظومه تحمل في داخلها مفاهيم مركبة الى مستوى التفلسف.

وعليه فان منطقة بحثنا في متعاليات البناء الأبستمولوجي للصورة، التي انتجها الانسان بعمليات وعي متعالي، هو ذاته الذي نسميه بالفن الذي اعتمد الصورة مع بواكير وعي الانسان الاول. ولاسيما عندما احال الصورة المرسومة الى خطاب ترميزي عالٍ في مركباته التأويلية.

ولان قراءتنا تؤمن بمتراكمية وتطور المعرفة، فان الصورة المرئية المصنعة بواسطة الفكر وصلت الى طاقتها القصوى مع تنامي وتتطور النسيج المعرفي للإنسان، من حيث وعيه بمكونات محيطه وبيئته. انها بداية تكوين المعرفة بتنامي علاقات تفاعلية مع بيئته. اذ ان هذه العلاقات تؤسس وتبني الوعي والفكر ومن ثم تؤسس المعرفة، باعتمادها ركنين أساسيين. أحدهما يرتبط بالأخر عضويا تطوريا. يتمثلان بالركن الفسلجي الحسي وما يحتويه من اجهزة اتصال وتواصل، والركن البيئي الاجتماعي الطبيعي، بما يمتلك من افكار وتصورات تجتاح عقل الانسان، باعتماد العلاقة المتطورة بقوة النمو الفسلجي للإنسان عبر سنين حياته. هذا ما اشار له العالم العراقي الفذ د نوري جعفر قائلا: " تبدأ العلاقة بنضج فسلجي لبدوات الاتصال وبنية المخ. تتدرج بنضجها، مما حقق انعكاس واضح في تعامل الانسان مع بيئته المحيطة".

وعند بداية فعل الاتصال تبدأ اولى عمليات التحليل. تحليل الرسائل الواصلة إلى الجهاز المخي الفسلجي. المتمثلة بتفكيك المادة المرسلة وعلاقاتها المجاورة، هذه التراكمية عبر الزمن حققت نمو تمثل في البنى الحضارية التي وصلنا اليها.

ان عمليات تحليل الصور الحسية الخارجية المتحققة في وعي الانسان بواسطة ادوات البصر ترافقها طرح مجاميع منطقية لتحقيق الفهم بأعشار الثانية، بل بسرعة تتخطى ادق وسائل قياس الزمن. بذلك تحقق عمليات تجزئيه للمفردات الاولية للصورة الحسية الوافدة. قد تكون المفردات علاقات وظواهر، ومن ثم يتحقق تراكب في بنية الصورة ذاتها او مع مجاوراتها باستدعاء خزين الذاكرة.

هذا ما نلاحظه عند الاطفال من عمليات تحليلية تعمل بالتركيبية نفسها البنائية للموضوعات البسيطة في الحياة من ابسطها الى اعقدها عند مستويات التركيب والتجريد العقلي. فتركيب مكعبات في مداخلها عند طفل ذي أربع سنوات يحتاج إلى عمليات تحليل وتركيب قد تكون (بمنطق النسبية) أصعب من حل معادلة رياضية مركبه عند مختص.

ان الخبرة الاختصاصية متراكم عمليات قصدية اساسها التحليل والتركيب ضمن دائرة التخصص. بفعل ذلك يمكن أن تتشكل قواعد نظرية في بنية المعرفة وعلاقاتها وظواهرها، ومن ثم اعادة تركيبها على نحو متجدد. لتكون العمليات التحليلية التركيبية اداة فهم ووعي متنامي متطور لمجموع المعارف الانسانية، في بعض منها احالة للصورة المرئية الى تأويل يتصاعد في طاقته الابيستميولجية الى تفلسف.

ان عمليات تحليل الصورة ملازم ومتداخل لعمليات تركيبها في الفن. بل أن أحدها تعتمد الأخرى، فعلى الرغم من وصف التجزيء من اوليات عمليات التحليل بتفكيك الصور العقلية إلى اجزاء بنائها كمفردات وعلاقات وظواهر، إلا انها لا تستغني عن عمليات التركيب. فهناك ترابطا بناءً يصل في احيان من مستوى الابداع والابتكار إلى نوع من الجدل العقلي بأرضية ادائية تطبيقية تؤسس حرفية الخبرة.

وعليه فان تحليل الصورة المرئية بطاقة تراكمية ابوستيمولوجية ومن ثم التركيب بذات الطاقة، يمثل حقيقة المعرفة والادراك والوعي وبنائها وتطورها ويتجاوز حسابات الكم والكيف في تراكم مفردات الصور إلى نوع من الشمول الديالكتيكي بفعل تداخل في العلاقات والسياقات والانسجة حاضرا وماضيا واستشرافا لأفق المستقبل، باتصافها بلا محدودية في الكميات والكيفيات، وذلك لحتمية استمرار فعالية العمليات التحليلية التركيبية.

(2)

تقدم لنا الافتراضات المنطقية المعتمدة على منطق البحث العلمي، وفي بداية اللغة المنطوقة وتطورها ونموها الى اللغة المكتوبة كانت على شكل من الاصوات التي تنامت لتؤشر دلالات لموجودات بيئية مادية او احيائية محيطة بالإنسان، أشر اليها بواسطة اصوات عن طريق تكرارها واسست اشتراطية الشيء او المادة او الحيوان ...الخ. انها البدايات الاولى للغة، هذا الافتراض المنطقي يتقبله العقل التحليلي المعتمد منطق المعرفة العلمية، والامر يعني ان لأي صوت، منظومة دلالية تحتاج الى صورة مرئية في مرتكزاتها الاولى الى ان تطور العقل البشري بفعل المتراكم الواسع ليحقق الصورة التأويلية ذات المحمولات المركبة فعندما نلفظ كلمة (كرسي او ملعقة) لا يستطيع العقل الا استدعاء صورة لهما من متراكم خزين الذاكرة ، بينما اذا لفظت كلمة (شرف) فان الصورة تتخطى الحسيات المادية الى مركب مفاهيمي بضواغط البيئة الأبستمولوجية التي يعيشها الانسان الناطق او المستمع.

وبعد زمن طويل من متراكم البناء المعرفي، والتحول الحضاري، استطاعت الصورة المصنعة بأدوات الفن التشكيلي ان تؤسس انفتاحاً تأويلياً متحركاً بما تمتلك من محمولات في المعنى او المفاهيم المصدرة منها لا يمكن تأطيره بسهولة، فهي تبث طاقة تأويل عالية ومتغيرة بحسب منظومة المعرفة للمتلقي، هذا ما تميزت به فنون الحضارات الكبرى عبر التاريخ من وادي الرافدين والنيل والحضارة الاغريقية.

وما يؤكد ان طاقة الصورة العالية ذاك الاختلاف الواسع والمتنوع في التفسير، بل ان تحقيق صورة مجردة بالكامل من ضاغط المعنى امر يعد استثنائياً اسسته الفنون التشكيلية مع زمن الحداثة الذي اسس للفن التجريدي. بوصفه فناً مستفزاً ومربكاً للعقل البشري المأسور بالمعنى والمفهوم، وعملية الانفكاك من هذا الاسر يحتاج الى مرونة عقلية متقدمة تحلل معطيات الصورة وتبعد متراكمات ضاغط المعنى لتجعل من الصورة المجردة انفعالاً وتفاعلاً جمالياً بحتاً.

ان تقبل او تعاطف او توافق أبستمولوجياً مع المجردات من المعنى و المفهوم يعد تحولاً

كبيراً في الوعي الانساني ، يتوافق مع رؤى افتراضية ذات منطق علمي في عد بدايات التصور الذهني حيث يبدأ بحوار الذات من داخل الانسان مع معطيات او رسائل محيطه الطبيعي و الاجتماعي ، هذا الحوار في معظمه كلمات صامتة ، الا ان ما قدمته علوم الدماغ في توصيفها للحوار الداخلي بين العقل و الصورة المرئية بالمتحول الكبير لما يمتلك من مكانة مهمة في مساحة الرؤى الافتراضية التي تؤسس الصورة الذهنية للإنسان ، و الامر لا يشمل فقط العاملين بالمعارف المعتمدة على الصور او الاشكال بل يشمل المعارف التي تعتمد اللغة المنطوقة او المكتوبة ، او المتنوع الهائل من مصدرات الوجود المادي من رسائل يحيلها العقل الى مفاهيم .

المثير في تلك المجردات التي ذكرناها آنفاً بواسطة الصورة الشكلية او الصوتية المجردة من ضاغط المعنى حجم مستوى الانفتاح التأويلي الهائل المحقق لنتاجات ذات مكانة مهمة في البنى الابداعية ولاسيما مع الاقتراب من زمن الحداثة وما بعدها، وها نحن في خضمها، اذ لم تستطع اللغة المنطوقة الوصول الى مستويات لغة الصورة الا بملامسات رائعة في الموسيقى، والامر قد يقدم افترضاً منطقياً في ان الموسيقا التي تعد محفزاً يسبق الكلمة في التجريد.

ان عمليات تحليل الصورة، ومن ثم تركيبها بمتغير قصدي، تعد في تخطيها الفهم والوصف إلى نوع من البناء والتجديد بجدلية فعالة بين الوحدات التحليلية والتركيبية عمليات ابداع وتحول في مفردات وعلاقات وسياقات في خضم مادة المعرفة مما يؤدي إلى تحقيق الجديد في بنية المعرفة الاختصاصية. هذا ما بدأه الانسان الاول من دون ان يعي ان طاقته العقلية اعتمدت الصورة المجردة في بناء الترميز العالي مما اسس لنجاح مستمر في صناعة المقدسات الصورية للإنسان.

ويتفق منظرو منطق المعرفة العلمية، ولاسيما (كارل بوبر)، ان لبناء أي معرفة لابد من ثلاثة أسس أو مسلمات. الأولى، وجود العالم الخارجي المستقل عن الذات الانسانية (الموضوع). وهذا الوجد لا يتحقق الا بفعل الادراك له واولى المدركات تتمثل في الصورة المرئية. والثانية، وجود ادوات الحس التي تستطيع أن تلتقط المعطيات التي يقدمها العالم الخارجي (وسائل المعرفة). والثالثة، وجود المقدرة العقلية التي تستطيع التفسير (العارف المفكر).

وهذه العمليات ذات حركة مترابطة متداخلة، على الرغم من مرحليتها غير المحسوسة. وتكمن اهمية هذه الاسس بفعل عدم استطاعتنا الاستغناء عنها أو عن أي مفردة من مفردات بنائها. فلا يمكن تصور معرفة من دون وجود الاجسام والهيئات المتوفرة في العالم الخارجي. كما لا يمكن تصور معرفة من دون المعدات الحسية التي تستطيع التقاط معطيات العالم الخارجي. ومن جهة أخرى فان المعدات الحسية والاجسام والهيئات لا تستطيع بناء معرفة إلا بواسطة القدرة العقلية الفسلجية. فضلا عن كل ذلك فان المقدرة العقلية تعتمد على امكانية تتمثل في الانساق التي حققتها المعرفة المتراكمة ضمن زمن ومكان ما. وهذه العمليات التي تبدأ من التقاط الصورة وتفسيرها بعد فهمها، انها عمليات تحليلية تركيبية. تحلل الصورة وتعمل الى تركيبها لتكون ضمن دائرة منظومة المعرفة.

درب ملْتبِس المسار

خالد الحلّي
ملبورن / أستراليا

في اللّيْلِ والنّهارْ
كانَ يلوحُ دربُكُمْ
مُلْتَبِسَ المَسارْ
وكانَ بَعْضُكُم
يقولُ إنّكُمْ
ما عادَ عِنْدَكُمْ
رأيٌ، و لا قَرارْ
مُنذُ أَضَعْتُمْ وَقْتَكُمْ
في لُجَجِ اِنتظارْ
الوقتُ لَيسَ مُلْكَكُمْ
الوقتُ مُلْكُنا
جَمِيعُنا
لا تَقْسِمُوهُ وَحْدَكُمْ
ووزعوهُ بيننا
وقَلّلوا مسافةَ انتظارِكُمْ
و أَوْجِزُوا مسافةَ انتظارِنا
و حققوا مَرامَكُمْ
و ما نرومُ كُلُّنا
في أقصرِ اِنْتِظارْ
لِكَيْ يكونَ دربُكُمْ
مُتَضِحَ المَسارْ
في اللّيْلِ والنّهارْ

عشقٌ بلا ذُنوب

ذُنوبُ جميلةٌ
كانَ العاشقُ مُبْتَهِجاً

وَهْوَ يُكَرِّرُ ما قالَ بِرِفْقٍ لحبيبتِهِ
إنّي لا ذنب لديَّ
فهَلْ أنتِ لديكِ ذُنوبْ
إنّا أقْسَمْنا
أَنْ نجتازَ العُمْرَ بلا ذَنْبٍ
لكنّا نتماهى في حُبٍّ كلينَا
هَلْ كانْ الحبّ لنا ذنباً ؟
هَلْ إنْ الأشواقَ لذُنوبْ ؟
قالت كلاّ أبداً
يا محبوبْ ..
الحبُّ جَنائنَ لا تُغْلَقْ
بوجوهِ العُشّاقْ
و ضِرَامُ الأشواقْ
فرحٌ يتجَدّدُ في الأعماقْ
و حنينٌ يَرْقُصُ في الأحداقْ
دَعْنا نَعْشَقْ
وَلْنَغْرَقْ
بِبِحارِ الحبِّ لنَغْرَقْ

هلْ يلتقيانْ ؟

مشتاقٌ يشتدّ بهِ الشّوقُ
إلى مَحْبوبَةِ عُمْرٍ لا تَشْتاقْ
العاشقُ وَلْهانْ
و حبيبَتُهُ تبكي في مُهْجَتِها الأحزانْ
و الإثنانْ
لا يَريانْ
بعضهما
هَلْ يلتقيانْ ؟
في يومٍ من أيّامِ الإنسانْ
بعد عقودٍ من هجرانْ ..؟
هَلْ يلتقيانْ ؟

سيناريو الصحراء الأولى

مجيد الموسوي*

1.
أسقطُ في الصحراءِ : أرى
الجوادَ بانتظاري / عارياً بِلا سراج ولا لِجام / أحمرَ
الغروب
كيف أُلاحقُ الشمسَ وهي لا تكفُّ عن الروغان
من الشرقِ الى الغرب ، من النهارِ الى الليل
قالت العرّافة : أمامك طريقان :
- وحدقت في خرزات الرمل -
أنا مع وحدتي
ووحشتي
والريحُ
سماءٌ شاسعةٌ تغلفنا :
وصحراءٌ لا تقودُ الى شيء !
لماذا أنا هنا ربما قادني الحِلمُ أو الخوفُ او المصادفةُ !
أأبحرُ في رملٍ على جوادٍ بِلا سراج !
ومن ينتظر في أخرة الغسق .
السرابُ أم رائحةُ الأمل ؟
سأسوي خرائطي بنفسي ...
لو اختارت العرافة
طريقاً لي
أفقد متعةَ الموتِ :
(شعاعةٌ رميلةٌ نفّاذةٌ من الحصى المتراكم)
أفردْ يديكَ وتصالبْ بسمت الشمس وستكون الجهات كلُّهل ملكَك
ولكن لا مفرَّ من أختيارِ الهاوية .. دمُّ الصحراءِ لي وحدي
وعلاماتُ الغسق تُنبئ برعبٍ يقترب
سأصفّي حساباتي مع الليلِ
ولن أرضخَ لغير نزواتي
لماذا تتبعني الأشباح .

النسيانُ خُلاصي
وأنا أعرفُ
لغةَ الرملِ : لا خلاصَ و لا نسيانَ في شواطئ العتمة ..
والنجومُ سأقتطفهنَّ واحدةً واحدة
حتى تغدو السماءُ درداءَ
وارتحلُ غيرَ عابئ بالريحِ
والليل المتربص
قالت العرافة : أختر ! وهمهمت داخل الخباء
رفعت ساقيها وأشارت الى سرتها ....
أيخدعني الجموحُ مرتين :
فتفر كالزئبق
مني وتذوب ...
(يخضر الليل ويتماوج في مسيل الحصى ...)

. 2
أحلام الليلِ كطيورٍ مهتاجةٍ .... والصحراءُ تلتصق
بأديم السماء الأسودِ : قماشةً منقطة بالملح
وأفقٌ رخام منمنم بالحيرةِ والعوسج ...
لم يغادرنيَ : جوادي الأجردُ ونزواتي
تنتفخ كالأورام ... وحدي مع نفسي التي اطلبها
فلا تجيبُ ، فأتشبثُ برفيفِ الرمل وأخوض
في سراب الليل ، سبقني الشمس في الدوران
كدت أمسكُها لكنها راغت وانفلتت كقطعة صابون
وهذا الغسق يوهمني بالوصول / الخباءُ مسدل
وتحته الرعب والشبق ... الأشباح الليليون تحولوا
الى أنين خفي في يسيل من أضلاع الرمل : كيف
السبيل في هذا الموج الليلي ... سأناديك أيتها
المندّسةُ تحت خبائِك ورمالك ولهاثِك .... ولكن
الفجر بعيد ، والشمس سبقتني الى مخدعها وأنا
أدور حول نفسي طالباً النجاة ... أهو الخوف
أم اقترابُ الجنون ... قالت لي : اختر طريقك
ولا تعذبني ... وكنت متلهفاً للصراخ فلم اسقط
الا في الصحراء ... متلبساً بالنزوات والتوجس
تتخطفني رغاءاتُ ... الرمل والرغائب .

.3
أرهقني الترقب .. والانتظار .. والعري
وفي الغسقِ المتوحدِ ، الموحش ، المرتجف : تتقافز نفسي
ويداي فارغتان ، وفؤادي كالطبل : أضربه فيوجعني !
أتلمس جلد الرمل الخشن .. وأفكر بالأشباحِ في
الفجواتِ والثقوبِ الهائمين
في فضاء الليل الدبق
أي أنين هذا الذي تبثه الأرض !
أيّ فحيح هذا الذي يسربه الأديم !
وتحت الخباءِ يكمن الخطرُ والأملُ والشهوةُ .
سأفكر بسيرةِ الزمن غداً . ربما الآن
أو لن أفكرَ ابداً
قالت لي : ماذا قالت : لا تطلبنَّ الموت ، ولكن
من الشجاعة ألا تخشاه واختيارُك واحد
طريق الى صحراء لا يقود الى شيء
وطريق الى سماء لا تصل اليها !
وفي الصحراء نلبس وحدتنا كالثياب
وفي نسيجها تلسعنا الوحشةُ والرغبةُ في الفِرار
الى أين ! أريد الجنون فيأتيني العقل
أطلب الفرار فتجيئني الأسوار
أقول لنفسي : انتحري
فتفر مني / كالزئبق ...

.4
لا يسع الخباء اثنين ... سأخبرها غداً عن أمي
كيف قذفتني من أحشائها مبتلاً بالدم وغضارة
الرحم والذعر : أكنت مذعوراً ! من أخبرني ؟
أمي ماتت بعد ان لفظتني ... جئت انا وغارت هي .
والخباءُ لا يسع اثنين .. فمن أعطى لهذا الغسق
لونَ الفحم من أعطاني لونَ الرمل وأغواني
بالجنون والنزوات والرغبة في طلب الشمس
وتحت الخباء تستلقي مكشوفةَ الساقين .
سأحدث نفسي طول ليلِ الوحشةِ
سأستدرجها لتحلَّ فيْ

سأستدرجها الي
أنا جسد من خشب ورمل
وتحت أضلاعي بنبض طفلٌ
طفلٌ على هيئةِ الكمثري ....
والى متى يظل هذا الجواد الغروبي صافناً وبلا
سرج :
غداً تغيّر رأيَها وتناديني : يا بني !
من قال لي / لا تأمن النساء .
الصحراء امرأتي
أهيم على جسدها طول الليل وأبادلها التهتك
والعرىَ والنومَ وفي تدفق فجورها أنسى اختيار
الطريق
وأقول للهاوية : أتسعى !

. 5
على جسدي كنتِ طوال الليل
ما ألذَّكِ أيها الغريب !
راودتني عن نفسي
فاستجبت لك
ودعوتني
الى فضائحك ونزواتك
فلم أتردد
أعطيتني الماء
فانبت لك العشب
وأزحت قلبي
فبشرتك بالرضا
وحين صرنا عاريين كرمانتين
قبلتني على سرتي
وقلت لي : أيتها البنفسجية من أين ابتدئ
فأسمعتك أغنيتي / وأعطيتني ما أريد
أنا عرافة الأبد
وصاحبة الخباء
انشر على صاريتي أشرعتك
فالريح مواتية !

.6
الماء الليلي يتسرب كالأسرار .. ماتت أمي وأنا أفتش
كالتفاحة من رحمها .. كان ذلك شتاء 1945
تساقط صقيعٌ كالجمر .. اذ كان العالم ينقلب من جنب
الى جانب كالمثخن .. وكانت العرافة تنسحب الى حافة الصحراء
وتلملم أحجارها البراقة
وتلفق الاسئلة
-من فتق أسراري : أنت أم جوادك
-أنا رجل أبحث عن أسئلتي
-أنا عرافة الأرض والجذور واللهب , فمن انت ؟
-لا سبيل الى المعرفة .. اختياراتنا صعبة !
-أنت مضحك وتعيس
فمثلك لا يغير جواباته ولا يتلاعب بيقينه
- لا يقين بين حافتين
لا يقين اتجاه الهاوية !
-أذن اختر طريقك وحدك .. لا شان لي بجنونك !
يساقط على الرمل ندى لا لون فيه
-ما كنا نشتاقه لم يعد بأيدينا
وخباء الليل كان جنوناً آخر
وليس في بريق الحصى علامة طريق
أسقطني قدري في الصحراء
وقال لي : افرد يديك كالطائر ... واتبع الشمس
فستأتيك الطرق كلُّها ..
وكان الجواد ينتظر !

---

* شاعر راحل من البصرة ، ينشر نصه هذا لأول مرة

النصف الآخر من القمر

حامد ثامر المسفر

ماذا أقول حين تفضحني أسرار الورد أو يرتفعُ ضبابُ النهرِ الخامل فأخرجُ من خلف الموج جسداً تكسوه الجراحات من كلِ جانب، لا شيء يحدثُ في النصفِ الآخرِ من الحكاية سوى أن الصمتَ الذي قد يرافقني نحو حقلِ الظنونِ حتماً سوف يتركني معرضةً لعواصفِ الصدفةِ، سوف أرحل وأتركُ لك هزائم في عينيكَ، وأكتب آخر نقوشِ المودة على الأصداف، أو أصلبُ كلماتك على مسلّة في ذاكرتي الطرية، ما كنت أعجز عن الإفصاح لك عن شعوري السامي في ذلك الوقت حين كنت أتابعُ حفيف كلماتِكَ وأنتَ تقول بصوتكَ الرصين: فَلنبدأ الدرس الأول، لكنني تركت لك شرفَ المبادرة وانتظرتك في ركني الدافئ ربما تأتي على مهل تحملُ طبقاً مملوءاً بالنجوم، أو تأتي على هيئة طيف أسطوري نبت له جناحان مرصعان بالمودة، أو تحمل قنديلا يضيء أول حلقات الشتات، هل كان من الممكن فعلاً أن تتجسد كقمرِ حزيرانَ في ليلةِ أعددت بها رسائل الشجونِ وأشعلت حولها شموعاً من رغبة أم أنك سوف تهرب بعيداً متلفتاً كلصوص الدجاج، لكنك لست لصا، أنا التي سرقت الساعات والأيام والسنين وأودعتها في كوخ من القش بنيته بداخلي في انتظار أن تجيء على غفلة تحمل بيدك باقةَ أمنيات وتقولَ بكل حُبور هذا هو المكان الذي تمنيت أن التقيكِ به.

لقد بعثت لك جميعَ رسائلي المعنونة بألفِ تجاهل، نثرت الورودَ في دربك وقلت عَلَّكَ تتعثر بأشواقي، لكنك لم تَعر لذلك أية أهمية وقلت لي بأنك آخر من يرتبط بشعورِ فتاة لم تبلغ العشرين من العمر، وأنا المعلمُ الذي تمرس على النظرات الثاقبة لطلابه، فأنا رجل لا أقفُ عند محطات ترفضُ نساءَ الريح، لديّ من الخبرة ما يجعلني أهوي واقفا أمام أبواب الرغبة، ولكن على الرغم من كل ذلك أردت أن تثبتَ بأن شعوري لم يكن على خطأ أو إنني اخترت الرجل الخطأ حين قلت لي ذات يوم أنني فتاة خرجت من وحي القمر، كان خجلي حينها يشبه مكعباتِ الثلج التي تذوب على مهل في دفء الكأس، لم أتذكر يومها متى حملتكَ بداخلي بذرةَ فرحٍ نَمت وكبرَت إلى أن أصبحت جذورها مغلفةً بالريبة.

اليوم حين جلستُ على أريكتي الرمادية، رأيتكَ من خلال النافذة تتوارى خلف الغيوم وكأنّ شيئا ما قد أحزنك، أو أنك قصدتَ ذلك حين تكلفت في اِطلاق ابتسامة مبللة على وجهكَ السارح، كان القمر الناضج يكشف كلّ أسرارِ الليل، يعطيكَ تصريحاً بالقدوم لتقف قربَ ظلي، لم اكن أطمع أكثر من اِنكَ تخفف عني لحظاتِ القلق، تُهوِّن هذا الارتباك، أردتك أن تملأ فراغي وتحنو على طفلة قد بللها المطر، تعمل على إسكات الحاذقين أمثال صديقتي المقربة التي كشفتْ صورة مغايرة في ظنوني، تلك التي تمرست على كلمات الرجال الشهية وأطوارِهم العذبة، قالت وهي تطلقُ ضحكتها الماجنة أنك تلاحقها بإصرارك العنيد، تحاولُ أن تكونَ مجنونها أو تستدرَّ عطفها ولو بكلمة، لم أُصدق ذلك وأنت الذي رميتني بنظرات لم أحس بأنها مجرد عطف، أو لمحات اخترتها من خاناتِ الشرود، قلت لها بأن عينيكَ انعكس على سوادها الكواكب، فقد كانت نظراتك كفيلة بان تجعلني اكتبُ لك آلاف الرسائلِ المزركشة بشريط من الدانتيلا وأُذيلها بغصن زيتون وحمامة، وانتظر جوابك عليها جميعاً في حقل للصدفة حيث رياحٌ لا تمحو خطواتي نحوك، لكنك لم ترد ولو بحرف، نعم كنت انتظر منك كلمات تعيدني إلى كوخ القش منتصرة على أوهامي، أو أن تكسرَ جدارَ صبري فتشعل بالدروبِ المنسية نيرانَ معركتي المجهولة، لكنك أبقيتني على أرضيةٍ متصدعة عندما أحسست اِنكَ أرفقت كل رسائلي في أدراجك الخاوية، تمنيت في هذه اللحظة أن تمسح على خدي بعد أن افرغ من البكاء، أو تعيدني من محطة لا تمرُّ بها القطارات، لكنك بقيت ساكناً خلف السحبِ الرمادية تنظر اِليَّ بشفقة.

لم أتصور يوماً إنني سوف أتهاوى سريعاً على أرضيةِ مكسوة بالرماد، أو تحت ضوء منارة للسفن المثقوبة، حين رأيتك في اليوم الساخنِ وأنت تعدو خلف صديقتي المقربة تتوسل بقاءَها فيما هي ترتمي بأحضانِ رجل آخر، وآخر، وآخر، لم تقتلني لحظات الفقدِ في تلك المساءاتِ المروعة والترانيم القاتمة إنما الذي أجهز على آخرِ الأنفاس المقيدة تلك الوَداعاتِ المتكررة التي أراها في عيونِ مَن حولي وهم يتطلعونَ بنصفِ وجهي المحروق لأصبحَ من بعدها فتاة لا ترفضُ الدهشة وتكتمُ الأشواق في صندوق قد علاه الغبار، أو كفتاة أختفى نصفُ وجهها المضيء خلف انتحارِ قمر.

حوار التلميذ والأستاذ

أو حكاية الدرويش والحلّاج لطه جزاع

د. ضياء خضير*

أما الدرويش صاحب الحكاية، فهو أستاذ الفلسفة العارف بفقراء الدراويش من أمثاله، خريج دار المعلمين العالية والإسكندرية وأكسفورد، د. كامل مصطفى الشيبي. وأما التلميذ، فهو الصحفي والباحث وأستاذ الفلسفة ورئيس قسمها السابق بكلية آداب بغداد د. طه جزّاع.

ولئن كان اسم الأستاذ قد سقط من عنوان الكتاب برسمه، وبقي فيه بصفته وحكايته كدرويش من أتباع الحلاج ومريد من مريديه ومحققي بعض كتبه والباحثين عن قبره وما بقي من آثاره، فلأن هذا المتصوف الذي تذكّر حكايةُ صلبه عام 309 هـ زمن الخليفة المقتدر بالله العباسي بصلب السيد المسيح نفسه، يحتل موقعا مركزيا ورمزيا في الكتاب، يمكن أن نطل فيه، ومن خلاله على ما جرى للتاريخ العراقي وحملة الفكر الكبار فيه من اضطهاد وظلم وعنت منذ تلك العهود البعيدة.

واستعراضُ حياة د. كامل مصطفى الشيبي طالبا واستاذا ومفكرا وكاتبا ومحققا، كما رواها التلميذ بحرفية واتقان وحميمية بالغة، لا تجعل حياة الدرويش المريد بعيدةً عن حياة ذلك القطب في إطارها العام ومغزاها الرمزي، الذي يحتل عنصرُ التضحية فيها موقعا متقدما لا يكاد يفوقه عنصرٌ آخر.

ولأن الكتاب، كما يصفه التلميذُ المؤلف، أقربُ إلى الرواية منه إلى أي نوع آخر، فقد جاز له، فيما نحسب، أن يكتفيَ بالإشارة دون الإيضاح في العبارة، على طريقة المتصوفين ولغتهم الرمزية. وهي "رواية" فيها من الغنى والتنوع في الموضوعات التي ترد على لسان الأستاذ مرة، وعلى لسان التلميذ مرة أخرى، ما يجعلها نوعا من (جامع النص) الذي لا يكاد جانب من جوانب حياة الأستاذ ومواقفه ومؤلفاته وأسفاره وأشعاره وعلاقته بتلميذه، تفلت منه.

ويمتلك المروي عنه في الكتاب د. الشيبي هو الآخر موهبةً روائية وحكائية لا تضارع، بحيث تكفي سنة واحدة يقضيها في دار المعلمين العالية في عهدها الزاهر

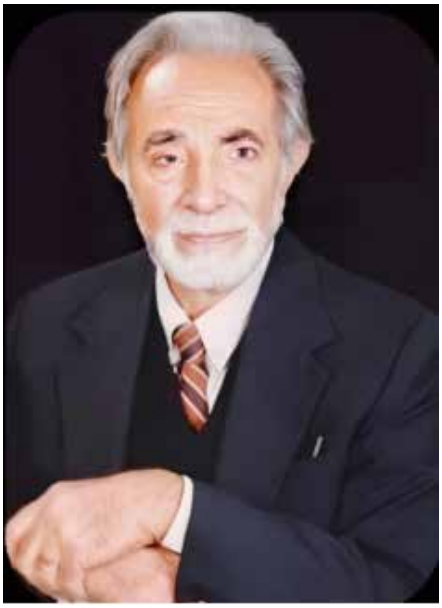

بين 1945-1946 قبل أن تتحول إلى كلية التربية ابن رشد الحالية عام 1958 لكي يروي عنها ما يشكل مصدر سعادة وابتئاس له ولكل من خبر تلك الدار، التي كانت (عالية) فعلا بكل ما فيها من أساتذة عراقيين وعرب وأجانب، ومناهج ورفاق ورفيقات درس ونشاطات ثقافية مبهرة، وقارن كلَّ ذلك بحال هذه الكلية وكلياتنا الأخرى هذه الأيام وهذه السنوات.

وتكفي هذا الراوي الاستثنائي، كذلك، ثلاثةُ أيام يقضيها عام 1990 في رحلة علمية إلى العاصمة الهندية نيودلهي للمشاركة بالذكرى السنوية لولادة الزعيم الهندي المسلم أبي الكلام آزاد، لكي يروي من المشاهدات والزيارات والمغامرات والمعارف عن الوضع الثقافي والسياسي والمذهبي القائم في الهند آنئذٍ ما قد يعجز آخرون على روايته وهم يقضون شهورا وسنواتٍ في هذا البلد الكبير.

ومنذ لحظة اللقاء الأولى بين التلميذ، الذي دخل قسم الفلسفة بكلية الآداب بداية السبعينات من القرن الماضي أول مرة مكرها لا بطلا، ولقائه بالأستاذ في تلك الظروف المليئة بالشك وعدم اليقين، حتى اللحظة التي يصل التلميذُ فيها نبأ وفاة الأستاذ ومشاركته في جنازته ببغداد، نقرأ في هذا السفر الذي انطوى عليه الكتاب - الرواية، ومنذ أول حكاية فيه هذه الألوانَ من السيرة الذاتية والغيرية، من تلمذة وذكريات، وعشق يبدأ ولا ينتهي للحلاج والبحث عن قبره بمنصورية بغداد، كما بحث عنه قبل ذلك عاشقٌ آخر هو الفرنسي لويس ماسنيون مطلعَ القرن الماضي، إلى منهج الصوفية وأخلاقهم كما استقرت في فكر الأستاذ وحياته الأكاديمية، وظهرت في مقالات صحفية هي أقربُ إلى الأبحاث الصغيرة منها الى المقالات التقليدية، وجعلت منه مصدرا ثقة لكل مدونات الصوفية الدراويش وحيواتهم الداخلية التي تختلط فيها الوقائع بالأوهام والشك باليقين. وهو ما يحمل التلميذ على سؤال أستاذه في لقاء صحفي متخيل عن حقيقة الأمر وجليته في صلب الحلاج والسهروردي المقتول، والقطب الروحاني عبد القادر الكيلاني، وما ينسب إليه من قبل بعض أتباعه ومريديه من كرامات وخوارق حقيقية وزائفة؛ وغير ذلك من أمور تتعلق بآخر البهاليل البغداديين، الواقعين موقعا وسطا بين العقلاء والمجانين، وما يتصل بالكتابة والصحافة والفلسفة واللغة والشعر والدرس الفلسفي المعاصر في العراق. وغير ذلك مما يؤلف في مجموع الإجابات التي يقدمها الأستاذ عنها، ويستند فيها التلميذُ إلى وقائع

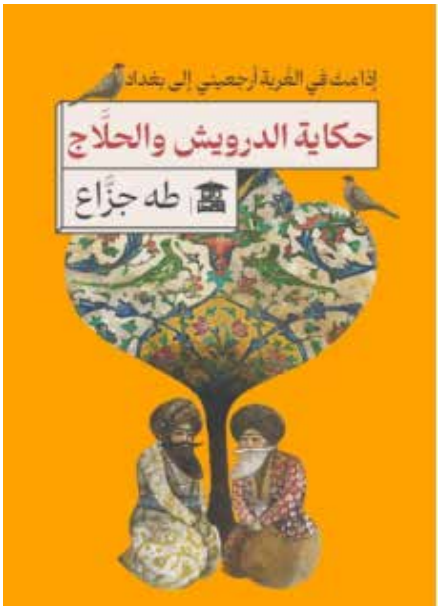

ومدونات وأحاديث موثقة، ما يشبه السيرةَ الفكرية والأكاديمية التي تتمُّ الإجابة فيها على تساؤلات عملية معلقة لدى التلميذ، كما هي لدى كثير من شداة العلم وطلابه في الفلسفة وعالم التصوف السرّي، وغير القابل للدخول في حرمه وحرمته الداخلية المقدسة لغير المصرّح لهم من العارفين والعرفاء المعاصرين، أمثال المرحوم الشيبي.

فهو يعرفهم معرفة مدققة كما لو كان عائشا بينهم، أفردا، وأنسابا، وأسبابًا، ونزعاتٍ فكرية وروحية موصولةً بالزمان والمكان والمنابع الثقافية المؤثرة والمتأثرة.

وما يقوله الدكتور الشيبي إجابةً على السؤال الخاص بشخصية الشيخ الجيلاني ذي المكانة الخاصة لدى الجزائريين واشمال العربي الأفريقي بشكل عام، في كلمته التي جاءت بمؤتمر عقد بقرية بوحنيفية بولاية معسكر الجزائرية عام 1987، على سبيل المثال، يمكن أن يعطينا فكرة عن الطريقة التي يعالج بها هذا الرجل موضوعاته الخاصة بهؤلاء الرجال من الناحية المنهجية:

"إن البحث في تفصيلات الشؤون المتصلة بهذه الشخصية الراسخة في قلوب الناس، من ذوي التوجّه الديني في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، منذ أواسط القرن السادس الهجري، وإلى ما شاء الله، من أكثر الموضوعات أهمية وأدعاها إلى مجهود الباحثين في التصوف الإسلامي والنزعات الروحية على العموم لقلة ما يعرف عن هذه الشخصية من تفصيلات واقعية، وضرورة نفض الغبار عنها وجلاء صورتها ليكون دورها المتجدد في مجتمعنا المعاصر الذي يطلب فيه الناس على كل قول برهانا، وعلى كل رأي مرجعًا موثوقا به. وبهذا يستمر الدورُ الإصلاحي لمثل هذه الشخصيات التي كان لها أثرٌ بالغٌ في الماضي"

ومعرفة الدكتور الشيبي الموسوعية بهذا العالم المضمر من الثقافة العراقية في العصور المتأخرة على نحو خاص، لا تغطّي على معرفته بأقطاب الثقافة العراقية ورموزها الأخرى السابقة والمعاصرة في الأدب والفلسفة والدين والشعر الفصيح والشعبي والدوبيت والغناء. وهو، بحسه الوطني الغالب، يدعو إلى إقامة تماثيل تليق بمقاماتهم وقاماتهم الأدبية والشعرية والفنية والفكرية المتميّزة.

وقارئُ كتاب الدكتور طه لا بدَّ أن يشعر برغبة مماثلة بأن الدكتور الشيبي يستحق هو الآخر مثل هذا التكريم المستحق بإقامة تمثال يليق به في قسم الفلسفة، وحتى بقسم اللغة العربية التي تميز فيها أدبًا رائقا، ونحوا، ولغة ومعرفة بالشعر ونظمه على

نحو لا يتوفر لكثيرين غيره من أساتذة الفلسفة واللغة. والدكتور الشيبي لا يفرق في هذا التكريم بين عالم اللغة مصطفى جواد وتمثاله الفقير في مدينة الخالص، وبين الشاعر الشعبي الملا عبود الكرخي، وقارئ المقامات محمد القبنجي. وألبوم الصور والتخطيطات الموجودة في نهاية الكتاب، والتي تستوحي حياة الحلاج وعذاباته، وتنتهي بصورة الدكتور الشيبي الشخصية، وصورة المؤلف وهو يقف إلى جانب قبر الحلاج، يأتي مكملا لما يحويه هذا السِفر على صغر حجمه من صورة بنورامية للشيخ الشيبي وعالمه الفكري وسيرته الثقافية والأكاديمية العطرة التي تلقي ضوءا كاشفا على مجمل العالم الأكاديمي والتربوي في الجامعات العراقية، وما يتصل منها بقسم الفلسفة، بشكل خاص في مرحلة دقيقة من عمر الجامعة العراقية. ووصيةَ المرحوم الشيبي لزوجته السيدة سماحة نفطجي، الموضوعة في صدر الكتاب

" إذا متُّ في الغربة ارجعيني إلى بغداد"

تكفي بذاتها للدلالة على ما يختزنه هذا البغدادي الأصيل من حب وإخلاص لوطنه على الرغم مما لقي في هذا الوطن من جحود كان السمة الغالبة على تعامل السلطات العراقية في كل العهود مع العلماء النجباء من أمثاله. وهو ما يلخصه البيتُ الذي يستشهد به د. الشيبي:

وتعجبني الأرض التي لا هواؤها
ولاماؤها عذبٌ، ولكنها وطنْ

---

*باحث وناقد أكاديمي عراقي يقيم حالياً في كندا

الأديب الأوزبكي التقدمي عبد اللّه قادري

ورواياته المضادة للعنف والاستبداد

أحمد الزبيدي

عبد الله قادري، الذي ولد ونشأ في أرض اوزبكستان، لم يكن مجرد كاتب، بل كان رائداً في عالم الأدب الذي أثرى التراث الأوزبكي بأعماله الفريدة والمميزة. امتازت كتاباته بالعمق والتنوع، حيث امتزجت بين الروح الشرقية والتأثيرات الغربية، مما أكسبها طابعاً ثقافياً متفرداً.

ويعد عبد الله قادري الشاعر والأديب والمؤلف المسرحي الأوزبكي المشهور على نطاق واسع في وطنه اوزبكستان وبلدان الاتحاد السوفييتي السابق والشرق، مؤسس الرواية في الأدب الأوزبكي الحديث.

ولد الكاتب الحداثوي عبد الله قادري (جولوكباي)[1] بمدينة طشقند في العام 1894 في أسرة فلاحية ثرية. ودرس فيها العلوم الدينية في مدرسة (ابو القاسم). عاش سنوات صباه بين التجار والفلاحين الفقراء والأغنياء، وكذا الحرفيين وعامة الشعب، واهتم منذ صباه، بالفلاحين المعدمين الذين جاءوا إلى طشقند تحت وطأة الفقر بحثاً عن مصدر للقمة العيش. دخل معترك الحياة الاجتماعية والسياسية في عشرينيات القرن الماضي وبدأ في العام 1924 نشر مقالات سياسية ناقدة نشرها في جريدة ''تركستان'' ومجلة ''موشتوم'' وقد سببت له هذه المقالات انظار الطبقة الحاكمة اليه، وتعرض بسبب نشاطه في الحياة الاجتماعية ونشاطه الاعلامي للسجن مرات عديدة واخر مرة القي القبض عليه وسجن في العام 1937 حيث اتهم بتهمة (عدو الشعب) وعدو للسوفيت وحكم عليه بالاعدام في العام 1938.

ولعب اهتمامه بعامة الناس، واحتكاكه في مدينة طشقند بالمثقفين دوراً هاماً في تشكيل وعيه ونمو آفاق ابداعه ومستقبله كأديب أوزبكستاني.

تعد أعماله مرآة تعكس جماليات الحياة وتحمل في طياتها قضايا اجتماعية وفلسفية تتناول قضايا الإنسان والوجود. تميزت رواياته بالسرد الشيق والأسلوب الأدبي الرفيع، مما جعله يحظى بإعجاب القراء والنقاد على حد سواء.

لم يتعرف الكاتب على حياة الشعب عن طريق السماع أو الاطلاع على الكتب التاريخية، بل تشبع بخصائصه وعاداته العريقة عن طريق التعامل المباشر مع الناس الذين احاطوا به.

التحق عبد الله قادري بالدراسة في المدرسة الروسية المحلية. الا انه انكب خلال دراسته على قراءة مؤلفات: علي شير نوائي، ولطفي، ومقيمي، وفرقد، وتشولبان، وفطرت، وغيرهم من كلاسيكيي الأدب الأوزبكي.

اللافت ان أصالة وابداع هذا الأديب على أعتاب القرنين التاسع عشر، والعشرين، والتي كانت مرحلة تحولات اجتماعية جذرية في المجتمع الذي عاش فيه. وهو ما أثر على وجهة نظره الأدبية وزادها تعقيداً وتناقضاً، اذ كانت تلك الحقبة مرحلة غير مستقرة عانت من التصدعات والارهاصات الاجتماعية، والسياسية، والأخلاقية. حيث تركت بصماتها على مؤلفاته وآرائه، التي كانت بحد ذاتها متناقضة، ولم تخلو من الأفكار الاجتماعية والحياتية المنحازة لوطنه وشعبه.

وامتاز المنحى الذي اختاره الكاتب في بحثه الأدبي بالشموخ الدائم، والمؤلفات الإبداعية المتميزة. ووثبت فترة قمة عطائه الأدبي لمنح إجابات على أسئلة تاريخية تشكلت في الحياة الاجتماعية الأوزبكية، حيث عكست وبشكل واسع واقع الحياة المعاصرة أو ما اصطلح على تسميته آنذاك بـ"الوقت الميت" في واقع التاريخ المعاش في تلك الحقبة.

ومن درر إبداعات الكاتب روايات تاريخية، منها: "أيام زمان" كتبها في العام 1926؛ و"في المحراب عقرب " كتبها في العام عام 1929؛ وكانت من المؤلفات الأولى التي تناولت مواضيع تاريخية في الأدب الأوزبكي الحديث وقد ترجمها الى اللغة العربية الصديق سيد محمود سيد كاساني وقمت بتحريرها. ورواية "الأيام الماضية"؛ وقد تناولت الرواية الواقع الاوزبكي في تلك الحقبة بالكامل، والصراعات الاجتماعية والأخلاقية الصعبة آنذاك.

حيث اولى الاهتمام في مؤلفاته، النواحي الجمالية للتقاليد والعادات الشعبية، والعبادات المذهبية الدينية، واستعرض القوانين غير المعلنة، سارية المفعول في اروقة قصور حاكم طشقند عزيز بيك آنذاك، حيث كانت تنتهك حقوق وكرامة الناس. اذ وصف مكر وخداع وقسوة "القاضي" مع "الجانحين" ان أمثال: عزيز بيك المخادع الكاذب المنافق بحذاقة الذي حكم طشقند لمدة ثلاث سنوات، وبسببه هوت طشقند خلال تلك الفترة بالانحدار، وأصاب الحرفيين الإفلاس، وأدى إلى انخفاض زراعة الرز، والقطن، بشكل مشهود وواضح.

وعكست رواياته الفقر الروحي والخبث لدى أصحاب السلطة، وانشغال قادة السلطة عن الاهتمام بالرعية، وانغماسهم باللهو والفجور واهمالهم القضايا الاجتماعية الانية الملحة، وعجزهم عن إيجاد طرق عملية لحلها. وبهذا المضمون وهذا الإطار كانت رواية "الأيام الماضية" قمة السمو في إبداعات عبد الله قادري، ومرحلة مائزة من مراحل تطور فن النثر في الأدب الأوزبكي الحديث.

وقام بمهارة فنية عالية، وبصدق، بوصف تناقضات واقع عالم الإقطاعيين. وأبرز الشعب كصانع للقيم المادية والثقافية من جانب، ومن جانب آخر، كحامي ومدافع عن الدولة، وحاول في كتاباته تقويض أسس حكم الخانات، ودعي للتمرد على مضطهدي الشعب. وبالضبط ضد الحكام الذين فرضوا على الشعب ضرائب كبيرة وباهظة.

وتمثل الصراع الرئيسي في الرواية، كصراع اجتماعي وأخلاقي ضد التناقضات الجارية بين الأب والإبن، عطابيك الفتي، وهو إنسان يتمتع بنظرة تقدمية نحو "البناء الأسري"، ويكافح ضد التقاليد، وخاصة عندما قام الوالدين بتزويج ابنهم من فتاة لا يحبها، ووالده يوسف بيك حجي، الذي كان

حامياً للتقاليد، والنظام الأبوي، والعادات الأسرية القديمة. وبمهارة وصف عبد الله قادري هذا الصراع الدائر ضمن الأسرة، ليس كصدفة، بل كظاهرة قومية عامة.

وصور صراع عطا بيك والفتاة التي أحبها كوميوش، كظاهرة جديدة لم يعتد عليها الأدب الأوزبكي. أتابيك منحدر من أسرة غنية، وهو إنسان متعلم، ويفهم الحياة بطريقة مغايرة لمفهوم الجيل الذي سبقه، ويملك أحاسيس قوية بالعدالة. ومن خلالها يفضل محبوبته كوميوش، التي تتمتع بتربية جيدة، ومتعلمة، وذكية، وتملك جمالاً طبيعياً، وحسن التعامل. واحبت أتابيك بصدق. ولكن هذا الحب حرمها من السعادة، لتبقى أسيرة للتقاليد القديمة، التي لا يحترم الأهل فيها مشاعر ابنتهم.

وطبعاً كانت كوميوش مدينة بصفاتها الروحية، والجمالية، وغنى عالمها الخاص لأمها، أفتوب أيم، التي جسدت في شخصيتها الأحلام الطيبة للمرأة الأوزبكية الأصيلة. وكوميوش الذكية، والهادئة، والمحافظة، والتي تحب أمها، تحب بصدق إنسان أبعدته عنها ربة البيت. لتبقى أفتوب أيم أسيرة العادات القديمة، وتقوم وبصدق بتحقيق رغبات زوجها، وتطيع آراءه وتحافظ عليها. واما اهتماماته بالمواضيع التاريخية أوضحها عبد الله قادري، من خلال مساعيه الفكرية والفنية في تصوير ماضي شعبه، وإظهاره لصبره، وحبه للعمل، وكفاحه البطولي من أجل الحرية والاستقلال، وفي النظرة العميقة بالقضايا المعاصرة للشعب الذي ينتمي إليه.

ومن خصائص روايته "في المحراب عقرب"، التي نشرت باللغة الروسية عام 1961، أن عبد الله قادري استطاع عرض صور الحياة، وتاريخ الشعب الأوزبكي بنجاح، وأدخلها بمهارة وسطوع في روايته، وأعطاها الألوان المميزة لتلك المرحلة، وكشف طبيعة أبطاله كما كانوا في الظروف التاريخية الحقيقية بأربعينات القرن التاسع عشر.

حاولت قدر المستطاع سرد ظواهر الحياة الاجتماعية في تركستان، ودور الأسرة ودور المدرسة "الكتاتيب"، ودور رجال السلطة الغارقين في شهوات النفس ورغباتها، وتباين ظواهرهم مع بواطنهم، خاصة حال حاشية خدايار خان، وأخلاقهم الظاهرة والباطنة، وإن كان هؤلاء يمثلون الجانب المظلم والموحش في الرواية، فإن هناك في الطرف المقابل وجه آخر مشرق يتمثل في كفاح البسطاء والفقراء من الناس، ووقوفهم ضد الخان وحكمه، وضد المنتفعين في بلاطه، كما نسلط في الوقت نفسه الضوء على خصال وسجايا وأخلاق تلك الطبقة، وكذلك علاقاتهم ببعض.

كما حاولت سرد وقائع تلك الطبقة؛ ليبقى كفاحهم المشروع ضد البغي والظلم، صورة مشعة في ذهن التاريخ الأوزبكي، كما أن الرواية لم تكتف بذكر النزاعات وحسب، بل احتوت على ذكر جوانب أخرى من تلك الحقبة، مثل نظام الحريم، ونساء الخان، وبيت الأربعين فتاة، وكذلك سلطت الضوء على بعض الجوانب التاريخية والعرقية، والحياة الثقافية لدى الأوزبك، خصوصًا الجانب الفكاهي، وفن السخرية والنقد، وكذلك براعة المرأة في الشعر والقصائد، وجوانب أخرى لا يتسع المجال لذكرها الآن، بل تترك للقارئ ليطلع عليها عن طريق فصول الرواية[2].

ومن ضمن هذا الابتكار نظر النقاد إلى عبد الله قادري كأول رائد للرواية التاريخية الأوزبكية. وأغنى في روايته "في المحراب عقرب" إلى حد كبير تقاليد الاتجاهات الواقعية، وأدخل إسهامات ملحوظة في أشكال التحليل السيكولوجي لأبطال الرواية، وفتح طريقاً جديدة لتصوير العالم الداخلي للإنسان، مظهراً التطور الدائم لطبيعة أبطال رواياته.

اجاد عبد الله قادري في روايته "في المحراب عقرب "، وبصدق عن الحياة الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع التركستاني خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين.

ووضع الموهوب صوراً متعددة الجوانب للحياة التاريخية الواقعية في تركستان، عكس عن طريقها وبسطوع الأحداث التي جرت، وطبيعة الأبطال، المشاركين في تلك الأحداث التاريخية الحقيقية. وأكد على الحرية الشخصية للإنسان، وحرية أهدافه الحكيمة، وحب الشباب النقي.

وسلط الضوء للكشف عن تميز وجوهر تركيبة الحياة الإقطاعية لدى الشعب، مظهراً طبيعة الحكام عملياً، وطبيعة ملهميهم الروحانيين، ولم يخفي، بل حتى انه وضح التناقضات بين القوانين الإقطاعية الراسخة المكتوبة وغير المعلنة، وهي "قوانين" العادات والتقاليد الشعبية. حيث تشكلت تلك التناقضات غير المعلنة، عبر النهايات المؤلمة التي واجهها أبطاله في حياتهم. وأنور، ورانو، كانا الصورة الدرامية التي عكست رغبات عبد الرحمن المتمثلة بإخضاع الفتاة لإرادته، وعلى الرغم من تآمر شهيد بيك، فقد مجد المؤلف حبهم الصادق لبعضهم البعض، واستعدادهما لتكوين أسرتهم الخاصة بهم.

وصور سعي رانو، نحو كل شيء جميل، ونقي، ونبيل، وصورها في الرواية كفتاة رائعة، تتمتع بخصائص بسيطة نابعة من الطبيعة الشعبية الأوزبكية، وتتميز بالصدق، ونقاء الأفكار، والبساطة الانسيابية، والانفتاح. واحبت أنور حباً نقياً ساطعاً، وبصدق وإخلاص. وكان أنور يجسد بالنسبة لها الرجولة، واحاسيس العدالة والإخلاص بلا حدود.

وهكذ رأت رانو، حبيبها، كما هو بالفعل. جريء، وذكي، ويحسن النضال للفوز بحبيبته، و تتلوع روحه من دونها. وهو وبكل بساطة لا يتصور حياته دون محبوبته رانو. وبفضل ذكائه، وحذاقته، وموهبته، وخفة ظله، وهو الذي نشأ يتيماً محباً للعمل، أصبح شخصية هامة في مجتمع قصر الخان، الذي أعطاه منصب ميرزا (أي أمين السر)، ليتمتع بشخصية متميزة بين نبلاء القصر.

ولكن ما ميز أنور، عن الكثيرين من المحيطين به بالفعل، هو أنه لم يفقد صلته الروحية مع الشعب الذي ينتمي إليه، وحافظ على حسن علاقاته الإنسانية، ووقف ضد العنف والاستبداد، وبقي إنساناً صادقاً، ومخلصاً. ولهذا كان أنور يعاني من صعوبات كبيرة في خدمة الخان الحاكم، الذي يتجاهل كل القوانين، ويعترف برغباته فقط وأحياناً "دون الرجوع حتى لضميره".

انه مؤلف الرواية الضخمة "مجرفة عابد"، وكاتب المقالات الأدبية التي أثارت ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية، مثل: "ماللابوي آكا من قيروان"، والكثير غيرها من المقالات الأدبية والقصص، التي قدم من خلالها إسهامات ملحوظة في تاريخ الأدب

الأوزبكي. دفعت عزت سلطانوف للكتابة عن أن "عبد الله قادري، دخل الأدب الأوزبكي مثل الرعد والبرق، وكضوء البرق الساطع، وجذب لنفسه اهتمام الجميع".

ومثل هذه الشهادة العادلة جاءت أيضاً في كلمات الكاتب القازاخي مختار أويزوف الذي أشار خاصة إلى: "نحن قرأنا في أيام شبابنا روايات عبد الله قادري. وأذهلتنا مهارته في نحت الطبيعة الإنسانية، ونقله عاصفة من المشاعر الإنسانية إلينا... وكلها كانت تسمو بحب أبطالها".

ولهذا حصلت مؤلفات عبد الله قادري الكثيرة، على اعتراف الكثير من الدول الشرقية، ودول رابطة الدول المستقلة، كمؤسس لفن الرواية في الأدب الأوزبكي الحديث.

ووفقا لدراسة قام بها الباحث الدكتور حسين تكايف من جامعة داغستان " حاول عبد الله قادري تقليد جرجي زيدان ونجح بهذا المضمار في كتابة رواياته وهو يعد جرجي زيدان معلمه"[3].

ومن مؤلفاته: - "الأيام الماضية"؛ - "في المحراب عقرب"؛ - "مجرفة عابد"؛ - "ماللابوي آكا من قيروان"؛ - "الزنديق"؛ - "العريس البائس"؛ - "لأمتي"؛ - "حفل الأرواح الشريرة".

اللافت أن دراسة مؤلفات عبد الله قادري وأمثاله لم تزل حتى اليوم هامة وتوفر الفرصة للباحثين في تشخيص الصعوبات التي عانى ويعاني منها الأدباء والمفكرين بإبداعاتهم خلال المنعطفات الرئيسية التي تجري في حياة المجتمعات التي ينتمون إليها.

الهوامش

(1) الاسم المستعار الذي كان يستخدمه الكاتب عبد الله قادري.

(2) من مقدمة الكاتب في رواية "في المحراب عقرب" ترجمة سيد محمود مبشر كاساني.

(3) كتاب الرواية التاريخية المصرية للدكتور حسين تكايف ص 13.

محمد مسير: رسوم بلا قيود

خالد خضير الصالحي*

لقد بقي الرسم، في مرحلة ما بعد التغيير، يترستام خطى رسامي الثمانينات، في محافظته على توازن سري بين أساليب الرسم المختلفة؛ فظهرت تنوعات كبيرة تعكس الحالة الحقيقية للرسم العراقي الحديث في هذه الحقبة، حينما تم الإجهاز على (الأسلوب) الجمعي لصالح تفرد اسلوبي لكل رسام، وهو ما انتجه انفتاح الرسم العراقي على التجارب في كل انحاء العالم بسبب الهجرات الكثيفة للرسامين العراقيين إلى خارج العراق بعد التغييرات التي حدثت عام 2003، وبسبب الاطلاع الذي تسد جزءا منه وسائل الاتصال الحديثة اليوم، وهو ما جعل الفن التشكيلي العراقي يتطور بالشكل الذي تقوده إليه محركاته الداخلية (الداخل مادية).

لقد ظهرت بعد 2003 تجارب فنية (هل نسميها تجارب جيل ما بعد التغيير؟) لم تعول كثيرا على التدوينات النظرية، وبذلك لم يعد احد يعول على العناصر الـ(خارج مادية)، وبذلك ستجد الأساليب المتناقضة فرصة التعايش جنبا الى جنب، ليس فقط جنب الأساليب مع بعضها، بل وداخل المنجز الواحد، عن طريق المحافظة على توازن مقبول للعناصر البصرية بين التجريدية والتعبيرية؛ ومن هذه التجارب تجربة الرسام محمد مسير الذي كان منجزه يتأرجح بحركة بندولية بين التعبيرية حينا، وبين التجريد حينا اخر، فقد تصالحت عناصر تجربته مع بعضها، وتعايشت بحرّيّة كاملة.

"رغم اللمسات التجريدية (=السحنة)، فأن الرسام محمد مسير يعدّ رساماً تعبيرياً على درجة عالية من الاحساس بالخامة بنمطيها اللذين يستخدمهما في الرسم: (المادة واللون)، المادة، نعني بها المستحثات التي يضعها قبل الشروع بوضع اللون، والمستحثات مواد صلبة، قاسية، ناتئة، لايمكن للالوان ان تزيل أو تغير وجودها الفاعل في بناء اللوحة، وبذلك تكون هي العنصر الفاعل في بناء اللوحة، وبذلك تكون ايضا هي ما اسماه بيكاسو (علامة الواقع التي لايمكن محوها)، وان نمطاً كهذا من الاشارات يضعها الرسام بوصفها مرتكزات طوبولوجية، يبني عليها كلّ ما يعقبها من اشارات وتقنيات...

يظل الموضوع، وغالباً ما يكون العنوان بوابته الرئيسة والأهم، (يظل بمثابة (النظام التكويني) المسبق في ذهن الفنان، قبل ان يستحيل الى (بناء)...) كما يقرر شاكر حسن آل سعيد، أي الى خامة على السطح، وبذلك يكون الموضوع هيكلاً بنائياً للعمل الفني الذي يرتبط وجوده ارتباطاً، لا مناص منه بالتجسّد اللاحق عبر شيئية اللوحة، وعبر الخامة تحديداً، بوصف اللوحة كونها ليست سوى ذلك السطح الذي تكسوه الخامة. إن لهذا التوجّه مخاطره الجمة كونه يحدّد لدى المتلقي سلفاً، أي قبل معاينة اللوحة، منطلق عملية التلقّي، وبذلك يكون الموضوع - وهو خطاب درجنا على تسميته (خارج جماليّ) - مدخلنا الذي (وضعه) لنا الرسام سلفاً، وقبلنا مقترحاته (عناوينه) لدراسة البنية والشكل، وهي توصي بتفاصيل عن الموضوع قبل رؤيته، فتكون للوحة مرجعية تاريخية سابقة هي العنوان، والموضوع، اللذان سيهيمنان على تصّورنا، بطريقة قسريّة مسبقة، بوصفه (النظام التكويني) للتجربة، أو نظامها اللغويّ، كما يسميه آل سعيد أحياناً".

كان محمد مسير من الرسامين الأوائل الذين تناولوا احداث ما بعد احتلال بغداد، واكتشافات المقابر الجماعية التي فاجأت الجميع والتي لم يكن ممكنا حصر اعداد ضحاياها، واعداد ضحاياها، فرسم لوحته الشهيرة □المقابر الجماعية□ التي شارك بها في معرض مشترك أولاً، ومن ثمَّ معرضه

الشخصي الأول المخصص لموضوع المقابر الجماعية، ثانياً، فاهلته لمسته هذه ليكون نموذجا لرسامي ما بعد التغيير، وكان هذا واضحاً في معرضه الثاني، والاشتغالات التي قدمها مؤخراً عبر استعادته لطفولته وقيم واجواء الطفولة بشكل عام.

لقد حرص محمد مسير على ان تنطوي لوحته على العناصر التي تحافظ هي الأخرى على توازن مماثل لذلك الذي في منجزه ككل، وكأنما اللوحة هي الكائن الذي يستعيد مراحل تطور النوع في نظرية النشوء والارتقاء، فلم يكن غريبا على الرسام مسير إقامة معرض ينتمي إلى أقصى درجات التعبيرية، ثم يقيم معرضا لا تجد فيه أثرا لمشخّص، فيجمع في ان معا، كل التنوع الأسلوبي في اعماله المنفردة التي تنطوي على العناصر كلها بترتيب يُزحزح، كل مرة بدرجة طفيفة، وان أيا من هذه الأعمال تتشكل من ثلاثة عناصر رئيسة: مسحات من اللون الصافي على مساحة واسعة من اللوحة لا تحتوي أي عنصر آخر، ثم مجموعة من الأشكال الملونة بأشكال تقرب من أشكال المربعات المرصوفة جنب بعضها تتغلغل فيها مجموعة من الخطوط (الشخبطة) واهم هذه الخطوط الشكل المثلث، بينما يمتد العنصر الوحيد الذي يبدو مستمدا من اشكال الواقع ومشخصاته، وهو يقطع اللوحة باتجاه شاقولي، وبلون غامق مقارنة بالألوان الأخرى للوحة، ويبدو هذا المشخص شبيها بكف أو بيد ترتدي كفا من المطاط، واحيانا بدائرة تأخذ مساحة

شاسعة من مساحة اللوحة.

يمكن عدّ تجربة محمد مسير انموذجا مهما لتعايش الأساليب ذات الطابع الفردي بحرية في سوق حرة دون مسبقات واشتراطات قبلية، فهو يعد التحولات في منجزه حالة مطلوبة لتأسيس تجربة متواصلة ومنفصلة بقدر كاف مع تاريخ الفن التشكيل العراقي، ومع التطلع الى امتلاك القدرة على المساهمة في فن عالمي حداثي تشترك كل شعوب الأرض به، فكانت له محاولات مستمرة في التجريب وابتكار مفردات جديدة، ومواد جديدة، وتقنيات جديدة، ومواصلة البحث الفردي ليطأ ارضا جمالية جديدة، وهو ما نجح به الى حد كبير، انه يمتثل بثبات لما اسميته (قانون جاكوب كورغ) الذي يشدد بأن الابداع ليس الا هيمنة المبدع على المادة التي يشتغل عليها، وهذا ينطبق على كل الفنون سواء كانت ابداعا تشكيليا، او لغويا، فكان باحثا دائما عن الجديد سواء عبر تركيب عناصر جديدة لانتاج لوحة مختلفة مستلة مما كان يسميه شاكر حسن ال سعيد (المتحف البصري) الذي يشكل الخزين البصري والثقافي للرسام، او من عناصر مستلة من قراءاته واطلاعه على الفن العالمي، ومن سفراته العديدة، ومما يصادفه خلال حياته ويجده صالحا ليكون فنا؛ بدءا من ”الشعور بحرارة المحيط ولون الرصيف وأضواء الشوارع والحدث الاجتماعي والسياسي، وما يلقي بظلاله على حياتنا اليومية“، فيختزنه كطاقة كامنة، ومحرك لأفكاره وتوجهاته، وبحثه الجمالي، وانتهاء باستجاباته تجاه ما يواجهه بلده من أحداث وكوارث متلاحقة.

كثيرا ما اعاب محمد مسير التماثل بالتجارب التشكيلية معداً إياها من العاهات الكبيرة في الفن التشكيلي العراقي، ويرجعها الى مشاكل التطور التكنولوجي التي ألقت بظلالها

على التشكيل العراقي أيضاً، ويعيب كذلك التناصات (الحرفية) مع تجارب عالمية تصل أحيانا الى درجة النقل الحرفي للتجربة، "فهناك الكثير من التجارب الفنية المهمة لفنانين تشكيليين عراقيين، قد تكون متناصة بدرجة ما مع أعمال أخرى بمفاهيمها ورؤاها ومفرداتها". لقد عايش محمد مسير ذكريات الحروب، وسنوات الحصار بضغوطها المعيشية الهائلة، وما اعقبها من أحداث دموية تركت في ذات الفنان العراقي شرخاً عميقاً، ومخزونا من الفزع والالم؛ وهو ما تحول، في معرضه الأول عام 2004 عن (المقابر الجماعية)، الي تجربة يشم منها المتلقي رائحة الموت والدم والخراب عبر اللون الطري الذي كان يضعه محمد مسير بكثافة لافتة، وعبر مقترحاته الجمالية التي تقف خلفها ثقافة الفنان ومتحفه البصري.

كانت لمحمد مسير نشاطات فنية تهدف الى ان ينزل الفن الى الشارع، فانجز مرة تجربة فنية لتغيير لون الشوارع والأرصفة الخانقة، وكانت هي عبارة عن معارض في الشوارع، وقد أطلق على هذه التجربة اسم الفن البيئي، وهو من فنون شوارع المدن، و كان الهدف الاخر من هذه التجربة إلغاء لون الحواجز الكونكريتية الخانقة في معظم شوارع بغداد، تلك الحواجز التي ألغت ذاكرتنا عن معالم المدن التي عشناها سنوات طويلة، فكانت تجربة جميلة، ولكن النقل المستمر للحواجز الكونكريتية افسد التجربة فلم يتبق منها شيء.

---

* ناقد وفنان تشكيلي عراقي يقيم حالياً في باريس

الحمامة

مسرحية ذات فصل واحد
عن رواية (الحمامة) لباتريك زوسكيند

سحر الشامي

الشخصيات:

جوناثان: حارس أمني (59 سنة)
الرجل ذو القبعة: شخصية تمثل دواخل جوناثان
مدام لاسال: صاحبة العمارة.
مدام روكار: عاملة التنظيف في العمارة.
مدام توبيل: خياطة في متجر
السيد فيلمان: نائب مدير البنك
السيدة روك: كبيرة المحاسبين

المشهد الأول

المنظر: غرفة جوناثان مفروشة بسجادة وتحتوي على سرير حديدي وخزانة ملابس. فوق رأس السرير تصطف مجموعة من الكتب، وعلى أحد جوانب السرير طاولة عليها تلفاز ومذياع، وفي الجانب الآخر براد صغير لحفظ الطعام.
أحد أركان الغرفة مخصص للغسيل والطبخ
جوناثان: (يمسك بقطعة قماش ويقوم بتنظيف أثاث الغرفة. ينهي عمله ويتأهب للخروج. يصيخ السمع من خلف الباب. يفتح جزءاً من الباب بحذر شديد ويسمع وقع اقدام. يغلق الباب ثم يسمع طرقا خفيفا عليه)
جوناثان: (متوجسا) من؟
صوت: أنا، مدام لاسال
جوناثان: (يتردد قليلا ثم يفتح الباب)
مدام لاسال: (تدخل بمنتهى الأناقة وتدخن سيجارا) كيف حالك سيد جوناثان؟
جوناثان: بخير سيدتي.
مدام لاسال: (ترمي رماد السيجار في إناء صغير على الطاولة)
جوناثان: (يغسل الإناء حالا وهو يشمه بعد كل غسلة)
مدام لاسال: (تراقبه عن كثب وتبتسم بسخرية)
جوناثان: (يأتي بنفاضة سجائر)
مدام لاسال: مررت كي أجمع إيجارات

الشهر.
جوناثان: (يحاول السيطرة على نفسه) مدام لاسال، هل نسيت أني وقعت معك عقدا لشراء الشقة بقيمة خمسة وخمسين ألف فرنك، دفعت منها سبعة وأربعين ألفا والثمانية المتبقية تم الاتفاق على تسديدها نهاية العام؟
مدام لاسال: (محرجة) آه، نسيت، أنا آسفة
مدام لاسال: (تسترق النظر لكل جزيئة في الغرفة) يا لها من غرفة نظيفة لم أر مثلها قط!
جوناثان: شكرا مدام لاسال
مدام لاسال: هل تعلم ماذا يقول عنك سكان العمارة يا سيد جوناثان؟
جوناثان: ماذا يقولون، سيدتي؟
مدام لاسال: يقولون أنك شخص تحب العزلة أكثر مما ينبغي
جوناثان: (يحرك جذعه يمينا وشمالا) مم..
مدام لاسال: وإنهم في الوقت الذي كانوا فيه يستحمون بالماء البارد في حوض العمارة الوحيد ويغسلون ثيابهم وأوعيتهم فيه، وهم ناقمون على الظرف السيء الذي أجبرهم على العيش بتلك الصورة كنت أنت الوحيد الذي لم يعان من أي ضيق ولم تتفوه بكلمة تذمر أبدا
مدام لاسال: ويقولون إنك لا تتبادل مع أي منهم كلمة واحدة عدا التحية
جوناثان: (يتلوى) ممم
جوناثان: نعم
مدام لاسال:(تهمس) هل تعلم ما يقول عنك أحد الطلبة القانطين هنا؟
جوناثان: ماذا يقول؟
مدام لاسال: (بهمس) يقول إنك واقع في العشق
جوناثان: (يعتصر) ماذا؟
مدام لاسال: تماما كما يحصل لبعض الرجال حين يقعون في الحب من أول نظرة. انهم يبدون كما لو أن مسا أصابهم. هكذا كان الطالب يسخر منك (تستدرك) عفوا أسأت التعبير.
جوناثان: (يدور برأسه يميناً وشمالاً لحفظ توازنه) لا عليك مدام لاسال
مدام لاسال: (تستأنف بمرح وكأنها تذكرت أمرا) مدام روكار (تضحك) تلك المرأة التي لا يمكن التنبؤ بعمرها، ككل سابقاتها من مدبرات العمارات، تقول إنك لا تستلطفها أبدا (تقترب منه وبأسلوب حاد) هل هذا صحيح يا سيد جوناثان؟
جوناثان: ها؟
مدام لاسال: (بحماس مع حركات) أعتقد أنك محق في شعورك هذا، فهي تراقب المارة بشكل مستمر، بل إنه من شبه المستحيل أن يستطيع المرء تخطيها من دون أن يلفت انتباهها ولو بطريقة سريعة أو طرفة جفن. حتى ولو كانت تنام في غرفتها وهي جالسة إنها تفعل هذا عادة في ساعات ما بعد الظهر وبعد العشاء، (بهمس) الصرير الخافت لباب المدخل يكفي لإيقاظها بما يكفي لترى من الذي يدخل أو يخرج (تتنهد) أظن أن الجميع قد أبدى امتعاضه من سلوكها
جوناثان: مممم.
مدام لاسال: (وهي في طريقها إلى الخروج) سأخرج الآن سيد جوناثان.. وداعاً
جوناثان: وداعاً، مدام لاسال
مدام لاسال: (تخرج وتصفق الباب خلفها)
جوناثان: (يظل واقفا أمام الباب يصيخ السمع ثم يشعر براحة. يقوم بفتح جزء من الباب ويضع قدمه على عتبة الباب الخارجية بحذر. يرى شيئا يجعله يتسمر في مكانه

لثوان يشعر بالذعر. يدخل ويغلق الباب بشدة ويده محكمة على مقبض الباب يرتعب) إنها تقف أمام باب شقتي. عيناها تحدق (يمسح العرق عن جبينه. يستأنف النظر من ثقب الباب يلصق ظهره إلى الباب) عينها كقرص مستدير ذي لون بني يتوسطه سواد بلا رموش أو حاجب، النظرة الواحدة من تلك العين تملؤني بالرعب (يعاود النظر من ثقب الباب ثم يلصق ظهره نحو الباب) ولكن.. هناك.. في تلك العين نفسها شيء من العزلة والانكسار. (يعاود النظر من ثقب الباب ثم يتراجع) لقد اختفت العين (يهرع الى سريره مرتجفا. يقوم بمسح العرق حتى أسفل ظهره يخرج كتاب الموسوعة الطبية ويتصفحه) سأصاب بجلطة قلبية أو انهيار عصبي (يسحب الغطاء إلى أعلى كتفيه ويرتجف من البرد) وخز.. وخز.. الألم الداهم والوخز في منطقتي الصدر والكتف يسبقان حتما الجلطة القلبية (فجأة يفتح عينيه وبراحة) نبضات القلب عادت طبيعية والدماء تجري في عروقي من جديد ولا أعراض لشلل أو جلطة (يحرك أصابع يده ورجليه ويحرك عضلات وجهه بشكل متموج) ها أنى في اتم الصحة

المشهد الثاني

الرجل ذو القبعة: (يدخل مخاطبا جوناثان) لقد انتهى أمرك، ما أنت إلا كهل ميؤوس منه، إنك تسمح لحمامة أن ترعبك! حمامة تقذف بك إلى غرفتك، تطرحك أرضاً وتجعل منك سجيناً. سوف تموت يا جوناثان. سوف تموت، إن لم يكن الآن ففي الغد. لقد أفسدت حياتك التي تزلزلها حمامة، دون تمكنك من قتل ذبابة، او قتل انسان. قد تستطيع قتل إنسان رميا بالرصاص. شيء كهذا يحدث سريعا. إنه مسموح به في حال الدفاع عن النفس وارد في الفقرة الأولى من قانون الخدمة لرجال الحراسة المسلحين بل إنه مطلوب، فلا يمكن لأحد أن يلومك، ولكن (يصرخ) أن تطلق النار على حمامة، فإن هذا لعبث ماجن. فالحمامة حين تطير يصعب التصويب نحوها. ثم إنه ممنوع ويؤدي إلى سحب رخصة السلاح وفقدان الوظيفة وربما السجن ايضا. ولهذا لن تستطيع قتلها. ولكنك، إن تركتها تعيش.. (بهدوء وابتسامة خفيفة) فلن تستطيع العيش معها (بصوت عال) إنها بالنسبة لك رمز الفوضى العارمة، إنها ترفرف وتطير في كل الاتجاهات. تخرج مخالبها وتنشبها في العينين، تتبرز بلا انقطاع وتنشر الجراثيم المهلكة وفيروسات مرض الالتهاب السحائي إنها تجتذب حمامات أخرى، فتتجامع وتتكاثر بسرعة مذهلة وتجد نفسك عندئذ محاصرا بجيش من الحمام، حتى إنك لن تتمكن من مغادرة غرفتك أبداً، فتموت إما جوعاً أو غرقا ببولك وبرازك (جوناثان يشعر بالصدمة) أو ترمي نفسك من النافذة، فتسقط على الرصيف وتصبح هشيما.

جوناثان: (يسقط على السرير كالصريع)

الرجل ذو القبعة: (يجلس الى جانبه) ولكن حتى هذا يتطلب منك شجاعة لا تملكها، لذلك سوف تمكث في غرفتك وتصرخ طالبا النجدة، وقد تطلبها من رجال الإطفاء ليأتوا إليك وينقذونك من حمامة، حتى تصبح مسخرة العمارة، بل هدف لسخرية الحي كله (مستعرضاً وبخفة) هل سمعتم؟ إن السيد جوناثان طلب إنقاذه من حمامة! (يعود إلى طبيعته) هذا ما سيقوله الناس مشيرين إليك

بأصابعهم، وسوف يتم تحويلك إلى مصح للأمراض العقلية، آه يا جوناثان إن حالتك ميؤوس منها أنت ضائع لامحالة يا جوناثان.
جوناثان: (يرمي الغطاء من عليه ويجلس على الأرض آخذا دور العابد) أبانا الذي في السماء.. أنقذني من تلك الحمامة.. آمين (يشعر بضيق شديد فيهرع نحو الباب ثم يتراجع قليلا) لن أتمالك نفسي كي أصل إلى المرحاض (يهرع نحو حوض الغسيل ويتبول ثم يتراجع مصدوما من منظر حوض الغسيل فيقوم بفتح الماء ووضع المطهرات بشكل مبالغ فيه، ثم يظهر في الوسط وعلى وجهه علامات الصدمة)
تبولت في هذا الشيء الجميل (يبكي وبصوت خفيض وكأنه يعتذر) مرة واحدة لا تحسب (ينظر إلى الساعة) فاتتني حلاقة ذقني، ولذلك عليّ أن أقوم بها الآن وأستغني عن طعام الفطور لهذا اليوم، إذ لم يبق لي سوى ثلاثة أرباع الساعة وهي مدة كافية لانقاذي من أزمة قلبية وضغط المثانة الممتلئة سأستمر بروتيني اليومي الذي لم يتغير منذ سنين طويلة(فجأة) ولكني.. لن أستطيع التعايش معها تحت سقف واحد لا يوماً ولا ليلة ولا حتى ساعة واحدة (يقوم باخراج دفتر الشيكات ودفتر التوفير) هذا يكفيني لمدة أسبوعين شرط أن أجد نزلاً رخيصاً، (يفكر) ولكن يتوجب على من طرف آخر دفع مبلغ الثمانية آلاف فرنك إلى مدام لاسال في آخر العام كدفعة نهائية لثمن الغرفة، (متسائلا) كيف سأستطيع أن أطلب من السيدة لاسال إمهالي في تسديد الدفعة الأخيرة؟ (يغمض عينيه وكأنه أمام مدام لاسال) سيدتي! إنني لا أستطيع تسديد الدفعة الأخيرة البالغة ثمانية آلاف فرنك، لأن الغرفة التي اشتريتها منك تحاصرها حمامة (ينتفض) كلا، كلا، (يفكر ثم يهرع نحو الخزانة ويخرج صندوقاً. يخرج ما فيه من المال ويعد ببطء) خمسة فرنكات ذهبية خلال عملي في الحرب الجزائرية، سوار أمي الذهبي، القلم الفضي هديتي من البنك، وهذا المذياع، إذا بعت كل هذه الكنوز سأتمكن من دفع ما علي لمدام لاسال(يحلق ذقنه ويقوم بارتداء زيه. يتسمر في مكانه وعيناه على الباب فجأة يهرع نحو الخزانة ويخرج معطفا وقفازات وقبعة ونظارات سوداء. يرتدي المعطف والقبعة والنظارات. يفتح المظلة ويقف أمام الباب محاولا الخروج ثم يتراجع. يكرر الفعل بشجاعة عالية ثم يصل الباب ويتراجع منكسرا ويتكرر الفعل نفسه عدة مرات) كم تستطيع الحمامة أن تعمر؟ سنتان، ثلاث سنوات، عشر سنوات؟ وماذا لو كانت هذه الحمامة أصلاً كبيرة السن وعجوزا؟ ربما تموت خلال أسبوع (بفرح) ربما تموت اليوم ... بل ربما ما جاءت هنا إلا لتموت (يفتح الباب ببطء شديد ويخرج المظلة أولا ثم رأسه ثم باقي جذعه بحذر شديد حتى يختفي)

المشهد الثالث

المنظر: غرفة جوناثان. نرى من خلال النافذة حمامة تقف على بلاط الممر
جوناثان: (بملابس غير مناسبة، يمد رأسه خلف باب يفتح. يخرج جذعه ببطء وهو يتلوى كالحلزون. يخطو بضع خطوات ثم ينظر إلى نفسه (يهمس) ماذا لو رآني أحد سكان العمارة بملابسي هذه؟ (تجحظ عيناه) بل ماذا لو رأتني مدام روكار؟
السيدة روكار: (تدخل وهي تحمل مجموعة

من صفائح النفايات الفارغة المحملة على عربة صغيرة. تتفحص جوناثان من رأسه حتى قدميه وباستغراب) سيد جوناثان!

جوناثان: (يتجمد في مكانه ويبدو كالتمثال لوهلة يحاول التراجع حتى عتبة الغرفة ومع نفسه) لماذا يجب على الناس أن يكونوا طفيليين إلى حد مقرف؟

مدام روكار: صباح الخير يا سيد جوناثان؟

جوناثان: (مستسلما لكل ما قد يحصل) صباح الخير مدام روكار (يقوم بغلق المظلة وخلع معطفه)

مدام روكار: (تشير اليه بسخرية)

جوناثان: (يخرج من حقيبته حذاء ويرتديه ثم يغمغم وكأنه يتكلم للمرة الأولى) سيدتي.. لدي كلمة.. أريد أن أقولها (مع نفسه) لا أعلم بعد ما أود قوله

مدام روكار: (تبتسم) تكلم يا سيد جوناثان

جوناثان: (يتراجع بضع خطوات خجلا)

مدام روكار: (تتنهد) نعم سيد جوناثان؟

جوناثان: (يحاول جعل مسافة بينه وبينها) سيدتي، إنني أريد أن أقول لك مايلي:

مدام روكار: (بغنج) قل يا سيد جوناثان

جوناثان: (بحماسة من يريد القاء خطبة) أمام غرفتي يوجد طائر

مدام روكار: (تتغير لهجتها وبصدمة) ماذا؟

جوناثان: إنها حمامة، وهي تجلس أمام غرفتي على بلاط الممر. انظري انها هناك..

مدام روكار: (تنظر شزرا) ومن أين أتت هذه الحمامة؟

جوناثان: لا أعلم، يبدو لي أنها اقتحمت نافذة الممر التي كانت مفتوحة خلافا لتعليمات العمارة التي تبقيها مغلقة على الدوام

مدام روكار: (بحنق) ربما قام أحد الطلاب بفتحها بسبب الحرارة

جوناثان: (بغضب) ربما، إلا أنها يجب أن تظل مغلقة، وخصوصاً في الصيف، لأن العاصفة إذا هبت سوف تصفع النافذة بعنف وتكسرها، كما حدث في صيف العام 1962. لقد تكلف إصلاح النافذة آنذاك مائة وخمسون فرنكا، ومنذ ذلك اليوم تم التعميم في تعليمات العمارة أن النافذة يجب أن تبقى مغلقة دائماً

مدام روكار: (تنظر بفضول)

جوناثان: (يحاول الهروب من نظراتها)

مدام روكار: (محاولة كسب وده) يجب أن تطرد الحمامة وتغلق النافذة

جوناثان: (يبادلها النظرات كالأسير ثم يتنحنح) إن الأمر..

مدام روكار: (تقاطعه بغنج) أي أمر يا سيد جوناثان؟

جوناثان:(يتنحنح مرة أخرى) إن الأمر السيء هو وجود بقع كثيرة، بقع خضراء كثيرة وريش أيضاً، لقد قامت بتوسيخ الممر كله، هذه هي المشكلة الرئيسية.

مدام روكار: (تهز رأسها بانفعال) بالطبع سيدي، يجب تنظيف الممر، ولكن ينبغي أولاً طرد الحمامة

جوناثان: (بنفاد صبر) نعم.. نعم (مع نفسه) ما الذي تعنيه هذه المرأة؟ ما الذي ترمي إليه؟ ربما تعني أنه يجب علي أنا القيام بطرد الحمامة؟ (يلتفت الى مدام روكار) نعم.. يجب.. يجب طرد الحمامة.. أنا.. أنا كنت سأطردها بنفسي، لكنني لم أتمكن من ذلك. إنني مشغول كما ترين. إنني أحمل معطفي وغسيلي وأذهب إلى عملي. إنني في غاية العجلة سيدتي، لهذا لا يمكنني طرد الحمامة. فقط أردت إبلاغك بالأمر، وخصوصاً ما يتعلق بالبقع إن اتساخ الممر ببراز الحمامة هو المشكلة الأساسية، لأنه يتنافى مع

تعليمات العمارة، إذ أن نظام العمارة ينص على وجوب المحافظة على نظافة المدخل والدرج والمرحاض دائماً

مدام روكار: (بنفاد صبر) إنني أشكرك على هذه المعلومة يا سيدي، سوف أهتم بالأمر في أول فرصة سانحة (تستأنف عملها فتخرج وهي تدفع العربة)

جوناثان: (يسير بخطوات حذرة وببطء) إنها لن تهتم بأي شيء، فهي مدبرة العمارة ليس إلا. وبصفتها هذه فهي ملزمة بتنظيف الدرج والممرات، ومرة في الأسبوع بتنظيف المرحاض المشترك، ولكنها ليست ملزمة بطرد حمامة بعد الظهر، على أبعد تقدير، سوف تنسى الأمر كله، بعد أن تثمل بنبيذها الرخيص، هذا إذا لم تكن قد نسيتها الآن وفي هذه اللحظة بالذات (يخرج)

المشهد الرابع

المنظر: ساحة بوسيكو

جوناثان:(يدخل حاملا حقيبته ومعطفه وكيسا صغيراً. تبدو عليه إمارات الذهول والأسف. يضع الكيس على المصطبة. يجلس متثاقلا ورأسه بين يديه. يضرب يده على فخذه أسفا) لقد وصلت سيارة السيد مدير البنك من دون علمي بها.

الرجل ذو القبعة: (يخطو نحو جوناثان يجلس الى جانبه) نعم، الحارس يجب أن يماثل أبي الهول، أليس هو رأيك؟ ألم تقرأ مرة؟ إن فاعلية أبي الهول لا تأتي من حركته، وإنما من مجرد وجوده في المكان. إنه يستطيع بمجرد وجوده فقط مواجهة اللص (يمثل دور أبي الهول مع لص الآثار بعفوية وبصوت خشن) عليك أن تتحداني.. لا أستطيع منعك، لكنك يجب أن تتحداني، وحين تتجرأ على هذا، فإن لعنة الآلهة وآل فرعون سوف تحل عليك (يعود إلى طبيعته) أما الحارس فيمكنه القول (بصوت طبيعي) إن عليك أن تتحداني، إنني لا أستطيع منعك، وحين تتجرأ على هذا، فإن انتقام العدالة سوف يحل بك على شكل إدانة بجريمة قتل (نحو جوناثان وباسلوب حاد) ولكنك تعلم بكل تأكيد أن أبا الهول يملك أسلحة أكثر تأثيراً مما يملكه الحارس، فالحارس لا يمكنه التهديد بلعنة الآلهة، وحتى إذا كان اللص لا يأبه للعواقب فإن جسد أبي الهول لن يمس بسوء لأنه منحوت من صخر البازلت الخالص ويقبع كحصن منيع. لقد تمكن من المحافظة على بقائه مقاوما لصوص الآثار عبر خمسة آلاف عام، بينما تجد حارس البنك، عند حدوث سطو مسلح، مضطرا لأن يدع حياته خلفه، مغادرا إلى الدار الآخرة خلال أقل من خمس ثوان!

جوناثان: (مع نفسه) لقد صلت سيارة السيد مدبر البنك من دون علمي

الرجل ذو القبعة: (يحرك قبعته) اليوم يبدو كل شيء مختلف. اليوم لم تتمكن مهما حاولت أن تجد هدوء أبي الهول الذي كنت تتمتع به في العادة

جوناثان: (بحماس) كنت أعتقد أن الحارس وأبا الهول متشابهان، فسلطة كل منهما رمزية. وامتلاك هذه السلطة الرمزية يشكل عزة نفس واحترام للذات وإمداد بالقوة والقدرة على التحمل، وحماية تحصن من اي مكروه

الرجل ذو القبعة: (يضحك ساخرا) هههه

جوناثان: لقد وصلت سيارة السيد المدير من دون علمي

الرجل ذو القبعة: (مؤنبا) ألم ترها؟
جوناثان: (مازال في حالة من الأسف) مم.
الرجل ذو القبعة: أخفقت وأهملت واجباتك الوظيفية باستهتار، إنك لست أعمى فقط بل أطرش أيضاً... وإنك أخرق وعجوز ولا تصلح بعد الآن لأن تكون حارسا
جوناثان: (بجمود) لأن سيارة السيد المدير وصلت من دون علمي؟
الرجل ذو القبعة: لأنك وجدت نفسك مضطرا إلى ترك وقفتك المنتصبة قبل وصول هذه السيارة
جوناثان: (يهز رأسه) صار كل شيء يتموج ويتراقص. فكرت، لابد أنني أصبت بين ليلة وضحاها بقصر النظر. حين كنت طفلا كان علي ارتداء نظارة طبية ، لكني أستغرب أن يعاودني قصر النظر في هذه السن المتقدمة. فمع تقدم السن تختفي أعراض قصر النظر ويأتي بعدها الماء الأبيض وانفصال الشبكية وسرطان العين، أو ربما سرطان في الدماغ يضغط على عصب العين (يضع الكيس على رجليه ويقوم بفتحه)
الرجل ذو القبعة: (يختفي)
جوناثان: (يتناول غداءه ونظره إلى البعيد)
المتشرد: (يدخل. يرتدي ملابس مهترئة ويمسك بعلبة سردين. يجلس قبالة جوناثان)
جوناثان: (يشعر بالقرف. يتناول طعامه على مضض)
المتشرد: (يمسك السردينة من ذيلها ويقضم رأسها ويبصقه على الأرض ويرمي البقية في فمه. يكرر الفعل نفسه)
جوناثان: (يبدي امتعاضه)
المتشرد: منذ عقود وأنا أراك في هذا المكان، ولكنني أتساءل.. ما سبب كراهيتك وامتعاضك مني؟
جوناثان: (باحتجاج) قبل وقت طويل، قبل حوالي الثلاثين عاما حين رأيتك لأول مرة، تملكني شعور بالغضب عليك
المتشرد: لماذا؟
جوناثان: كنت أغار منك
المتشرد: (وهو يلعق ما بقي في علبة السردين) تغار مني؟
جوناثان: (يدير ظهره اليه من شدة القرف) نعم، لأنك بلا هموم كهمومي انا.. فبينما علي الحضور إلى موقع عملي في تمام الساعة الثامنة والنصف، كنت أنت تظهر في الساعة العاشرة والنصف أو الحادية عشرة، وبينما علي الوقوف منتصب القامة مشدود الذراعين إلى أسفل، تسترخي أنت على قطعة كرتون وتدخن، وبينما أنا أقضي الساعة بعد الساعة، واليوم بعد اليوم، مخاطرا بحياتي وأنا أحرس البنك وأكسب قوتي بمرارة، كنت لا تفعل أي شيء على الإطلاق سوى الاعتماد على شفقة الآخرين الذين يلقون بالنقود في قلنسوتك، لم تكن يوما معكر المزاج، حتى في الأيام التي كانت فيها قلنسوتك تخلو من أي مال. لم يكن يبدو عليك أنك تعاني أو تخاف أو حتى تمل. دائما تنضح منك ثقة بالنفس ورضى مثيران للغيظ. لقد كنت تمثل تجسيدا يستفز الجاذبية للحرية وسحرها
المتشرد: (يلف ساقيه فيظهر تمزق حذائه ويتعالى في كلامه) لكنك ذات مرة في منتصف الستينيات، وانت تبحث عن المتشرد الذي هو انا.. تعثرت ووقعت بزجاجة خمر موضوعة على قطعة كرتون بين قلنسوتي وكيس بلاستيكي.
جوناثان: ليس لأني افتقدتك كشخص، بل لأن مشهد الطبيعة الصامتة هذا المكون من الزجاجة والكيس والقلنسوة بدا ناقصا

المتشرد: ربما قصدت مشردا آخر
جوناثان: (بإلحاح) بل أقصدك أنت بلحمك وشحمك وكارتونك البلاستيكي وقلنسوتك ومؤخرتك التي تعريها أمام المارة في ساحة بوسيكو.
المتشرد: (يبرز اصبعه من حذائه باستفراز) وماهي مواصفات مؤخرتي؟
جوناثان: (مستعرضاً بيديه ساخراً) مؤخرة بيضاء بلون الطحين، مرقشة ببقع زرقاء وخدوش حمراء. كانت مشوهة بشكل تبدو فيه كما لو أنها مؤخرة كهل عاجز ملازم للفراش
المتشرد: (يقف ويتفحص مؤخرته بعينيه) كل هذا الوصف لمؤخرتي؟
جوناثان: إن صورة مؤخرتك مؤلمة ومقرفة ومرعبة بشكل دفعني إلى الارتجاف كلما تذكرتها
المتشرد: (يرفع حاجبيه) أهكذا هي مؤخرتي؟
جوناثان: (بغضب) في ذلك اليوم وبعد أن أربكني منظر مؤخرتك وأنت تقضي حاجتك.. هربت ولجأت إلى مكتب البريد حيث يتوجب علي أن أسدد فاتورة الكهرباء. سددتها ثم اشتريت طوابع بريدية أيضا، على الرغم من عدم حاجتي إليها، فقط أردت أن أطيل فترة بقائي بحيث أتأكد أنني لن أضطر لرؤيتك مرة أخرى وأنت ما تزال تقضي حاجتك
المتشرد: (مذهولا) كل ذلك سببه مؤخرتي!؟
جوناثان: (بالأسلوب نفسه) منذ ذلك الوقت عودت نفسي على عدم النظر إلى الجهة الأخرى من الشارع والاندفاع إلى اليسار صاعدا في شارع (دوبان) على الرغم من أنني ليس لدي ما أفعله في تلك البقعة من المدينة، لكنني أردت بهذا تجنب المرور في المكان الذي توجد فيه زجاجة الخمر ورقعة الكرتون والقلنسوة
المتشرد: (يقاطع مبتسماً) ومؤخرتي.
جوناثان: (بلامبالاة) فسلكت طريقا طويلة عبر شارعي شيرش ميدي و بولفار راسباي، حتى وصلت إلى شارع دولابلانش، قاصدا غرفتي، محارتي الآمنة. منذ ذلك اليوم اختفت من داخلي تلك الغيرة التي كنت أشعر بها تجاهك.
المتشرد: (ساخراً) ألم تسأل نفسك ولو بشيء من الشك، من وقت لآخر، ما هو جدوى قضائك الثلث الأخير من حياتك أمام أبواب البنك لتفتح البوابة وتقدم فروض الاحترام أمام سيارة المدير كلما تطلب الأمر ذلك؟
جوناثان: (يتحسر) آه، بقاء كل شيء على ما هو عليه.. إجازات قصيرة وراتب قليل يتبخر كليا بعد دفع الضرائب والتأمينات الاجتماعية والإيجار
المتشرد: هل هناك من جدوى فعلية من كل ما سبق؟
جوناثان: (يلملم فتات الطعام عن ملابسه) نعم. إن ما أقوم به ضروري للغاية، فهو يحميني من الاضطرار لتعرية مؤخرتي على الملأ ومن التبرز في الطريق. هل يوجد شيء أكثر إيلاما من الاضطرار للتعري والتبرز في الشارع أمام أعين الناس؟ هل يوجد شيء أكثر إذلالا من هذا السروال المتهرئ؟ هذه الوضعية المتكررة وهذا العري الاضطراري البشع؟ هل يوجد عجز وهوان أكبر من أن يضطر الإنسان لقضاء حاجة محرجة أمام أعين العالم أجمع؟ الحاجة اسمها وحده يفصح عن المعاناة. وككل ما يضطر المرء للقيام به تحت ظروف قاهرة، فإنها تتطلب الغياب المطلق لأي إنسان، أو

على الأقل التظاهر بالغياب. بقليل من المال يمكنني تدبر أمري، وقبول ارتداء سترة متسخة وسروال ممزق. وعند الحاجة حين أستغرق بتخيلاتي الرومانسية. يصبح النوم على قطعة من الكرتون، والاستغناء عن حميمية العيش في الغرفة والاستعاضة عنها بزاوية ما، بشبك التدفئة المعدني أو بعتبة أدراج محطات المترو ممكنة. ولكن عندما لا يجد باباً يستطيع أن يغلقه خلفه حين يريد أن يتبرز، ولو كان باب المرحاض المشترك. حين يتم تجريد المرء من هذه الحرية الأساسية، حرية الانسحاب عن الناس عند الضرورة.. فإن كل الحريات الأخرى تصبح عديمة الفائدة. آنذاك تفقد الحياة معناها، ويكون الموت هو الحل الأفضل

المتشرد:(يرفع حاجبيه) تقصد أن جوهر الحرية الإنسانية مرهون بامتلاك مرحاض

جوناثان: نعم، فلقد كنت مصيبا في الكيفية التي أسعى بها لتأمين وجودي. كنت أعيش حياة رغيدة وليس هناك شيء، أي شيء يدعو للندم

المتشرد: مم.. عن اذنك يا جوناثان (يضع قلنسوته على وجهه ويتمدد على المقعد)

جوناثان: (بمفرده) منذ تلك الساعة أصبحت أقف على أرض صلبة أمام أبواب البنك، منتصبا وشامخا تماما كتمثال منحوت من الصخر أو مصبوب من المعدن. وتلك الخصال من الثقة الصلبة بالذات والقناعة التي كنت أعتقد أنني اتمتع بها، قناعة تدفقت في داخلي أنا كالمعدن المنصهر، وتصلبت لتصبح درعا لي، ودعمت من رسوخي وثباتي. منذ ذلك الوقت لم يعد هناك شيء يمكن أن يهزني، أو شك يمكن أن يزعزعني، لقد لبست هدوء وطمأنينة أبي الهول. وحين صرت أصادفك أو أراك جالسا يداهمني شعور يمكن تسميته بشكل سطحي التسامح أو قبول الآخر كما هو. كان شعوري هذا مزيجا شديد التنافر من القرف والاحتقار والشفقة، (يتوقف عن الكلام ليسمع شخير المتشرد) حتى أصبح هذا المتشرد لا يثيرني (يخرج وسرعان ما يدخل. ينحني تحت المقعد. يلتقط علبة الحليب. وقبل أن يستقيم يسمع صوت تمزق بنطاله. يتسمر في مكانه. يشعر بصدمة كبيرة. ينظر هنا وهناك مخافة أن يسمع أحدا أو يعلم بالحدث. يتفحص المتشرد فيجده لازال نائما. ينظر إلى الشق فيجده من أعلى فخذه حتى أسفل جيب السروال الأيسر. يحرك الجزء العلوي للشق يمينا وشمالا وبذهول) الأدرينالين يندفع في دمي، هذه المادة المدغدغة التي قرأت ذات مرة أن الكظر يضخها في الدم بكثرة في أوقات الخطر المحدق وحالات الفزع، لتحفز الحواس والطاقات في الجسم إما للهرب أو لمواجهة مسألة فيها حياة أو موت0 بالفعل أشعر وكأنني جريح، وأن الشق الذي انفتح في سروالي انفتح في جسدي أيضاً. يبدو لي أنني سوف أموت متأثراً بجرحي إذا لم أتمكن فورا من معالجته وإغلاقه (يصرخ) عليك أن تبادر إلى فعل شيء. عليك اتخاذ خطوة فورية لإغلاق هذا الثقب وإلا فإنك ضائع لا محالة (مع نفسه) بهذه السرعة يعمل الأدرينالين، هذا العقار الرائع. بهذه السرعة يحفز الخوف والذكاء وقوة الشكيمة (يضغط بقبضته على علبة الحليب ويكورها ويرميها بعيدا. يضغط بيده على أعلى فخذه. يحرك ذراعه اليمنى بتأرجح سريع كما لو انها مجداف إلى جانبه. يمشي بحذر شديد ناظرا هنا وهناك حتى يخرج)

المشهد الخامس

المنظر: متجر بون مارشيه
محل للخياطة كتب عليه "جانين توبيل - تعديل وإصلاح- عناية وسرعة
على جانبي المحل يوجد قسم بيع الزجاجيات وآخر للخضار وآخر للجبن والسجق
مدام توبيل: (ترتدي نظارتها الكبيرة وهي تعمل على ماكنة الخياطة)
جوناثان: (يدخل من أحد زوايا المحل. يمشي باستحياء ويده على فخذه. يخاطب مدام توبيل) سيدتي!
مدام توبيل: (تنهمك بخياطة ثوب أحمر ذي ثنيات. توقف الآلة وتحرر الثوب من تحت الإبرة وتقص الخيطان العالقة. ترفع رأسها وتنظر إلى جوناثان) نعم
جوناثان: (يشعر بالفزع من حجم نظارتها الكبير ولون شفتيها البنفسجي اللامع وشعرها الكستنائي المنسدل على كتفيها)
مدام توبيل: (باسلوب مهذب) بماذا أستطيع خدمتك؟
جوناثان: (يدير جانبه الأيسر نحوها مشيراً إلى الفتحة في سرواله. وبأسلوب فظ) هل تستطيعين إصلاحه؟ (يلاحظ من ردة فعل مدام توبيل أنه طرح سؤاله بشكل فظ. يغير لهجته) إنه ثقب.. شق صغير... إنه الحظ العاثر السيء سيدتي. هل يمكن صنع شيء ما لإصلاحه؟
السيدة توبيل: (تنحدر عيناها على جوناثان من أعلى وجهه حتى تصل الشق بصورة بطيئة)
جوناثان: (يشعر بالخجل)
السيدة توبيل: (تجلس نصف جلسة وتنحني تحت فخذ جوناثان متفحصة مكان الشق)
جوناثان: (بحرج. يلقي برأسه إلى الخلف قافزا بنظره إلى أقسام بيع الجبن والسجق، والزجاجات والخضار)
مدام توبيل: (تقوم بتفحص الشق بيديها وتثني المثلث الصغير إلى الأمام والخلف)
جوناثان: (يشعر بالدغدغة فيتلوى)
مدام توبيل: (تنهض. مستندة على كرسيها)
جوناثان: (بحماس) والآن؟
مدام توبيل: لا توجد مشكلة، يجب ترقيعه ووضع قطعة تحت الشق، إلا أن أثر خياطة صغير سوف يبقى مرئيا بعض الشيء. لا يمكنني أن أفعل أفضل من هذا
جوناثان: لا بأس بهذا على الإطلاق، أثر خياطة صغير لا يؤثر على الإطلاق، ثم من الذي سيرى تلك الرقعة المحجوبة عن النظر؟ (يلقي نظرة سريعة على ساعته) إنها تشير إلى الثانية إلاّ ربع (نحو مدام توبيل) إنك تستطيعين إصلاحه، سوف تقومين بمساعدتي يا سيدتي؟
مدام توبيل: (وهي تقوم بتعديل نظارتها إلى الأعلى) بالطبع
جوناثان: (مبتهجا) أوه، إنني في غاية الامتنان لك يا سيدتي، أشكرك جزيل الشكر، إنك تحررينني من إحراج عظيم. لكن لي رجاء أخير صغير (بلطف) هل يمكنك أن تتكرمي علي... إنني في الواقع في أشد العجلة من أمري.. لم يبق لدي من الوقت إلا ... (ينظر إلى الساعة) عشر دقائق.. هل يمكنك إصلاحه الآن.. أعني فورا؟ دون تأخير؟ (ينظر في عيني مدام توبيل فيدرك فورا عبثية الموقف. يشعر بانعدام الأمل. ينظر إلى ساعته بقلق ثم يتحدث مع نفسه) عشر دقائق، كيف سيتمكن أي شخص من ترقيع هذا الشق المخيف خلال عشر دقائق؟

إن هذا غير ممكن. هذا لا يمكن تحقيقه أبدا. فالمرء لا يستطيع ترقيع الشق وهو واقف، عليه أن ينزع عنه سرواله، ولكن من أين باستطاعته أن يأتي بسروال آخر وهو موجود في قسم الأغذية بمتجر بون مارشيه؟ هل ينزع سرواله ويقف بلباسه الداخلي؟ يا له من هراء

مدام توبيل: (متسائلة باستهجان) فورا؟

جوناثان: (يومئ برأسه إيجاباً) نعم

مدام توبيل: انظر يا سيدي، إن كل ما تراه هنا، (تشير إلى شماعة الملابس) الكثير من الأثواب والسراويل والقمصان والسترات. كل هذه الأشياء يجب على إصلاحها فورا. إنني أعمل عشر ساعات في اليوم

جوناثان: نعم بالطبع، إنني أفهم تماما يا سيدتي، لقد كان سؤالا أحمقا0 كم تظنين سيستغرق الأمر، حتى تتمكني من رتق شق سروالي؟

مدام توبيل: (تستدير نحو آلة الخياطة. تعيد وضع الثوب الأحمر. تنزل قدم التثبيت الحديدية الصغيرة وتعمل. وببرود) إذا قمت بجلب السروال إلى يوم الاثنين المقبل، فإنه سوف يكون جاهزا بعد ثلاثة أسابيع

جوناثان: (بدهشة) بعد ثلاثة أسابيع؟

مدام توبيل: نعم، أسرع من هذا غير ممكن (تشغل الآلة).

جوناثان: (مصدوما) ما عدت أرى نفسي كجزء من العالم الذي يحيط بي، كما لو أنني أتأمل هذا العالم بمنظار مقلوب (يصاب بالدوار ويترنح. يخطو خطوة جانبية ثم يستدير ويتجه نحو الخارج مغادرا المكان) وداعا سيدتي

مدام توبيل: (تستمر بعملها غير آبهة بجوناثان)

المشهد السادس

المنظر: مبنى البنك

جوناثان: (يقف أمام باب البنك، يده اليسرى تخفي مكان شريط لاصق يظهر واضحا لوهلة من خلال حركة يقوم بها)

الرجل ذو القبعة: جوناثان! قف بثبات ولاحظ ما نجم عن وقفتك من تحدب عمودك الفقري، بما يجعلك رسماً كاريكاتورياً لرجل حراسة

جوناثان: (بالكاد يأخذ نفسا عميقا) الشريط اللاصق قد ينقذني مما انا فيه

الرجل ذو القبعة: (وهو يضع قدم على الأخرى) تأمل فقط كيف راح عمودك الفقري يحدودب ورأسك يهبط أكثر فأكثر وجسدك يتخذ وقفة أكثر انتفاخاً كوقفة كلب هرم

جوناثان: (يأخذ نفسا عميقا مع جحوظ بارز في عينيه. يشعل سيجارا) لكن الصورة الحقيقية للعالم الخارجي لم تتمكن من اختراق عقلي

الرجل ذو القبعة: أي حقد أنت فيه، حين ترغب بتحويل العالم إلى خرائب وأطلال بسبب شق في سروالك؟! لكنك لم تحرك ساكناً ازاء هذا الحقد

جوناثان: (يقبع في مكانه وعيناه تتلصص يميناً وشمالاً)

الرجل ذو القبعة: (ينظر إلى ساعته) حوالي الساعة الخامسة (ينظر إلى جوناثان بسخرية) حالتك من البؤس بحيث تظن أنك لن تتمكن من مغادرة مكانك وأنك سوف تموت هنا حتماً ستنتهي لا كما كنت كرجل مسن متقاعد محترم، يتمتع بصرف معاشه التقاعدي في بيته، انما هنا أمام بوابة البنك، ككومة قذارة صغيرة!

جوناثان: (يغمض عينيه ويأخذ نفسا عميقا)

الرجل ذو القبعة: (يهز رأسه أسفا) يا لك من قزم عاجز مسجون في آلة آدمية شديدة الضخامة والتعقيد. آلة لا يمكنك التحكم فيها
السيد فيلمان: (يطل من البوابة الزجاجية)
السيد فيلمان: سوف نغلق البنك
جوناثان: (يتخلى عن وقوفه ويدخل البنك)
الرجل ذو القبعة: (يقلد دمية العرائس ويقف في الوسط، يشير إلى الداخل) هناك، تبدأ هذه الآلة (يفتح ذراعيه) دمية مسرح العرائس (يقلد حركة دمية العرائس في المشي. يدخل مبنى البنك. يجلس أمام منصة التحكم بالأبواب الكهربائية ويقوم بتشغيل زري البابين الداخلي والخارجي ليتمكن الموظفون من مغادرة البنك)
السيدة روك: (تغلق الباب المضاد للحريق المؤدي لغرفة الخزينة التي كانت قد فتحتها سوية مع السيد فيلمان. وتحرر بالاشتراك مع السيد فيلمان جهاز الإنذار، وتطفئ منصة التحكم مجدداً، وتغادر البنك)
السيد فيلمان: (يغادر البنك بصحبة السيدة روك)
جوناثان: (يودعهما) أتمنى لكما مساء سعيداً وعطلة نهاية أسبوع هانئة
السيد فيلمان: ولك بالمثل
السيدة روك: مساء سعيداً وعطلة نهاية أسبوع هانئة
الرجل ذو القبعة: (نحو الجمهور هامسا بإعجاب) تلقت الدمية بعرفان أفضل التمنيات للعطلة من السيد فيلمان والسيدة روك
صوت السيدة روك: نلتقي يوم الاثنين
الرجل ذو القبعة: (يمشي مثل دمية العرائس حتى يخرج)
جوناثان: (يقفل الباب ويخرج مثل الرجل ذو القبعة أي مثل دمية العرائس)

المشهد السابع

المنظر: غرفة في فندق
الغرفة صغيرة جدا. عرضها لا يكاد يتجاوز عرض باب دخولها، أما طولها فلا يتجاوز الثلاثة أمتار. جدرانها لا تتوازي تماما مع بعضها. السرير يلاصق طولياً جدران الغرفة (يسمع لغط خافت من خارج الغرفة. قرقعة صحون. بعض الضحكات)
جوناثان: (يقيم في الغرفة. يستمع الى المؤثرات الخارجية. يعلق) أي ضوضاء هذه في غرفتي الجديدة، بعيدا عن الحمامة؟ (يخلع ملابس العمل، يجلس القرفصاء على السرير، يضع ورقا على الكرسي ويضع عليه الطعام ويبدأ بتناوله، يشعر بلذة الطعام) ارجو ان يكون هذا الفندق آمنا، أما عن الطعام، قد ينقصه القليل من قطرات حامض الليمون (يفكر) لا بأس برشفة من النبيذ الأحمر كبديل (يرتشف كأسا من النبيذ. يترك اللقمة تنزلق على لسانه ثم يحركها بين أسنانه ببطء في المضغ ويتكلم مع نفسه) لم يسبق لي في حياتي أن تناولت وجبة ألذ من هذه. اتناولها ببطئْ لأنني قرأت مرة في جريدة أن الأكل بسرعة، وخصوصاً حين يكون المرء شديد الجوع، يضر بالصحة ويؤدي لمشاكل هضمية، وفي بعض الحالات يؤدي إلى الشعور بالغثيان والتقيؤ (يتوقف عن الطعام ثم بقلق) ربما هي الوجبة الأخيرة التي اتناولها في حياتي؟ (يكف عن الأكل. ينهض. يتجه نحو السرير. يجلس على طرفه. يصفن وسرعان ما يتمدد. يطوي الغطاء الصوفي على أسفل السرير ويتدثر بالملاءة. يتكلم بصوت أجش) غدا سأنتحر (يقفل عينيه وينام. يسمع صوت صفير عاصفة قوية ثم صوت رعد شديد

وصوت مطر. يسمع دوي انفجار. ينتفض في سريره) لقد آن الأوان، وبدأت النهاية، ليست نهايتي وحدي، بل نهاية العالم، دمار الكون. إنها النهاية المطلقة (يضع يده على قلبه) أشعر بقلبي يخفق بعنف (يتلمس جسده) وبجسدي يرتجف. أي ضيق شديد وقعت فيه؟ كيف لي أن استعيد هدوئي؟ (يفكر) قد الجأ لبعض الذكريات، لا بأس اذن.. في أوائل الخمسينات بدأت تستهويني حياة الفلاحة، لكن عمي طلب مني التطوع في الجيش، فما كان مني إلا أن أطيعه.. تطوعت لمدة ثلاث سنوات، قضيت السنة الأولى منها وأنا أجهد نفسي للتكيف مع القسوة الكريهة للحياة مع الجماعة والإقامة في الثكنات، وفي السنة الثانية تم شحني بحرا إلى الهند الصينية، أما السنة الثالثة فقد قضيتها في المشافي الميدانية إثر إصابتي برصاصة في فخذي.

بعد ان تسرحت من الجيش اختار لي عمي ماري بكوش زوجة لي ولم تقض معي سوى اربعة أشهر حتى تهرب مني مع بائع خضار تونسي كان يعمل في مرسيليا (يضرب فخذه) بناءً على ما سبق توصلت إلى حقيقة مفادها أن الناس لا يمكن الوثوق بهم أو الاعتماد عليهم، وأن المرء لن يجد الطمأنينة والسلام في حياته إلا إذا نجح في الابتعاد عنهم (يسمع طرقة خفيفة وطرقة أخرى واخرى حتى تتحول الطرقات الى هدير قوي لتساقط المطر)

الرجل ذو القبعة: (يدخل متثاقلا. يخاطب جوناثان) غادر الفندق يا رجل. اذهب إلى غرفتك السابقة. امض بقدمين حافيتين، اقفز في برك الماء كما كنت تفعل عندما كنت طفلاً. نط في وسطها، أسقط عليها، بعثر ارتطامها بالماء وبلل واجهات المحلات والسيارات المتوقفة هناك. تمتع بهذه الحماقة الطفولية وكأنك قد استعدت حريتك المطلقة كالحمامة. عندها ستسترد أنفاسك وتترك وقتاً لقلبك كي يهدأ قبل أن تكمل الجزء الأخير من الطريق (بتفاؤل) سترى أضواء تشع من كل جانب، ستسمع أصوات الصباح الأولى في غرفتك السابقة (يطرق بيده ويُسمع صوت رنين كؤوس) رنين كؤوس، الصوت المكتوم لإغلاق باب براد (يسمع صوت غلق باب براد) موسيقي خفيفة تنبعث من مذياع (يسمع صوت موسيقى) وسرعان ما تقتحم أنفك رائحة أليفة (يتخيل شم رائحة لذيذة) إنها رائحة قهوة السيدة لاسال (يتخيل أنه يمسك بكوب قهوة ويتلذذ بشربه وهو يتمايل) ثم ترفع حقيبتك وتتابع صعودك. ما عدت تشعر بالخوف مطلقا. حين تلج الممر تلمح الى ما يشير ان الحمامة قد اختفت

الرجل ذو القبعة: (يختفي)

جوناثان: (يرخي من تشبث أصابع يديه بالفراش. يسحب فخذيه إلى صدره. يطوقهما بذراعيه. يبقى جالسا في تكوره لثوان عدة) عليّ أن أغادر هذا الفندق (ينهض من السرير. يرتدي ثيابه. يحمل الحقيبة) كم استغرق من الوقت للوصول الى غرفتي هناك؟ (يخرج)

---

*كاتبة مسرحية من ذي قار، لها العديد من النصوص المسرحية المطبوعة والمعروضة وحصلت على العديد من الجوائز في المسرح والقصة والسيناريو.

مطبوعات وصلتنا :

- زهير الجزائري، سيرة الفاسد من الحواسم الى المافيا المسلحة ،دار سطور- بغداد 2023.
- رضا الظاهر، اضطهاد النساء، مقاربة نقدية،دار الرواد الزدهرة – بغداد 2023.
- ابراهيم المشهداني ، أمراض الاقتصاد العراقي وسبل معالجتها، دار الرواد المزدهرة بغداد.2024.
- د.ماجد الأميري، جذور المقدس والفرجوي في الثقافة الشرقية القديمة بلاد الرافدين، مصر، اوغاريت (راس شمرا) ، دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة- بغداد 2024.
- ظافر جلود،صناعة افلام الخوف، رعب الخرافة والاسطورة في السينما، دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة- بغداد 2024.
- ناجح المعموري ،سركون بولص يجوب المدن وهو ميت، مؤسسة أبجدية- بابل 2024.
- فرج ياسين ، فقه الصومعة ..خواطر واشعار ، دار إبداع- صلاح الدين 2024.
- حنون مجيد ،عناقيد .. قصة للاطفال، رسوم :عمر طلال حسن، دار ثقافة الأطفال،في وزارة الثقافة -بغداد 2023.
- د. هناء أحمد، قصيدة القطاع الخاص ،شعرية قصيدة النثر عند الماغوط ،اتحاد الأدباء والكتاب في العراق 2023
- د.محمد حبيب كاظم ،الإنسان في الفلسفة المعاصرة ، انسان مابعد الحداثة وانسان الميديولوجيا، دار اهوار - بغداد 2024.

S·Tom
20